كتابي

الحورية ووحش البحر
لوحة للفنان الإيطالى "تيبولو"
(١٦٩٦ - ١٧٧٠)

١٠ قروش

حلمي مراد

طفلة عذبة تلهو على شاطئ « ميامى » بالاسكندرية

(تصوير الطبيب الفنان الدكتور ناجى يسى)

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الخامس والخمسون (السنة الخامسة) : اكتوبر ١٩٥٦
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة: اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
افتتاحية العدد	٧
« أخرجوا من بلادنا ! » (صرخة الوطنيه الايرلنديه فى وجه الاستعمار الانجليزى) ، ترجمة وتعليق : المحرر	١١
الصحراء .. أرحم : قصة ليبية بقلم محمد بدر الدين خليل	٢٣
جواهر لال نهرو (نصير الحرية والسلام) : سيرة الزعيم الهندى الأكبر كما كتبها بنفسه	٣٩
شهداء .. فى قبرص : قصة الاستعمار الغاشم فى كل مكان .. والأبطال الذين يفدون أوطانهم بأرواحهم . للكاتب الصحفى ابراهيم موسى	٧٧
أحزان الشيطان : الجزء الثانى والأخير من القصة الخالدة للروائيه العالمية مارى كوريللى	١٠٣
زوجات الفنانين (أقوى من الحب والفن !) : للكاتب الفرنسى ألفونس دوديه	١٤٣
السلوك الجنسى (التقرير الذى هز الولايات المتحدة ـ من أقصاها الى أقصاها ـ بما كشفه من أسرار الحياة الجنسية بين أهلها !) : للباحث الامريكى ألفريد كينزى وآخرين	١٥٣
الأيام .. والأعمال (أقدم دستور أخلاقى فى تاريخ البشرية) : للفيلسوف الاغريقى هسيود	١٧٧
مذكرات كازانوفا : الكتاب الكلاسيكى الخالد فى أدب العشق والمغامرة	١٩١

الزحف المقدس !

عزيزى القارىء :

من حق مصر ، بل والعالم العربى كله ، أن يشكر لقضية قناة السويس ان امتدت كل هذا الوقت ، وان تطورت بالشكل الذى تطورت به ، اذ أن هذا أدى الى تكشف ظواهر تعتبر من أحدث الظواهر فى المحيط الدولى والسياسات العالمية

ومن أهم هذه الظواهر ، ان الصراع السياسى لم يعد صراع حكومات فحسب ، وانما هو أجل واخطر ٠٠ واذا بالشعوب الحرة - بالمعنى الحقيقى للحرية ، لا الشعوب التى تطلق على نفسها تشدقا « شعوب العالم الحر » ! - تثبت انها لم تعد مجرد « عالات » تكل شئونها للحكومات وتكتفى بالتفرج عليها ، لتصفق لها اذا احسنت ، أو « تصفر » فى وجهها اذا أساءت ، وانما تتقدم هذه الشعوب اليوم لتقوم بدور ايجابى فعال فى كل صراع تتصدى له حكوماتها الرشيدة ٠٠ ومن حق الشعب المصرى ان يفخر بان مشكلة القناة افسحت فرصة له وللشعوب العربية كى تضرب للعالم اروع الامثلة على هذا التطور الحديث !

على اننا يجب ان لا نقنع بما بذلنا - كشعب - حتى الآن ، لان واجبنا اكبر من هذا واخطر ٠ ففى الوقت الذى تبذل فيه حكومتنا مجهودات جبارة لقيادة بلادنا فى هذا الطور الحاسم من تاريخها ، نرانا نحن - كشعب نكاد نلقى على الحكومة كل العبء دون ان نؤازرها المؤازرة الكافية المطلوبة منا كافراد ٠٠ واذا كنا قد بادرنا الى التطوع والتدرب على حمل السلاح ، فلا ينبغى ان نهمل واجبنا المقدس فى معركة اخرى لعلها أعتى واقسى من معارك السلاح ٠٠ تلك هى معركة الصراع الاقتصادى المحتدم بيننا وبين الدول الاستعمارية ، وهى السلاح الذى شهره العدو فى وجهنا منذ اللحظة الاولى !

ولئن كان العالم باسره قد اعجب بما ابدته حكومتنا اليقظة من استعداد ومن حساب سابق لمثل هذا الغدر الاستعمارى ، بحيث لم نشعر باثر للحرب الاقتصادية ، فان هذا لا يعنى ان دورنا يقف عند هذا الحد ، واننا فى اطمئناننا الى تدبيرات الحكومة قد اعفينا من أعباء الحرب الاقتصادية !

ان على الشعب اليوم دورا ايجابيا كبيرا : علينا ان نحول السلاح الى صدور شاهريه ، وان نعلن من جانبنا - نحن الشعب - الحرب الاقتصادية على الدول الغربية ٠٠ لنمض فى مقاطعة سلعها وبضائعها باصرار وضراوة واستماتة ٠٠ لنمض فى المقاطعة الاقتصادية الى ابعد مدى ، ولو اضطررنا فى سبيل ذلك الى ان نحرم انفسنا من كافة اسباب الترف التى تعود الغرب ان يثنى بها عزائمنا ، ويبث بها فينا سموم التواكل والدعة ، كى نشترى منه عبوديتنا له

بايدينا !٠٠ نعم ، فليشن كل فرد منا على الدول التى تعادينا حربا فردية لا هوادة فيها ٠٠ حربا لا تقتصر على مقاطعة بضائع تلك الدول ، بل تتعدى هذا المجال الى مقاطعة مؤسساتها وشركاتها وكل بند من بنود اقتصادها ، يقع فى متناول ايدينا كافراد علمتهم تلك الدول بتصرفاتها الحمقاء وعدوانها الطائش ان يمقتوها بكل ذرة فى كيانهم وكل قطرة من دمهم !

★ ★ ★

◆ هكذا ينبغى ان نمضى فى « الزحف المقدس » ، كما اسماه - بحق - الرئيس جمال عبد الناصر ٠٠ هكذا يجب ان يمضى كل مصرى وكل مصرية ٠٠ كل فرد وكل هيئة ٠ ولعل اقل ما ينبغى على « كتابى » ان يضطلع به من دور متواضع فى هذا النضال ، هو ان يساهم قدر طاقته فى تقديم بعض الوقود لهذه المعركة المقدسة ، فيقدم قدرا كبيرا من المواد التى تصور الوانا من الكفاح الوطنى المجيد فى سبيل الحرية ، والعدالة ، والكرامة القومية ٠٠ وفى مقدمة هذه المواد المقال النارى الذى صدرت لك به هذا العدد ، والذى هز اركان الاستعمار البريطانى فى ايرلندا فى اواسط القرن الماضى ، وقد كتبته والدة الكاتب الخالد الذكر « اوسكار وايلد » ٠٠ يلى ذلك الكتاب الرائع الذى وضعه الزعيم الهندى الكبير « نهرو » فى السجن ، والذى اراد ان يسجل فيه سيرته ، كما يوحى عنوانه ، فاذا به يسجل تاريخ الاحتلال البريطانى فى الهند - وما ابشعه ! - وتاريخ الجهاد الهندى - وما انبله ! - فى سبيل الحرية والاستقلال !٠٠ ولعلك ياعزيزى القارىء اذا قارنت حياة هذا الزعيم الشرقى الذى يقف اليوم فى صف مصر وفى صف قضيتها العادلة، بحياة الرجلين الغربيين اللذين لعبا اهم دورين فى خداع مصر واستغلال قناة السويس لامتصاص دماء المصريين ٠٠ لعلك اذا قارنت حياة « نهرو » بحياة « دزرائيلى » و « دليسبس » - وقد نشرناها فى العددين الماضيين - تستطيع ان تلمس كيف يصل زعماء الغرب الى مناصبهم بالغش والخداع ، بينما يصل زعماء الحرية الحقيقية الى مكانتهم فوق حبات عرقهم وكفاحهم ونضالهم !

كذلك اقدم لك فى كتاب هذا الشهر فصلا رائعا عن (قبرص) ٠٠ الجزيرة المجاهدة التى يحاول الغرب ان يتخذها قاعدة للارهاب الذى يشنه علينا ، وهو انما يشيد ارهابه على بركان يتاهب للانفجار !

هذه كلها جهود متواضعة فى « الزحف المقدس » ٠٠ ومن واجب كل مصرى ان يساهم بدوره بكل جهد فى مقدوره ، مهما يصغر ٠٠ فالصغير الى جانب الصغير يغدو كبيرا ٠٠ وقد شيد الهرم الاكبر من احجار تتضاءل نسبة اكبرها اذا قورنت بحجم الهرم نفسه ، ولكنها عنصر جوهرى فى بنيانه الشامخ الجبار والله ولى التوفيق ٠٠

حلمى مراد

كتابى

أعداد نفدت

الكتب الستة الأولى ، والادارة مستعدة لشرائها .

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع «**صنم تحطم**» ، والعاشر «**حديقة الله**» ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيها الربيع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشيطان على الارض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الارملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بيتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » ، والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون «**ترويض النمرة**» ، والثامن والعشرون «**فن الحب**» ، والتاسع والعشرون «**الجريمة والعقاب**» ، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **اميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الامطار** » ، والثالث والثلاثون « **افروديت** » ، والرابع والثلاثون « **اقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤

◆ **وتطلب** من ادارة «**كتابى**» : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول) وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد (المسجل) ماعدا العددين ١٣ ، ١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر ، والعدد العشرون ، وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ **ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية او اذون البريد الخارجية . وتحرر الاذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا**

مطبوعات « كتابى »

صدر منها حتى الآن :

قصة مدينتين - ذات الثوب الابيض - الخالدون - الخاطئة - حياة امرأة (جزءان) - الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم - اوديب - مدام بوفارى (جزءان) - عاشقات فى الخريف - قلوب ضالة - ديكاميرون (الف ليلة وليلة الايطالية) - الظمأ للحب - جين اير (ثلاثة اجزاء)

وثمن كل من الاول والرابع والسابع ، عشرون قرشا خالصا أجرة البريد المسجل (نظرا لوشك نفادها) ، والثانى والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش ، والثانى عشر ١٤ قرشا

« كتابى » يشترى الأعداد الستة الاولى من القراء

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعـداد الستة الاولى من « **كتابى** » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الاعداد المذكورة .. **فقد رات ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الاولى تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائهـا بعد ذلك من الادارة . فالرجا الإتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، علـى أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا او بالبريد المسجل .**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل ، وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) . ١٢٠ قرشـا وعن نصف سنة (٦ أعداد) : ٦٥ قرشا - فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز الخ ..) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية **Money Order** عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيمة بما يوازى ١٤٠ قرشا (عن سنة) و ٧٥ قرشا (عن نصف سنة) . وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسـا والمانيا وأستراليا الخ . قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) و٨٥ قرشا (عن نصف سنة) خالصة أجر البريد المسجل بخلاف أجر البريد الجوى

المطبعة العالمية

١٦ ، ١٧ شـارع ضريح سعد بالقاهرة
تليفون ٢٩٣١٧

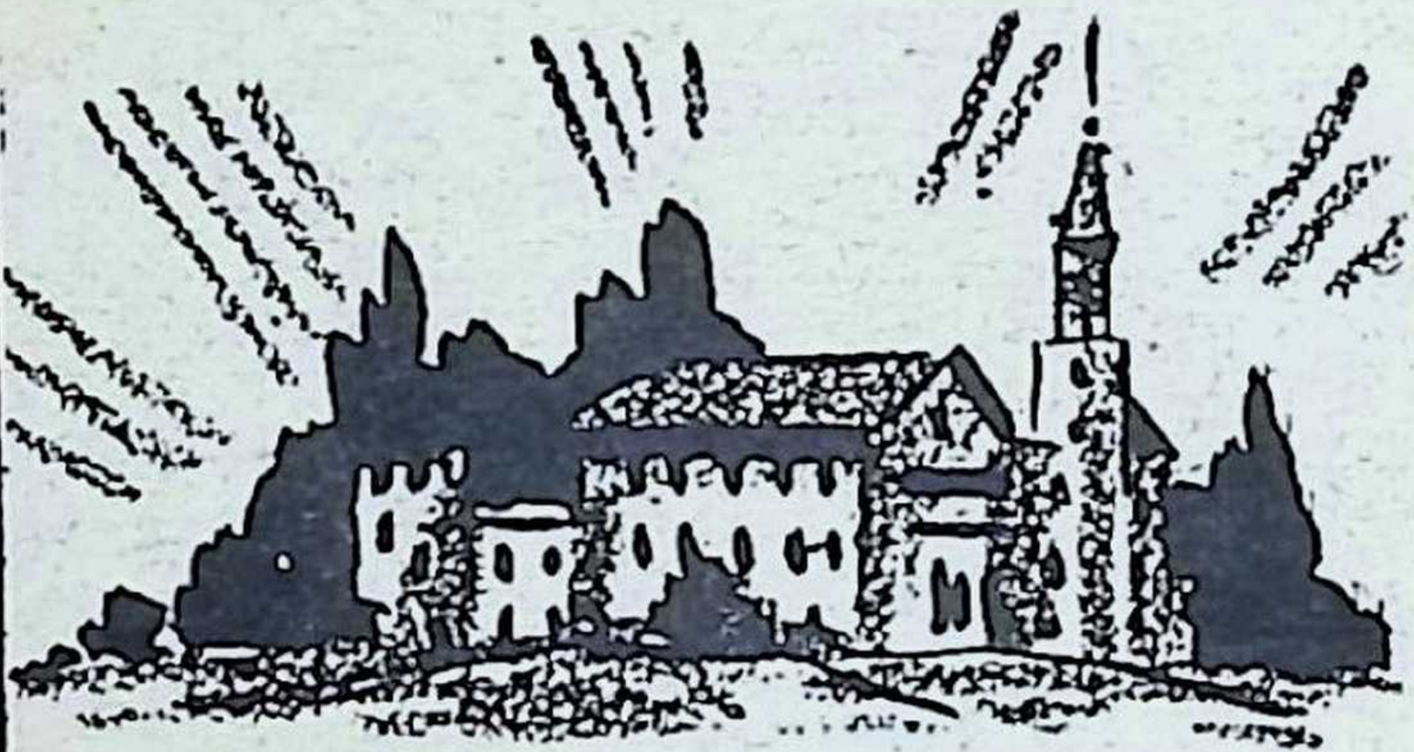

"أخرجوا من بلادنا!"

صرخة الوطنية الإيرلندية في وجه الاستعمار الانجليزي

للأديبة والشاعرة الإيرلندية ليدي وايلد (أم أوسكار وايلد)

ترجمة وتعليق : المحرر

الفتاة التى هزت الاستعمار البريطانى فى ايرلندا !

◆ فى يوم السبت ٢٩ يوليو سنة ١٨٤٨ ، صدرت صحيفة « الأمة » الاسبوعية الايرلندية ، تحمل مقالا ناريا بتوقيع مستعار هو « جون فلشاو ايليس » • وتضمن المقال حملة شعواء على بريطانيا ، ودعوة صريحة للايرلنديين الى الاستماتة فى محاربتها !•• وأثار المقال انزعاج السلطات الانجليزية فى « دبلن كاسل » – مقر قيادة قوات الاحتلال – فبادرت الى مصادرة الصحيفة ، والى الغاء رخصتها والقاء القبض على رئيس تحريرها • ثم امرت بنفى أكثر زعماء الحركة الثورية الايرلندية ، بتهمة الخيانة العظمى • وما لبثت ان قدمت رئيس تحرير « الأمة » للمحاكمة بتهمة اثارة الشعب والعصيان • واستشهد المدعى العام – خلال المحاكمة – بفقرات من مقال « جون فلشاو ايليس » •• وطالب فى مرافعته بارغام المتهم على الافصاح عن شخصية الكاتب ، ولكن رئيس التحرير أكد انه لم يكن يعرفه ، وانما كان يتلقى قصائده ومقالاته بالبريد

وهنا ، انبعث من بين صفوف النظارة صوت يصيح : « انا كاتبة المقال !•• أنا المذنبة ، اذا كان فى الامر ذنب ! »

وكانت المتكلمة فتاة فى الثامنة عشرة ، تدعى « جين فرانسيسكا ايلجى » • وأثارت المفاجاة بلبلة فى اذهان المحلفين ، فاختلفوا فى مدى مسئولية رئيس تحرير الصحيفة ، ومن ثم انتهت المحاكمة باطلاق سراحه

بقى ان تعرف ان هذه الفتاة التى هزت – بقلمها – اركان الاستعمار البريطانى فى ايرلندا ، وسجلت بجراتها اسمها فى تاريخ الحركة الوطنية الايرلندية ، اصبحت فيما بعد : « ليدى وايلد » ، وانجبت للأدب الانجليزى كاتبا من أشهر كتاب القصة والمسرحية هو : « اوسكار وايلد » !

وفيما يلى اقدم لك الترجمة الكاملة لهذا المقال التاريخى الذى اطلقت عليه كاتبته عنوانا لاتينيا معناه : « لقد القينا زهرنا » ، أو « لقد كشفنا ورقنا » !

فرصة العمر .. فى حياة الشعوب المستعبدة !

• **لقد** أجمع الشعب الايرلندى كلمته آخر الامر ، وبذلك تكون انجلترا قد أدت لنا خدمة طيبة وحيدة . فان تصرفاتها الاخيرة بددت آخر حجة تعسة للقائلين بالاذعان السلبى ، وبررت مقاومتنا أمام العالم أجمع ، ورفعت قدر الضراعات المتواضعة المتخاذلة ، من جانب شعب اعزل مهان ، الى مرتبة المطالبة - العزيزة الجسورة - بالاستقلال ، من جانب أمة متكاتفة ، قوية العزيمة ، موفورة الاستعداد ، لا تعرف الخوف !

لقد حان الوقت الذى يعتبر فيه رجال ايرلندا جبناء اذا هم تركوا هذه الفرصة السانحة للقصاص والنضال والظفر ، تمر دون انتهاز !.. **ان هذه الفرصة تقبل عليهم وهم عبيد ، ولكنها ستخلفهم فى وهدة العار والنذالة اذا لم تستغل !**

وحاشاهم ان يفلتوها !.. آنى لارى مائة ألف بندقية تلمع فى ضوء السماء براقة ، والمتاريس الثقيلة مقامة فى عرض كل شارع من شوارعنا العظيمة - التى صيرتها انجلترا مقفرة مهجورة - والتى تحيط بذلك القصر المشئوم (١) . الذى ألحقت به انجلترا العار ، والذى يعقد فيه الطاغية الاجنبى مجالس الخيانة والجور ضد بلادنا منذ سبعمائة سنة !

ان الخطر يستنهض الشجاعة ، والعزم يلهب الوطنية والبطولة .. وان انفاسنا لتنطلق أكثر تحررا ، وتتسارع دقات قلوبنا فى هذه اللحظات العظيمة النادرة من حياة البشر ، عندما يطرح كل شك وتردد وضعف فى الهواء ، وترقى النفوس فى جلال فوق كل عقبة تافهة ، وكل اعتبار وضيع أنانى ، فتحطم أغلال الاهواء والاغراض والتعصب الاعمى والصلف ، وتنطلق

---

(١) تشير الكاتبة الى قصر (دبلن كاسل) مقر قيادة قوات الاستعمار الانجليزية !

محلقة نحو حياة اسمى وأقدس .. حياة البطولة والوطنيـه ، فى اندفاع الفاتحين ، وغيرة المستشهدين ، وقدرة الآلهة !

« يجب أن نكون أحرارا ! »

◆ **اننا** نناشد الامة الايرلندية بأسرها : هل بيننا انسـان واحد يرغب فى أن يمضى الى الامام خطوة واحـدة فى طريق العذاب والعبودية ؟.. هل هناك رجل واحد يرى ان ايرلندا لم تتلق كفايتها من الاهانات ، ولم تسام الخسف وتمتهن فى شرفها وحقوقها بدرجة تبرر انتفاضها الآن عـلى غاصبها فى بأس وضراوة ؟..لا ، حاشا ان يطأ آلارض نذل هذا شأنه !.. **وان فعل ، فان صوت الجبان يضيع ويختنق فى غمرة الصيحة الجهورية ، الضارية ، المدوية ، التى تتردد من تل الى تل ، ويرن صداها من بحر الى بحر ، وتنطلق كقصف الرعد من شفاه أمة ثائرة : « يجب ان نكون أحرارا ! »**

اذن ، فباسم وطنكم الذى أذل وأهين وداسته الأقدام .. باسم جميع فضائل البطولة ، وكل مايؤدى الى حياة مجيدة أو موت جليل مقدس .. باسم الجائعين منكم ، والمنفيين والموتى .. باسم المضحين فى سبيلكم من نزلاء السجون المكبلين بالاغلال .. **باسم الله والانسان ، وباسم الارض التى تسمعنا والسـماء التى تشهدنا ، أهيب بكم ان تحولوا هذه الامنية التى تتملك نفوسكم الى عمل وحقيقة !..** بل بادروا ، حتى وأنتم تقرأون هذه الكلمات المنبعثة من قلب يخفق حماسة مثل قلوبكم .. بادروا وصدوركم تتهدج ، والدموع تغشى أعينكم اذ تغزو نفوسكم ذكرى المظالم التى استهدفت لها ايرلندا .. بادروا الى رفع يمناكم دون ابطاء نحو السماء ، واقسموا .. **اقسموا بأرواحكم الباقية ، وآمالكم فى الخلود ، أن لا تلقوا أسلحتكم قط ، وان لا تكفوا عن القتال ، حتى تنقذوا هذا الوطن المغلوب على امره ، وتطهروه وتبعثوه من جديد !**

وثبة واحدة حاسمة ٠٠ وينتهى الاستعمار !

◆ **ألا** التفوا حول لواء قادتكم ٠٠ منذا الذى يجرؤ على ان يعلن أنه سيتخلف عن السير وراء « أوبريان » ؟٠٠ وهل من بينكم من تبلغ به الخسة والضعة الى درجة تجعله يؤثر العيش ذليلا فى كوخ تعس ، أو يقنع بأن يلتقطوه من الطريق ليلقوا به فى قبر الاحياء الذى يطلق عليه اسم : ملجأ العجزة ، بدلا من ان يهجم كالشجعان والاحرار ، على المرتزقة المأجورين من جنود العدو ؟!٠٠ وثبة واحدة ، جسورة ، حاسمة ٠٠ لحظة واحدة تستجمعون فيها أنفاسكم ، ثم : انقضاض٠٠ اندفاع جارف٠٠ هجوم من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، على الحامية الانجليزية ، فاذا الارض أرضنا !٠٠ ألا تومض أعينكم ،وتخفق قلوبكم ، حين يساوركم الامل فى أن يصبح لكم وطن ؟٠٠ ذلك لانكم بلا وطن ، فأنتم لم تشعروا قط بعزة الاستقلال وكرامته وكبريائه !٠٠ لم يكن أى منكم يملك ان يرفع رأسه نحو السماء ، وان يتيه معتزا بأنه « ايرلندى » ، لان كل أوربا كانت ترى وصمة العبودية على جبينكم !

آه !٠٠ ليت كلماتى تتوهج فى عروقكم ، فتشعل فيكم اقدام الابطال القدماء ، ويغدو كل رجل منكم « ليونيداس » ، وكل ساحة قتال (ماراثون) ! الشجاعة يا مواطنى ! وهل انا فى حاجة الى أن أحدث الايرلنديين عن الشجاعة ؟٠٠ وهل الموت – اذن – مطلب عسير ؟٠٠ واحسرتاه !٠٠ **أفلسنا نموت جميعا كل يوم مرة من كمد قلوبنا الكسيرة ، وأمانينا المضيعة ، وآلام العقل والبدن المضنيةالتى تجعل من الحياة هما ، وتجعل الهم أنكى من العذاب ٠٠ ان حياتنا أصبحت اختلاجة طويلة لموت بطىء !**

لا ! لا يمكن ان يكون الموت ما ترهبون ، فقد سبق لكم ان صمدتم لطاعون تفشى فى سفينة النفى عبر المحيط الاطلنطى، ولطاعون آخر استقبلكم فى أرض المنفى وراء المحيط ،وللمجاعة

والخراب ، ولحياة العبيد وموت الكلاب . . فهلك منكم آلاف ، بل مليـون ! فالشجاعة الشجاعة يا مواطنى ! انكم لن تكذبوا تقاليد الانسانية العريقة التى تتحدث عن الهبة القدسيه التى نفثها الله فينا !٠٠ لقد قرأت عن زوجة رومانيه طعنت نفسها بخنجر أمام عينى زوجها لتعلمه كيف يموت !٠٠ وكذلك خليق بموت هؤلاء المليون من اخوتنا ان يلقننا درسا عظيما ٠٠ ان يعلمنا الموت من أجل ايرلندا !

أجل ، ألم نقسم على هذا ونردد القسم فى ألف كلمة ملتهبة أطلقها شعراؤنا وخطباؤنا ٠٠ وفى القرارات الخطـيرة التى اتخذتها مجالسنا ، وجمعياتنا ، واتحاداتنا ؟٠٠ **لقـد حانت الآن الساعة كى تتبينوا أيهما أغلى لديكم : الحرية أو الحياة !** ٠٠ الآن حانت اللحظة كى تضربوا ، وكى تنقذوا أنفسـكم بضربتكم ٠٠ ولسوف يتسع الوقت بعد النصر كى تحصـوا موتاكم !

العناية الالهية تؤيد القضايا العادلة !

• **على** اننا لسنا البادئين بهذه الحرب . . بل سيكتب التاريخ عنا : ان ايرلندا تحملت من المظالم ما لم يسبق له فى ميدان الطغيان مثيل ٠٠ ومن الآلام ما لا قبل لأى شعب به !٠٠ لقد امتص دماءها سرب من « الخفافيش » تمثل فى سادة وحكام من الاجانب !٠٠ ولقد انتهك شرفها جيش مأجور من الجواسيس ٠٠ وكتمت صرخاتها يد النذالة المسلحـة المستترة وراء ثوب القانون !٠٠ وتضور فلاحوها جوعا وهم يحصـدون القمح لسادتهم الاجانب ، لان أحدا لم يجد عليهم بالخبز !٠٠ وذاب من السقم والهزال صناعها الشاحبون ، لان أحدا لم يمنحهم عملا ٠٠ وألقى بعباقرتها وبأنبل أبنائها وأطهرهم فى سجون المجرمين ، حتى لا يسمع أحد صوت « الحق » !٠٠ وفى غمرة هذا الهزال الفظيع الذى ألم بجميع القوى الذهنيه والجسديه ،

وذلك الركود الذى أصاب كل مظاهر الوجود ، كان كل من يتجاسر فينهض متسـائلا عن السبب الذى من أجله جعـل الانسان من ايرلندا ـ التى خلقها الله جنـة وارفة الظلال ـ مباءة المعمورة بأسرها ٠٠ **كان كل من يتجاسر على هذا التساؤل يوصم بميسم الاجرام ، فيسجن ، ويعذب ، ويصفد بالاغلال ، وينفى ، ويقتل !**

هذا ما سوف يكتبه التاريخ عنا ٠ وسيسجل أيضـا ان ايرلندا لم تهب من هـذا النعاس الرهيب المفعم بالعـذاب والقنوط ، آلا بعد آن سدد الى قلبها ثلاثون ألف سيف ٠٠ بل انها اذ ذاك لم تهب للثأر ، وانما هبت لتستعد للمقاومة فقط !

كلا ، اننا لسنا البادئين بالعدوان ٠ لسنا نحن الذين نشعل هذه الحرب الرهيبة ، بل اننا ـ برغم ان ستة ملايين من القلوب تتحرق لمعاونتنا ، وبرغم ان كل فرص النجاح تلوح فى صفنا وتعمل لمصلحتنا ـ ما زلنا نعرض شروطنا للصلح مع انجلترا ! ٠٠ فلو انها تراجعت وأذعنت ـ فى هـذه اللحظة الاخيرة ـ وسلمت لايرلندا بمطالبها العادلة المعتدلة ، لما ارتفعت أسلحتنا مشرعـة لتقطع الرباط الذهبى الذى يربط الشعبين !٠٠ ان فرص النجاح كلها فى صفنا ٠ ففى القضايا العادلة قوة شبه الهية ، وفيمن يقاتلون فى بلادهم ـ لكى يضعوا آيديهم على أرضهم ـ طاقة مستميتة ، وحماسة متأججة ، مستعرة ، تهزأ بكل الاخطار ، اذا ما لاح لهؤلاء المجاهدين ـ وراء النجـاح ـ أفق مستقبل من المجد الخالد والهناء المقيم لوطنهم !

نقود الانجليز ٠٠ لسفك دماء الايرلنديين !

◆ **ليس** الذين يتصـدون لقتالنا سـوى جنود مرتزقة ، وشرطة مأجورين ٠ ومع انهم مجرد أدوات مدربة ، الا انهم ولا بد سيرتجفون هلعا من المذبحة المروعة التى تدفع انجلترا بهم اليها ، باسم « الواجب » المزيف !٠٠ وان بينهم لكثيرين

يشعرون بالود لهذا الشعب الذى أوفدوا لاغتيال أبنائه ٠٠ فهم أبناء أرض واحدة ، تجمعهم الزمالة بأولئك الذين يكافحون فى بسالة وبطولة ، ليرتقوا بوطنهم المشترك !٠٠ **وليس شك فى ان أى قدر تبقى لهم من الشعور الانسانى ، سيحملهم على الاشمئزاز ! سيخجلون استحياء وهم يقبضون نقود انجلترا التى تستأجرهم لهذه المهمة اللعينة ٠٠ مهمة سفك دماء اخوتهم !٠٠** أفكان أى صقلى يقبل ان يجند فى جيش نابولى ؟٠٠ أو كان أى مواطن من ميلانو يرتضى ان يسير مع جحافل النمسا ضد بلاده ؟٠٠ حاشاهم ، فان أهل صقلية يقدسون الشرف ، وما كان سكان ميلانو ليترددوا فى أن يبتروا أيه ذراع آثمة تجرؤ على أن تقدم اليهم ذهب النمسا أجرا لسفك دماء مواطنيهم !٠٠ ومعاذ الله ـ كذلك ـ ان توجد فى ايرلندا عصبة ، ممن يرتزقون بحمل السلاح ، تقبل ان تقاتل ضد وطنها تحت علم طاغيه أجنبى !

ولكن ، اذا صح حقا ان المصلحة أو القسر انزلق بهم الى هذا الوضع الشاذ البشع ، فلنرث لهم !٠٠ لنرث ألف مرة لاولئك الضباط الشجعان الذين غلبت الاهواء شرفهم !٠٠ لنرث لاولئك الجنود البواسل الذين يكسبون ببأسهم الايرلندى مجدا لبريطانيا ، والذين يلطخون الشرف والسمعه والمهنة وهذه السيوف الباسلة اذ يعيرونها لقضية مشينه كهذه !

العار الابدى ٠٠ على بريطانيا ومعاونيها !

◆ **أجل** ، ليس ثمة مايدعونا الى أن نرتجف قلقا على أمه مفعمة بحماس طاهر مقدس ، تقاتل من أجل كل ما تعتز به طبيعة البشر من قيم ومعنويات ٠٠ **ولكن لسادة أولئك الجنود المرتزقين ان يرتجفوا فرقا من اجل قضيتهم ، فان الشعور**

بالعار الابدى سيوهن كل ذراع ترتفع لكى تناصر تلك القضية !

فاذا لم تتقدم حكومتهم — اذن — بعروض مشرفه سخيه ، فلتنطلق الحرب الايجابية والسلبية من عقالها فورا !٠٠ ان الانجليز يستندون الى حسن تنظيم جيوشهم ، أما نحن فنعتمد على عدالة قضيتنا !٠٠ وحتى اذا أضيف الحماس المتأجج — الذى يعوزهم — الى ما لجيوشهم من نظام ، فلن يمكن هذا حامية مكونة من ثلاثين ألفا ، من الصمود فى وجه سته ملايين !

وهناك شىء مقطوع به ٠٠ ذلك هو إن فى وسع الشعب — اذا لم يشأ أن يقاتل الحامية الانجليزية بالسلاح — ان يقضى على جنودها جوعا !٠٠ فلنتبع خطة أهل ميلانو ، فيكف كل منا عن أن يبيعهم شيئا ٠ ومن الميسور تسليط هذه الحرب السلبية عليهم فى كل قرية من قرى ايرلندا ، فى الوقت الذى تأخذ فيه الخصومة الايجابية مجراها فى جميع مدننا الكبرى ٠٠ على أن يكون الهدف الاعظم لجميع الجهود ، هو :الاستيلاء على العاصمة !٠٠ ليكن كل خط موجها نحو هذه النقطة !٠٠ **ان قصر « دبلن كاسل » هـو نقطة ارتكاز قوة الانجليز فى بلادنا ، فاستولوا عليه ٠٠دمروه ٠٠أحرقوه !٠٠**أو فلتصبحوا على أية حال سادته وأصحابه ٠ وفى عين المكان الذى صدرت منه جميع تلك التصرفات المهينة ، المشينة ، التى أثارت غضبة شعب واصراره على ان يثأر لنفسه من ظالميه ثأرا عادلا ٠٠ فى عين هذا المكان٠، أقيموا حكومة تستطيع طبقات الشعب كلها أن توليها ثقتها !

وعلى هذه القاعدة ، قاعدة الطغيان المنهار والفساد المتداعى، شيدوا نصبا للنبل ، يخلد ثورتنا ويظهرها فى أسمى مظاهرها ٠ **اذ لا ينبغى لشعب نهض ليطرح عنه طغيانا ان يقيم فى مكانه طغيانا آخر مقنعا !٠٠ فلتكن حربنا — اذا ما حاربنا —**

من أجل الاستقلال المطلق ٠ ولما كان من الضرورى فى كل ثورة ان تتجه الخطوة الاولى الى الحيلولة دون انتشار الفوضى ، فعلى الذين يختارون لتأليف هذه الحكومة الجديدة ان يبسطوا فورا حمايتهم وسلطانهم على دولاب الثورة ليضمنوا تقدمها وتنظيمها ٠ وليكن من واجبهم أن يسهروا على رعاية الحركة حتى لا يقع جرم يلطخ علم الحرية الايرلندية الطاهر !

يجب ان نثبت للعالم اننا أهل لان نتولى حكم أنفسنا ٠٠ واننا جديرون حقا بأن نغدو شعبا حرا ٠٠ وان لكلمات « الاتحاد » و « الحرية » و « الوطن » – فى قلوبنا ومسلكنا – نفس ما لها على شفاهنا من معنى مقدس ٠٠ وان الوطنية لاتعنى مجرد القوة الضارية الجائحة التى سحقت الطغيان ، وانما هى تعنى أيضا اعادة بناء الوطن ، والبطولة ، والتضحية ، والسمو ٠٠ وان مهمتنا لا تنحصر فى تحطيم الأغلال التى تكبل ايرلندا ، وانما هى تمتد الى النهوض بالوطن الى مستوى مجيد !

السمو بالوطن وتطهيره ٠٠ بعد تحريره من مستعمريه !

◆ **ان** مهمتنا هى الدفاع عن الوطن ، وتحريره ، والسمو به ، وتطهيره !٠٠ وما من شىء ينقصنا الآن كى نستكمل بعثنا وندعم نجاحنا ، سوى ان نطرح عنا تلك الرذائل التى شوهت اسمنا بين الشعوب ٠ ان لدينا فى ايرلندا مخلفات رهيبه تحجب كلمة الحرية بظلالها القاتمة ٠ **فلتكن مهمتنا – نحن أبناء هذا الجيل ٠٠ أبناء الشهداء والمجاهدين والابطال – ان نجعل من هذه الكلمة انجيلا مشرقا بالسعادة ٠٠ وعهدا يسود فيه « الحق » على الاوهام والرموز الخيالية ، وتسود « الحكمة » على الاهواء والرجعية ، و « الانسانية » على الطغيان والجور !**

أيها الايرلنديون ·· ان هذا البعث الذى يهب ايرلندا حياة جديدة ، يعتمد عليكم !·· لقد رقدنا أمواتا اذ قتلتنا البغضاء، وانعدام الثقة ، والاضطهاد ، وتفرق الكلمة ، والانانية ، والتعصب الدينى !.. انها جميعا مرادفات لكلمة الموت .. فلنسحق كل الرذائل ، ولنمحق جميع العواطف الشريرة ونطأها بأقدامنا كما داس المسيح بقدمه الحية الرقطاء !

اذ ذاك ستتعالى الى عنان السماء صيحات التهليل المزهوة بالحرية ، منبعثة من شفاه شعب فقير ، فاضل ، متجدد ، يباركه الله !·· فاذا أرضنا الجميلة هذه ـ التى تثير الآن جزع العالم ببؤسها ـ تغدو معبدا واحدا ، شامخا ، نركع فيه جميعا فى أخوة : **أبناء وطن واحد ، وأولاد رب واحد ، تضمهم أخوة قدسية واحدة ، قوامها الحب والسلام ، وتراث مشترك من البركات التى اشتريناها بدمائنا ·· تراث من الحرية ، والعدالة ، والاستقلال ، والرخاء ، والمجد !**

ملوك وأباطرة وحكام

أسلموا قيادهم لسحر الجمال ، فتغير وجه التاريخ !

ماذا تعرف عن صاحبات السحر .. أو

فاتنات الرجال ؟!

كل أسرارهن .. وكل مكائدهن .. وكل مؤامراتهن .. ستكون فى متناول يديك ، فى منتصف الشهر الحالى ، حين تصدر « مطبوعات كتابى » ، حاملة اليك سيرة حياة ست من أولئك النساء !

فارقب القفزة الجديدة لسلسلتك الشهرية

مطبوعات كتابى

لا تنس ان تحجز نسختك قبل موعد الصدور فى منتصف أكتوبر الحالى

قصة ليبية بقلم
محمد بدر الدين خليل

لم يكن فى المدينة صوت يوحى بأن قبسا من الحيـاة يدب فى أنحائها ، فقد كان يسيطر عليهـا سكون رهيب ، وخلت طرقاتها من أية نفس حية ، ولم يبد فيها سوى تلك المنـازل التى تناثرت فى فوضى فطرية ٠٠ كمـا هو الحال فى المدن الصحراوية فى طرابلس الغرب !

وكانت المدينه خالية فعلا ، ولكن ٠٠ من رجالهـا الاقوياء وشبابها الموفور القوة والحماس ٠ ولم يعد فيها سوى النساء والاطفال ، وأولئك الشيوخ الذين تقدمت بهم السن الىدرجه الضعف ، ففقدوا حولهم وقواهم ، وصار منهم شبه الكسيح - الذى لا يقوى على المشى - والكفيف الذى فقد نور الابصار ، والمشلول الذى لم يعد يستطيع حراكا ٠ **أما الشيوخ الذين بقيت فى أبدانهم ذرة من قوة ، فقد اسـتمدوا من أرواحهم ووطنيتهم وشممهم شبابا ، وأبوا أن يقعدوا مع العـاجزين ، فحملوا سلاحهم وانضموا الى الشباب الذى هب للجهاد**

وما كان للذين بقوا فى المدينة أن ينعموا ببقائهم هذا ،فقد استكانوا فى دورهم خائفين ، وقـد شحبت منهم الوجوه ، وارتجفت الاوصـال ، وخفقت القلوب !٠٠ وكانوا يروحون ويجيئون داخل الدور فى وجوم واضطراب ، وبحركات أثقلها القلق الجاثم على النفوس ٠ بينما استقبل الشيوخ الطاعنـون القبلة ، وراحوا يصلون فى حرارة وايمان ، رافعين الاكف لله تضرعا وتوسلا ، وقد انسابت الدموع سيولا تنحدر فىأخاديد الوجوه المتغضنة ، وتبلل اللحى الكثة البيضاء !

وتحول الاطفـال عن لعبهم وقد بدأوا يفهمون شيئا من حقيقة الامر ، ويدركون سر تغيب آبائهم واخوتهم وأقاربهم - فى ذلك اليوم الخطير - فانزووا فى أركان الدور يتهامسون، وقد زخرت عيونهم البريئة ، الصغيرة ، بقلق غريب ، وتوجس مبهم :

-- لقد جاء الطليان ٠٠ يبتغون أن يقتلوا آباءنا واخوتنـا وكل رجال بلدنا !

- ثم يدخلون المدينه ، فيهدمون بيوتنا ، ويقتلون أمهاتنا ، ويعذبوننا أو يأخذوننا الى بلادهم لندخل فى دينهم ٠٠ هكذا سمعت أبى يقول لأمى قبل رحيله !

وتتساءل نفس ساذجة ، طاهرة : « ولكن ٠٠ لمـاذا ؟٠٠ أليس هذا حراما ؟ »

فتجيبه نفس ساذجة طاهرة أخرى : « **سمعت شيخ الزاوية يقول لاخى انهم جنود الشيطان ٠٠ يعيشون على الخمر والشر والقتل والنهب ٠٠ولم يخلقهم الله هكذا ، ولكنهم كفروا به !** »

وتغرورق العيون البريئة الصغيرة بدموع حائرة !

وكانت النسوة يجلن فى أنحاء دورهن شـاردات الفكر ، زائغات البصر ، مذهولات ، يبحثن عن أشياء لم يكن يدركنها ، والواقع انهن كن يفتقدن الأحبة الغائبين ! فاذا ما أعيى كل واحدة البحث عن عزيزها ، تذكرت انه غادر أسوار البلدة فى عدته وسلاحه ، ليصد عادية الجيش الايطالى الذى كان يهاجم البلدان الطرابلسية فى تلك الفترة ، وهو يتحرف جشعـا الى الاستعمار ، ويتعطش الى الدماء الذكية يسفكها باسم الحضارة والمدنية !٠٠ وتروح كل امرأة تتصور رجلهـا فى محنته ٠٠ المحنـة التى اندفع اليها راضيا ، متشـوقا ، مستهينا بجحيم القتال من أجل الدفاع عن الوطن ، وعن العرض ، و ٠٠ عنها ، هى !٠٠ فاذا أمضها القلق والخوف على الحبيب المجـاهد ، دفنت وجهها فى راحتيها ، و مضت تنشـج بالبكاء فى حرقه ولوعة ، وترفع رأسها بين الفينة والفينة الى السماء ، فتنساب الدموع الى النحر الناصع ، بينما تتمتم الشـفتان الحائرتان صلوات حارة تتخذ طريقها صعدا نحو السماء ، لتنسكب عند أقدام الاله الرحيم !

* * *

ومالت الشمس جانحة نحو الغروب ، فاصطبغت السماء بلون قان ، كأنما هو انعكاس الدماء التى كانت تروى رمال الصحراء خارج أسوار البلدة .. الدماء الذكية التى أهرقها جشع الاستعمار الغربى ، فسجلت لاصحابها الابطال - من أحرار طرابلس - مجدا ساميا وخلودا مقيما !

وقدر للمدافع الضخمة والاسلحة الفتاكة - التى كان الغزاة يحملونها - ان تسكت البنادق الصغيرة القديمة ، وان تنصر الطامع الظالم على المسالم المظلوم !.. ولم يحل الغروب ، حتى غلب المدافعون - غير المستعدين وغير المدربين - على أمرهم ، فتشتت شملهم ، وتناثروا فى فضاء الصحراء الواسعه .. ولكن أرواحهم كانت قوية رغم الهزيمه .. كانوا يدركون أنهم مغدورون ، وأعداءهم غادرون .. وأنهم أصحاب حق ، وأعداءهم الظالمون ، ولذلك كانوا يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن الله ولابد ناصرهم ، **فأقسموا على أن لا يعودوا الى دورهم وأهلهم حتى يطهروا البلاد من أدناس المعتدين ، واتفقوا على أن ينطلق كل منهم فى عرض الصحراء ، يحاول ان يلحق بمن سبقوهم من أبناء البلدان الاخرى ، فى المعاقل التى لاذوا بها فى جوف البيداء** . ولكن كلا منهم لم يتمالك ان يلقى نظرة على المدينة وهو يدبر عنها .. نظرة وداع حزينة !.. ولم يستطع ان يكبح فكره عن ان يتجه الى حيث ترك أهله : زوجه ، وأمه ، وأخته ، وأطفاله ، وذلك الأب الكهل المتهدم الذى باركه فى الصباح وهو يودعه ، ومضى يشيعه بالدعوات!

ولف المدينة - حين أقبل المساء - رداء قاتم حزين .. لم يفكر أهلها فى ايقاد شمعة واحدة تبدد شمل الظلام ، وكأنما ارتاحت نفوسهم الى سواد الحداد !.. وظلوا قابعين فى بيوتهم يسيطر عليهم جو حزين رهيب ، بينما راحت الدموع تحفر على

الوجنات أخاديد عميقة .. فلقد أيقنوا انهم لن يروا أعزاءهم بعد ذلك ، اذ بلغ آذانهم وقع أقدام الايطاليين ، وهم يطأون جثث ضحايا الحرية ، ليحتلوا البلدة !

* * *

وكان السكون أشد مايكون رهبة وحزنا ، حول بيت منعزل في طرف المدينة ، حين سمعت حوافر فرس تضرب الارض بقوة وعجلة ، حتى اذا صارت عند باب الدار ، انقطعت أصداؤها ، وعاد الصمت الشامل لحظات ، ثم توالت على الباب طرقات حذرة !

وارتجفت الزوجة الصغيرة - التى كانت فى ذلك البيت - منكفئة على فراش عرسها ، تبكى الزوج الذى لم تنعم بقربه ليلة واحدة .. فكأنما شاء حظها التعس ان يحدد ليلة زفافها موعدا يسلم فيه البلدة الى العدو !.. وما هى ان زفت الى زوجها ، وبدأت تشعر بدفء أحضانه ، حتى نادى المنادى ، أن هبوا أيها الرجال ، فان العدو قادم .. **وأجفل الزوج الشاب، ولكن فطرته الحرة غلبت كل تقاعس ، فاذا هو يقصى عنه عروسه فيسلمها الى الفراش ، ويهب متأهبا للانطلاق الى الجهاد !**

لكم كانت الذكرى القريبة تؤرق الشابة الصغيرة وتقطع نياط قلبها أسى ولوعة !.. ولكن وقع حوافر الفرس ، والطرقات الخافتة على الباب ، انتزعتها من ذكرياتها وأشجانها .. واذ فطنت الى موقفها ، تولاها شعور من الخوف . وتبادر الى ذهنها ما كانت تسمعه عن فظائع الجيش الغازى فى المدن الطرابلسية الاخرى .. لقد كان يهاجم الدور الآمنة ، وينتهك حرمات أهلها ، ويسطو فى بهيمية على أعراض نسائها !

وراحت العروس تفكر بسرعة .. لقد ترددت منذ ساعة صيحات فى البلدة بأن الجيش الايطالى دخل المدينة ، وان على

القوم ان يأخذوا الحذر .. ولا شك فى أن الطارق جندى عابث من هؤلاء الوحوش ، هفت بعقله نشوة النصر ، وأهاجت العزة بالاثم حيوانية فى كيانه ، وأضرم الخيال الآثم فى نفسه نيران الشوق الى فتاة المغرب ذات القناع ، التى تعيش بين جدران لايزال سحر ألف ليلة وليلة يشيع فى جوها !

وساءلت العروس نفسها : ترى ماذا تفعل ؟.. أيكون **جسدها متعة لعدو أجنبى بغيض ، بينما حرم منه زوجها الذى لم تنعم بقربه ليلة ؟.. أتتحسس جسدها يدان مازال دم زوجها يقطر منهما ؟.. لا ، لن يكون هذا !**

وعادت الطرقات تنبعث على الباب ، وقد ازداد ترددها سرعة ، وان ظلت خفيفة الوقع حذرة . وقالت الفتاة لنفسها : عجبا !.. أمن المعقول ان يستأذن الراغب فى اقتحام الدور والسطو على الاعراض ؟.. واذا هو طرق الباب خدعة ، فهل من المعقول ان يظل فى الانتظار كل هذه الفترة ؟.. ثم ، هل هو يقنع بهذه الطرقات الخافتة الحذرة ؟.. وما حاجته الى الحذر وفى وسعه ان يقتحم الدار علنا وجهرا ؟.. اذن ، فمن يكون الطارق فى مثل هذه الظروف ؟

وسارت الى النافذة ، فأرسلت نظرها خلال خصاص المضاريع الخشبية ، واذا بشبح التف فى رداء أبيض ، والتصق بالباب وكأنه يخشى ان يراه أحد . وعادت العروس تسائل نفسها : أيكون رسولا من زوجها ؟.. ولم لا ؟ .. ولكن أملا جريئا وسوس اليها بفكرة ، فهتفت لنفسها : « ولم لايكون هو زوجى نفسه ؟ » .. وخفق قلبها فى رجاء ، وأبرقت عيناها بشعاع واله وحنين ، وهمست خلال ثقوب المصاريع : « من الطارق ؟.. من أنت ؟ »

وحمل النسيم الواجم همستها الى اذن الطارق ، فرفع رأسه الى النافذة . ولم ير شيئا بالطبع ، ولكن الزوجة رأت كل شىء ، فقد أرسلت النجوم الحزينة الكاسفة ضوءا واهنا غمر الوجه

المتطلع .. فما أن تبينت الزوجه الصغيرة ملامحه حتى ندت من بين شفتيها صرخة خافتة فرحة، وأسرعت تقفز درجات السلم الخشبى حتى وصلت الى الباب فرفعت مزلاجه ..

* * *

وتلقتها ذراعان قويتان ، فدفنت وجهها فى صدر الرجل الذى لم تشرعواطفه ضجة المدافع فى ميدان القتال ! وهمس فى اذنها : « ليس ثمة وقت أطفىء فيه جذوة شوقى .. لقد نفذت خلسة من الباب الخلفى للمدينة ، حين شعرت بالطليان يلهون فى الحامية ويحتفلون بانتصارهم المزرى .. يالهم من أوغاد ! »

واختنق صوته .. كان يعزى نفسه بسبابهم ، وينتقص من انتصارهم ليهون على نفسه المصاب فى اندحار المدينة .. ولكنه كان يريد ان يقول شيئا آخر ، لو لم يرتج عليه الحديث .. وأخيرا قال ينتزع الكلمات انتزاعا : « لم تعد لى اقامة هنا . ولسوف أفارقك أيتها الحبيبة .. ترى متى نجتمع ثانية ؟ » .. واختنق صوته مرة اخرى .. وانهمرت دموعه رغما عنه ، فاختلطت بدموع امرأته . وران عليهما صمت عميق . ثم عاد الشاب يضم عروسه الى صدره بشدة وهو يغمر وجهها بقبلاته .. حتى اذا أحس أن جلده أوشك ان يخونه ، انتزع نفسه من أحضانها واتجه نحو الباب .

واذ هو يهم بالخروج ، صاحت المسكينة فى ألم ، فتوقف

قليلا عند الباب ٠٠ وهتفت ملتاعة : « اواه !٠٠ الى أين ؟ » ٠٠ واستجمع قواه وجلده ليقاوم عواطفه ، وقال : « **الى الجهـــاد يافاطمة !٠٠ لن يعرف واحد منـا لذة الاستقرار ، حتى نطرد الدخيل الغاشم من أراضينا !٠** »

وعادت تهتف : « ولمن تتركنى ياعبد السـلام ؟٠٠ لا أهل معى ولا معين يدافع عنى ! » ٠٠ وللمرة الاولى فطن الى الحقيقة التى لم يكن يجهلها ، ولكنها كانت غائبة عنه ٠ لقـــد كانت فاطمة ابنة عمه ، وزميلة صباه ، فضلا عن انها زوجته ، فكيف يخلفها وحيدة بلا نصير ؟٠٠ ولكن أهلهما لم يكونوا مقيمين فى البلدة ذاتها ٠٠ البلدة التى كان يعمل فيها ، والتى حمل اليها عروسه فى الليلة السالفة ، وســط موكب من راكبى الابل والدواب ، رافق العروسين حتى باب الدار ، على عادة القـوم هناك ٠٠ الليلة السالفة !٠٠ من يصدق انالليلة السالفة كانت ليلة زفافهما ؟٠٠ ولكن ٠٠ لمن يكل أمر فاطمة ؟

ومكث لحظة مترددا ، ثم خطرت له فكرة ٠٠ لماذا لايحملهـا معه الى مضارب أهلهما فى الفلاة ، فيتركهـا بينهم ، وينطلـق لمواصلة الجهاد ؟٠٠ وأسرع يحملزوجته بين ذراعيه ، ثمقفزالى ظهر فرسه ، واطلق لها العنان !٠٠ وما لبث ان صـار خارج البلدة دون ان يفطن اليه أحد ٠٠ وضاع وقع حوافر جواده فى ضجيج الجنود السكارى الذى تعالى يدنس جو الليل !

وانطلق الجواد يعدو بأقصى قواه ، وقد أعاد اليـــه نسيم الليل نشاطه ، وأوحى اليه سكون الصحراء والظلام الداكن بخطر مجهول يحيط بسيده المحبوب ، فأمعن فى الاسراع !

وأعاد هول الموقف الى عبد السلام قواه المكدودة ، فشــد ذراعيه حول حمله الغالى ٠٠ حول المرأة التى استكانت اليـــه ودفنت وجهها الصغير فى صدره العريض ، وهى مطمئنة الى رجلهـا ، واثقـة من قدرته على ان يحميهـا من كل ضيم أو ضر ٠٠

ومضى الليل ٠٠ والجواد يهيم براكبيه على غير هدى ٠٠ وانبثقت أضواء الفجر أخيرا ، توحى الى الرجل الهارب بالامل ٠٠ كانت مثله مهزومة ، ثم قدر لها ان تنتصر ، وان تطارد جيوش الظلام !٠٠ وتحركت « فاطمة » عندما داعب عينيها شعاع رقيق حار من الشمس ، فاختلجت اجفانها ثم انفرجت عن عينين انتقلتا بها من وادى الاحلام الى عالم الحقيقة ٠٠ والتقت العينان الحائرتان بعينى زوجها اللتين يبدو فيهما الاجهاد والتعب ، والالم والاسى ٠ وانحنى عبد السلام يغمر وجهها بقبلاته الحارة وهو يقول : « هل استيقظت يافاطمه ؟ »

فلمعت فى عينيها الدموع وقالت فى ألم : « أو لم نصل بعد الى مضارب الاهل ؟ »

ولم يجب عبد السلام ، فقد نبهه سؤالها الى أمر غاب عنه فى انطلاقه منذ بارح المدينة فى جوف الظلام ٠٠ ولكن ، كيف كان يستطيع أن يتعرف طريقه فى الظلام الدامس ٠٠ الظلام الذى ران على الكون ، والظلام الذى ران على عقله فى غمرة الاضطراب ؟

★ ★ ★

وراح يتلفت حوله ، ثم ارتد ببصره حائرا ٠٠ وعاد ينظر ويتفرس فى كل حجر ، وفى كل كثيب من الرمل ، وفى كل فرع من العشب ٠٠ لا ، انه لم يجتز هذه البيداء من قبل !٠٠ ولكنه أشفق على فاطمة ، فلم يعرب لها عما بدا له ، ومن ثم سكت على مضض ، حتى اذا أشرقت الشمس حاول أن يستعين بها على تعرف اتجاهه ٠ ولكن الضحى أوشك ان ينتهى ولما يطمئن الى طريقه ٠ وأغفت فاطمة فى تلك الاثناء ، ثم استيقظت ثانية لتسأله : « ألم نصل بعد ؟ ٠٠ لقد حلمت اننا إنتهينا الى واحة آمنة ، اتخذنا فيها عشا هادئا ، بعيدا عن العدو الذى اغتصب ديارنا ! »

وعاد يجيل بصره فيما حوله .. انها أرض غريبة عنه لم يضع قدما بها يوما ما . ولكن أين موقع هذه الارض من العمران ؟

وانتصف النهار ، وقست أشعةالشمس على الركب الهارب، فوهنت قوى الجواد . واذ ذاك علت جبين عبد السلام سحابة من الهم والخوف ، وبدت فى عينيه حيرة وقلق .. ولكنهما لم يطولا . اذ لم يلبث ان أبصر بكثيب من الرمال ، فأسرع يقود جواده صوبه ، حتى اذا بلغه قفز فى تعب ، فأراح حمله على الرمال المترامية خلف الكثيب ، ثم نشر « الحرام » الفضفاض الذى كان يلفه حول جيده كعادة أهل الصحراء ، وجعل منه مظلة تمنع عادية الشمس عنه وعن حبيبته ، بينما اطلق الجواد يبحث لنفسه فى الحشائش الجافة المتناثرة ، عن طعام ..

ومضت ساعات قبل ان يزحف الاصيل .. وكان رأس عبد السلام قد تدلى على صدره اذ أثقلته الافكار .. وأصاخ الذهن المكدود الى صيحات الجسد المتعب ينشد الراحة ، فاستسلم لسبات تتخلله الاحلام المزعجة .. وما لبثت شمس الغروب ان انعكست على وجه الزوج النائم ، تنبهه برفق الى ان الوقت قد حان ليواصل سيره . فتأهب من جديد ، وسرح البصر فيما حوله يبحث عن طريق يسلكه ، ولكنه لم يجد طريقا واضحا يطمئن اليه ، فما كان له عهد بتلك البقعة من قبل . وشعر بالجوع يقسو على امعائه فرفع وجهه الى السماء فى ضراعة صامتة .. ولم يلبث أن قرر ان يترك للجواد العنان ليتخذ اى طريق يشاء ، عسى ان يهديه الحظ الى مكان مأهول .

وكانت فاطمة نائمة ، فتأمل وجهها ، فاذا بفمها ينفرج عن ابتسامة ملائكية عذبة .. واشفق أن يوقظها ، ولكنها لم تلبث ان فتحت عينيها ، فوقعت أولى نظراتها على عبد السلام . وأشرق وجهها ! .. وأجالت الطرف حولها ، فتجلت الحقيقة التى استترت وراء صور الاحلام . والهب العطش حلقها الجميل ،

فنظرت الى زوجها فى توسل وقالت فى صوت خافت ـ كأنما كانت تخشى أن يكون مطلبها عسيرآ : « اننى عطشانة ! »

وتذكر الشاب ان ساعات طويلة قد انقضت منذ ذاقا المـاء والطعام لآخر مرة ! ومن أين له ان يأتى بالماء فى هذه الصحراء المقفرة !٠٠ وتجلت فى عينيه حيرة أليمة !٠٠ وود لو استطاع ان يسيل دماءه ماء يقطره فى فمها فتروى عطشهـا !٠٠ وقال أخيرا فى أسى : « أسفى عليك ٠٠ ومن اين الماء ياحبيبتى ؟ »

وكأنما خشى ان يسوقها الى عذاب اليأس،فلم يلبث ان قال: «صبرا٠٠سنتابع رحيلنا ، ولن يأتى المساء حتى نبلغ العمران»

وامتطى الجواد وقد حملها بين ذراعيـه ، فانطلق الحيوان الوفى يواصل الرحيل براكبيه !

* * *

وأقبل الظـلام من جديد يلفهمـا بستاره الذى لم يتخلله غير شعاع واهن ضعيف أرسلته النجوم لتطمئن الهاربين الى ان فى السماء ربا يرعاهما !٠٠ وهبت الريح ، ولكنها كانت عنيفة محملة بالرمال ، فهاج الجواد ، يثيره شعوره الغريزى بمقدم العاصفة الرملية ٠ وخفق قلب الزوج الشاب وهو يحسب خطر تلك العاصفة ٠٠ كان ينشد الفرار بزوجتـه من شر ، فاذا الشرور تتتابع فى وجهيهما ٠٠ ولم يجزع على نفسه قدر جزعه على فتاته ٠٠ ونظر اليها فاذا بهامستسلمة الى أحضانه تستمرىء الدفء ، وقد تاه بصرها فى السماء ، تتصور على صفحتها بر السلامة ، وكوخ الاحلام الآمن ٠٠ ومضت برهة تحركت بعدها متألمة ، قائلة : « عبد السلام ٠٠ اننى جائعـة ٠٠ ان الجوع ينهش احشائى والظمأ يحرق حلقى ! »

فقال مواسيا ، كمن يحدث طفلة صغيرة : « صبرا يافاطمـة فلن نلبث أن نفد على العمران »

وراحت عجلة الزمان تمر ببطء قاس ٠٠ وطالت سـاعات

الليل فى تلكؤ يبعث السأم ٠٠ وبدأت سرعة الجواد تضعف، فأخذ يتعثر فى مشيتــه وقد أنهكه الاجهـاد العنيف والجـوع والعطش ٠٠

وحانت الساعة التى كان يخشاها الرجل ، حين كبا بهمـا الجواد ، فراح الشاب يستحثه حتى نهض ، ليعود ثانيـه الى كبوه ٠٠ وأخذ الحيوان المسكين يصهل فى ألم ويضرب الهواء بحوافره ، وجاهد ليقوم ، وحاول ان يعدو فى جنون ، كأنمـا كان يبغى الفرار من شبح مخيف ٠ ولمعت عيناه فأضاءتا الظلام برهة ثم تدفق الدم من فمه ٠

وأشفق عليه عبد السلام ، فأخذ يربت رأسـه فى عطف حزين٠ووقف مع فاطمة يرقبانه فى وجوم وقد أخذت قـواه تخور رويدا ، وأنفاسه تهدأ٠٠ **وكان أقسى ما أكربهما انهمـا لم يكونا يملكان وسيلة لانقاذ الحيوان الوفى ٠٠ الحيوان الذى كان أملهما الوحيد فى النجاة!٠٠ وما لبث الجـــواد ان فـارق الحياة وهو ينظر الى سـيديه آسفا ، وكأنما ود أن يقاوم الموت ريثما يبلغ بهما نهاية أمينة !**

وشمل الزوجين صمت رهيب، وكأنما انقلبت الصحراء الواسعة الى قبر رحيب يدعوهما بدورهما! ٠٠ واستولى عليهما شـعور مقبض ، مخيف ، فتشـبثت فاطمة برداء زوجها ، والتصقت به ٠٠ ثم اشتد ذعرها ، فألقت بنفسها على صدره ، وهى تبكى قائلة : « عبد السلام ٠٠ اننى خائفة ! »

* * *

وأحس هو الآخر بالخوف ٠٠ خوف لم يراوده حتى وهو يتعرض لنيران الايطاليين دفاعا عن بلده ٠ ولكنـه راح يستمد ماتبقى فى نفسه من قوة لكى لايزيد من هول الموقف على زوجته، وقال فى صوت خافت : « لاتخافى يافاطمة !٠٠ سنصل قريبا الى العمران ، ولم تبق الا مسافة صغيرة نستطيع قطعهـا على الاقدام »

وازداد نشيج الزوجة ، ورفعت عينيها الى وجهه فى حيرة أليمة وصاحت : « ولكننى ٠٠ لا أستطيع٠٠اننى خائرة القوى. ولن أقوى على حمل جسدى » ٠٠وكأنما خشيت أن يؤلم ضعفها زوجها ، فأخذت تشجع نفسها بدورها قائلة فى رجاء : « أواثق انت من انه لم يبق الا قليل ؟ »

ولكن ، أنى له ان يعـرف ؟٠٠ وكيف يجسر ـ فى الوقت ذاته ـ على ان يصارحها بأنهما ضلا الطريق ؟٠٠ وراح يكذب ليطمئنها الى انه لم تبق سوى مسيرة نصف يوم ، ففكرت قليلا، ثم تمتمت فى خفوت وكأنها تحدث نفسها : « ولكننى جائعة٠٠ وظمآنة ٠٠ اواه ، يا الهى !٠٠ ماذا فعلنا لتقسو علينا الاقدار هكذا ؟ » ٠٠ ودفنت وجهها فى صدر زوجها ، وراحت تنتحب فى خفوت ، بينما رفع الرجل وجهه الى السماء،وتحركت شفتاه تتمتمان بأدعية وصلاة قصيرة

وازداد اقتراب الليل ، وفجأة ،شخص الزوج بعينين جزعتين الى الافق ، حيث انعقدت سحائب الرمال تنذر باقتراب العاصفه٠ وسرت فى جسده قشعريرة باردة ، حين لمحت عينا فاطمة بهلع طاغ ، واسرعت تلتصق به فى رعب ، فضمها اليه بقوة ،كأنما اعتزم ان يحميها من الشر المقبل ٠ ثم حملها بين ذراعيه ، وراح يجاهد ليسير بها على غير هدى ، يبحث ـ كمجنون ـ عن ملجأ يقيهما شر العاصفة العاتية

وتشبثت به فاطمة وهى مختبئة فى احضانه ، ولم تلبث ان صرخت فى وهن : « أمعائى ٠٠ اننى أموت جوعا ٠٠ اننى احترق ظمأ ٠٠ آه اننى أموت ! »

ولم يدر الزوج ماذا يفعل ٠ وفاجأه ذهول قانط : أتموت العزيزة بعد كل هذا ؟٠٠ وتملكه يأس قاتل ، فتخاذلت ساقاه، ووهنت ذراعاه ، وتعثر فى مشيته ٠ ولم يلبث أن سقط بحمله يتخبط وهو يئن ويتوجع فى ألم مريع ٠٠

* * *

و هبت العاصفة قاسية عاتية ، وسمعت الصحراء أصوتا تتردد فى جنباتها تنشد الغوث ، فلا تلبث ان تضيع فى زمجرة الريح تسوقها سياط العاصفه ٠٠ ومرت الساعات ، وبدأت العاصفة تهدأ وهى تحمل فى أذيالها أنينا معولا لم يلبث ان خفت الى الابد !

وأخذ الفجر يرسل أشعته على الصحراء الفسيحة ، فانجلت على ضوئها كومة من الرمال المتراكمة ، برزت من تحتها أطراف ثياب الضحيتين البائستين ٠٠

وعادت الصحراء هادئة ساكنة ، يسودها الصمت الرهيب، وقد أطبقت جوانحها على الحادث كأن لم يكن له وجود على مسرحها !

الرسام « رمبرانت » وزوجته الاولى

لوحة مرحة نادرة بريشة الفنان نفسه ، الذى كانت حياته مليئة بالاحزان !

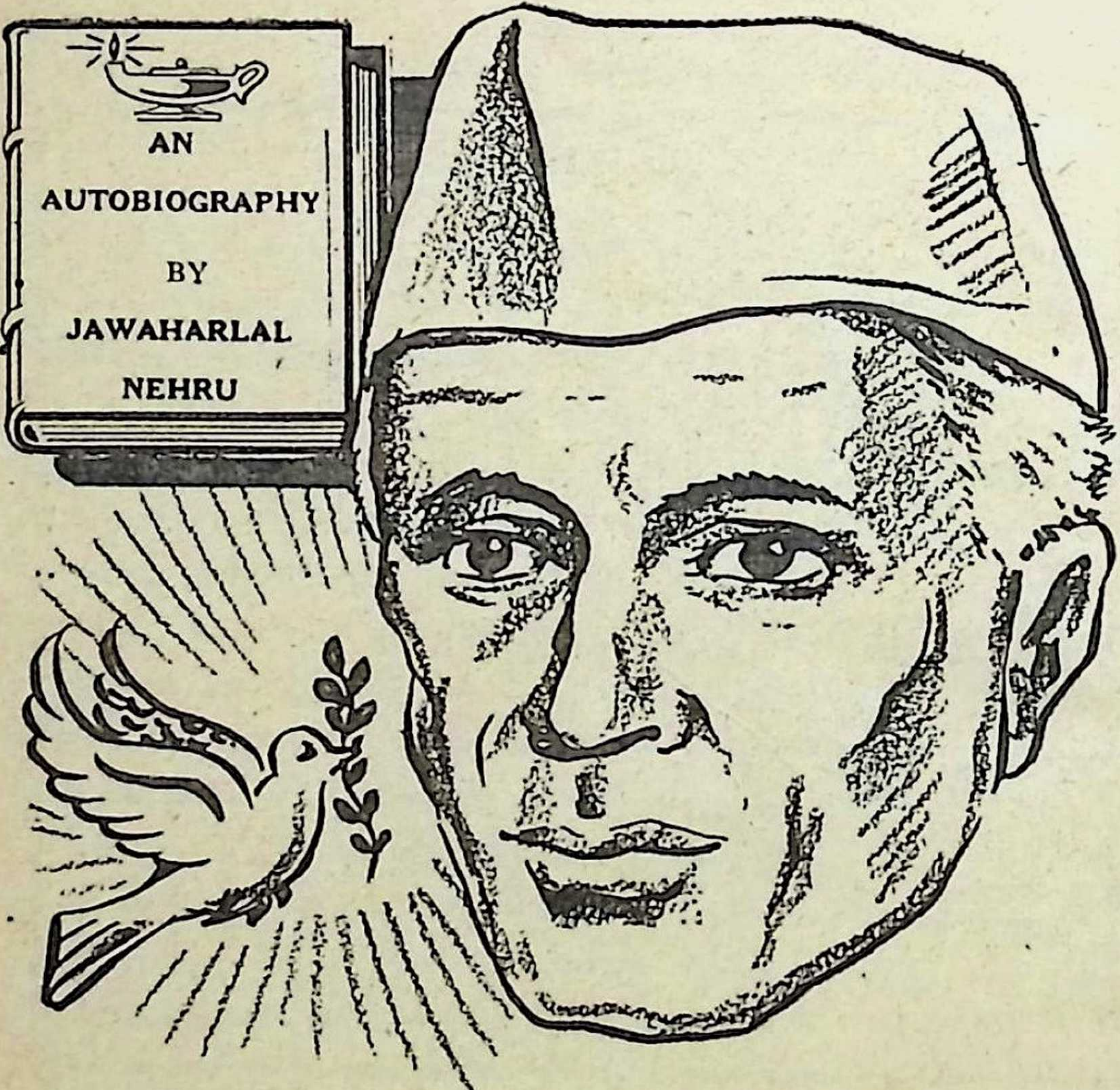

جواهر لال

نهرو

نصير الحرية والسلام!

سيرة الزعيم الهندي الأكبر كما كتبها بنفسه

تحية لهذا البطل !

◆ لم يكتب أحد عن زعيم الهند الاكبر « جواهرلال نهرو » ، كما كتب هو نفسه ، فى الكتاب الذى نقدم لك فيما يلى فصولا منه .. فهو أعظم من ان يلخص فى صفحات قلائل ، اذ انه وضع فى أكثر من ٦٠٠ صفحة بالحروف الصغيرة . ولعل اروع مافى امره ، انه كتب بين جدران السجن ، وصدرت منه عشر طبعات متوالية فى العام الاول لظهوره - سنة ١٩٣٦ - كما صدرت الطبعة العشرون منه فى العام الماضى ، وكانت نسخ كل طبعة تنفد بمجرد صدورها !

و « كتابى » اذ يقدم لك سيرة « نهرو » ، لايعتز بها لمجرد انها صفحات لامعة فى حياة زعيم شرقى فحسب ، وانما هو يعتز بها ايضا كصورة للابطال الشرفاء من انصار الحرية الصادقين ، الذين يقفون اليوم بجانب مصر فى صراعها من اجل حقوقها .. وهى صورة تتوارى بجانبها صور الاستغلاليين والاستعماريين الغادرين من زعماء الغرب ، الذين تآمروا على حقوق مصر وحريات الشرق عامة ، مثل « دليسبس » و «دزرائيلى» ، اللذين قدم لك « كتابى » فى عدديه السابقين سيرتيهما الحافلتين بالمؤامرات والدسائس واستغلال الشعوب !

« نهرو » .. أو الاسرة المقيمة بجوار النهر !

◆ **اذا** كان الطفل - أى طفل - وحيد أبويه ، فانه لايلبث أن يميل الى الفساد ، لاسيما فى الهند . فاذا قدر لهذا الطفل ان يظل وحيد أبويه خلال الاحدى عشرة سنة الاولى من عمره ، فان الامل فى نجاته من الفساد يكون ضئيلا ! .. ولقد نشأت وقضيت الاعوام الاولى من عمرى وحيدا ، بلا رفاق يناهزونني فى السن ، اذ كانت أختاى تصغرانني كثيرا ، كما اننى لم أذهب الى مدرسة ابتدائية ، بل تولى تعليمى مدرسون خصوصيون ومربيات

وكنا من ولاية كشمير أصلا ، ولكن جدنا الاكبر هبط من ذلك الوادى الجبلى - منذ مائتى عام - ينشد الشهرة والثراء فى السهول الخصيبة ٠ فقد كان جدى « راج كاول » عالما متبحرا فى اللغتين السانسكريتية والفارسية ، اجتذب انتباه الامبراطور « فاروخسيار » ، فى نهاية امبراطورية المغول ٠ **ومن المحتمل أن الاسرة نزحت الى (دلهى) عاصمة الامبراطورية، بايعاز من ذلك الامبراطور حوالى سنة ١٦١٧ ٠ وهناك ،اتخذت الاسرة بيتا على ضفاف قناة متفرعة من أحد الانهار ٠٠ ولعل هذا سر التصاق « نهرو » بلقبنا ، اذ اشتقت الكلمة من « نهر » !**

وحظى جدى بمكانة رفيعة فى دلهى ، حتى قامت ثورة ١٨٥٧ ، فهاجرت الاسرة مع اللاجئين الى (آجرا) ، وقد فقدت كل ماكانت تمتلك تقريبا ٠ ولم يكن أبى قد ولد بعد، ولكن أخويه الكبيرين كانا قد بلغا مبلغ الرجال ، وكانا على دراية باللغة الانجليزية ٠ وقد أنقذت هذه الدراية أحدهما ونفرا من أفراد الاسرة من نهاية أليمة أثناء سفرهم من دلهى، اذ كانت عمتى الصغرى شقراء كبعض أبناء كشمير وبناتها ، فظنها نفر من الانجليز - الذين صادفوهم فى الطريق - انجليزية ، واتهموا عمى باختطافها ٠ وفى تلك الفترة ، كان الحكم والتنفيذ يعقبان الاتهام مباشرة ، فأوشك عمى وأقاربه أن يشنقوا على أقرب شجرة ، لولا ان المام عمى بالانجليزية ساعده على تعطيل الشنق حتى مر بهم شخص يعرفهم ، فأنقذهم !

أبوه كان يهرب من المدرسة !

◆ **وعاشت** الاسرة بضع سنوات فى (آجرا) حيث ولد أبى فى ٦ مايو سنة ١٨٦١ ٠ ومن طريف المصادفات ، انه نفس اليوم الذى ولد فيه الشاعر رابندرانات تاغور !٠٠ على

ان مولد أبى صادف فترة حزن كانت الاسرة تمر بها ، اذ كان جدى قد توفى قبل ذلك بثلاثة أشهر ، ووقع عبء الاسرة على عمى اللذين كانا يكبران أبى ٠ وما لبثت مناصب القضاء - تحت الادارة البريطانية - أن بعدت بعمى الاكبر عن الاسرة ، فعاش أبى مع أخيه « ناند لال نهرو » الذى كان يمارس المحاماة ٠٠ وكان كل من الاخوين شديد التعلق بالآخر ، فكانت علاقتهما مزيجا من الاخوة والابوة والبنوة !٠٠ وما لبثت الاسرة ان نزحت الى (الله آباد) ، حيث غدا عمى من كبار محامى المحكمة العليا ٠ وقصر أبى دراسته فى البدايةعلى اللغتين الفارسية والعربية ، فلم يشرع فى تعلم الانجليزية الا فى العقد الثانى من عمره ٠ **بيد ان حياته المدرسية كانت سلسلة من حوادث الهرب من المدرسة ، اذ كان مشغوفاباللعب والمغامرات ٠ ومع ذلك فان أساتذة اللغة الانجليزية كانوا يحبونه وينقذونه من المآزق ، لانه كان ذكيا !٠٠ ولما تقدم لامتحان بكالوريوس الآداب ، خيل اليه - فى أولى المواد - انه لن يوفق ، فعبث بقلمه فى ورقة الامتحان ، ولم يحضر الامتحان فى باقى المواد ٠ ولكن أستاذه استدعاه وأنبه تأنيبا لاذعا ، قائلا انه وفق الى درجة كبيرة فى المادة الاولى ، فكانمن الحمق أن لا يحضر امتحان باقى المواد !**

على ان هذه كانت خاتمة دراسته الجامعية ٠ ثم شاء ان يتخذ مهنة أخيه ، فتقدم لامتحان المحكمة العليا ، واذا به يبز بقية المتقدمين ، ويفوز بميدالية ذهبية ٠ ووفق فى المحاماة توفيقا كبيرا ، ولكن ميله للهو كان يشغل شطرا من وقته ، حتى مات عمى ، فكانت الصدمة قاسية على أبى ٠ وآلت اليه أعباء الاسرة ، فانصرف الى العمل ، وازدهر اسمه ، وازداد دخله ، مما زاد فى انغماسه فى العبودية لعشيقته الغيور : الدراسات القانونية !٠٠ ومن ثم لم يجد وقتا لأى نشاط

اجتماعى أو عائلى ، ولم يشعر بميل الى السياسة . وكان يزداد اعتدادا بنفسه وهو يرقى سلم النجاح معتمدا على عزيمته وذكائه . وكان وطنيا — بالمعنى العام للكلمة — وان كان يعجب بطريقة الانجليز فى الحياة . كذلك كان يشعر بأن مواطنيه قد انحدروا ، وانهم كانوا يستحقون ما آلت اليه حالهم !.. وبازدياد دخلنا المطرد ، اصطبغت حياتنا بالصبغة الغربية شيئا فشيئا !

هكذا كان وسطنا العائلى عندما ولدت — فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩ — وخلال أيام طفولتى

مقصورات القطارات .. للأوربيين وحدهم !

◆ **وكانت** طفولتى خالية من الاحداث .. كل ما أذكره منها هو اننى كنت أنصت الى أبناء عمى الكبار وهم يتحدثون فى أمور لم أكن أفهمها ، ولكنها كانت تصطبغ بانتقاد مسلك الانجليز والاوراسيين — الذين ينحدرون من أبوين أحدهما انجليزى أو أوربى والآخر هندى أو اسيوى — نحو الهنود . وكانت حوادث الاحتكاك بين الحاكمين والمحكومين كثيرة . وكان من المستهجن حقا ان ما من انجليزى قتل هنديا الا برأته المحكمة التى كان محلفوها يتألفون من مواطنين انجليز مثله !.. وكانت المقصورات تحجز للاوربيين فى القطارات ، مهما تكن درجة ازدحام القطار .. **ومن ثم نشأت وأنا مفعم النفس بالحقد على الحكام الاجانب ، ولكنى لم أكن أى بغضاء نحو الانجليز كأفراد ، بل اننى كنت أعجب بهم فى قرارة نفسى !**

وعندما بلغت العاشرة ، انتقلت الاسرة الى دار جديدة كبيرة ، بها حديقة واسعة وحوض للسباحة ، فسرعان ماتعلمت السباحة فوق الماء وتحته .. ونشبت فى تلك الاثناء حرب البوير — في جنوب افريقيا — فبدأت أقرأ الصحف لاتتبع

أنباءها وقد اتجهت بكل عواطفى للبوير . **كما وقع فى تلك الفترة حادث عائلى استغرق كل اهتمامى .. فقد ولدت لى أخت !**

وأثارت زيارات أبى لاوربا - فى تلك الاثناء - عاصفة فى المجتمع الكشميرى البراهمى فى الهند ، وخاصة عندما رفض ان يقوم بطقوس التطهر بعد عودته . وكان البانديت بيشان نارايان - الذى صار فيما بعد رئيسا للكونجرس الهندى - قد تعرض قبله لمثل هذه العاصفة من المتعصبين ، واعتبر منبوذا ، مما أدى الى انقسام فى الطائفة البراهمية الكشميرية . فلما رفض أبى - فى عناد ! - أن يؤدى أية طقوس ، نشأ فريق ثالث فى الطائفة ، ولكن الفرق الثلاث ما لبثت أن اندمجت بعد سنوات ، حين تطورت الافكار ، ونبذت القيود العتيقة !

متصوف .. فى الثالثة عشرة من عمره !

◆ **وعندما** اقتربت سنى من الحادية عشرة ، استقدم لى أبى مدرسا ورائدا يقيم معنا - اسمه فرديناند بروكس - وكان من أب ايرلندى وأم فرنسية أو بلجيكية ، كما كان من أنصار التصوف المتحمسين ، فأذكى فى نفسى حب القراءة - ومن ثم أقبلت على قراءة الكتب الانجليزية الكبرى - وأثار شغفى بالعلوم وغوامضها ، حتى اننا أنشأنا معملا فى الدار للتجارب الكيميائية والطبيعية الاولية .. والاكثر من هذا ، انه أوقد حب التصوف فى نفسى ، حتى اننى انضممت الى « الجمعية الصوفية » وانا فى الثالثة عشرة من عمرى .. وقد اكتسبت من الصوفية نظرتى الهادئة ، الشاردة ، الخالية من أى معنى ! .. بيد اننى لم ألبث أن أهملت كل اتصال بالتصوف بعد ان افترقت عن « بروكس »

وأذكر - في تلك الحقبة أيضا - نشوب الحرب الروسية

اليابانية ، فكانت انتصارات اليابان تثير حماسى ، واشتريت عددا كبيرا من الكتب عن اليابان ٠ وكانت الافكار القومية قد بدأت تشغل بالى ، فكنت أطيل التفكير فى تحرر الهند وتحرر آسيا من ربقة الاوربيين ، وكنت أحلم بالكفاح المجيد والبطولة !

وفى مايو سنة ١٩٠٥ ، أبحرت الى انجلترا مع أبى وأمى واختى الصغيرة ٠٠ وكنت اذ ذاك فى الخامسة عشرة ٠ وحالفنى الحظ ــ الى حد ما ــ اذ وجدت مكانا فى كلية «هارو» ، مع انى كنت أكبر من السن المحددة للالتحاق بها بقليل ٠ أما أسرتى فقد رحلت الى أوربا ، ثم عادت الى الهند ٠ وشعرت بالوحشة والحنين ٠٠ ولكن عهدى بهما لم يطل ، اذ جهدت لاندمج فى حياة المدرسة ، فاذا العمل واللعب يشغلانى ٠ وكنت قد ألحقت بأحد الفصول الدنيا لجهلى باللغة اللاتينية ، ولكننى سرعان مارقيت الى فصول أعلى ٠ وكنت فى كثير من الموضوعات ــ تقريبا ــ متقدما على اولئك الذين كانوا فى مثل سنى ، لاسيما فى المعلومات العامة ٠ وكان ثمة أربعة أو خمسة من الطلبة الهنود فى (هارو) اذ ذاك ٠٠ **وكذلك كانت هناك فئة قليلة من اليهود ، تعيش مع الباقين فى وئام ، غير انه كان ثمة شىء من الشعور بالعداء للعنصر السامى دائما ٠٠ كانوا دائما « اليهود الملعونين » !! ولم ألبث أن بدأت أرى ــ بطريقة غير ارادية تقريبا ــ بأن من اللائق أن أعتنق نفس الشعور !٠٠ والواقع اننى لم أحس يوما بعداء حقيقى للعنصر السامى ، بل لقد صار لى ــ فيما بعد ــ أصدقاء حميمون منهم !**

بين فلسفة « نيتشة » وتحلل « اوسكار وايلد » !

◆ **وكانت** أنباء الهند تثير قلقى فى الفترة التى قضيتها فى (هارو) ، اذ وقعت فى (البنغال) أحداث جسام فى سنتى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، وجرت اعتقالات واضطرابات واتسعت حركة

مقاطعة الإنجليز . على اننى لم ألبث أن التحقت ، فى اكتوبر سنة ١٩٠٧ ، بكلية « ترينيتى » بكمبردج – وأنا فى السابعة عشرة من عمرى – فقضيت بها ثلاث سنوات اتسمت بالهدوء ، وكنت أدرس العلوم الطبيعية : الكيمياء والجيولوجيا وعلم النبات . ولكنى لم أقصر ميولى عليها . فقد كنت ألتقى بزملائى فى العطلات ، فنناقش مؤلفات «نيتشة» ومقدمات «برناردشو» .. واستطعت بفضل اقبالى على القراءة أن أشترك فى هذه المناقشات دون أن أكشف عن جهل كبير . وكان معظمنا خجولا بطبعه ازاء كل مايتصل بالمسائل الجنسية .. أو هكذا كنت أنا على الاقل !.. فلم تتجاوز معلوماتى عنها مجرد النظريات ، حتى بعد أن بارحت الجامعة بسنوات !

واتجهت فى تلك الاثناء الى لون من « القورنائية » المبهمة.. وهى فلسفة تميل الى التنعم والاستخفاف بالاوضاع ، وتراود كل شاب بحكم السن !.. وقد نماها فى نفسى – ونفوس معظم أقرانى اذ ذاك – اقبالنا على مؤلفات « اوسكار وايلد » و « ولتر باتر » . على اننى لم أكن بطبيعتى ميالا الى التنعم والتحلل ، وانما كنت غير متعصب دينيا ، وكنت أكره القيود الدينية المتزمتة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن أنشد اتجاها غير دينى . على ان تعلقى بهذا المسلك كان سطحيا ، فلم يتغلغل فى نفسى . وانما استهوتنى نواحى الجمال فى الحياة ، واجتذبتنى فكرة الحرص على أن أنتهج فى الحياة مسلكا يليق باحترامى لنفسى ، بغير اغراق فى الابتذال ، ودون ان أحرم نفسى من كافة ألوان الحياة . والواقع اننى استمتعت بالحياة وأبيت أن أقتنع بأن هذا الاستمتاع لون من الخطيئة أو الاثم . وفى الوقت ذاته استهوتنى الاخطار وحب المغامرات ، وكنت دائما كأبى .. مقامرا الى حدما ، فقامرت فى البداية بالمال ، ثم قامرت فى سبيل الغايات العليا ، وكنت أجازف فى هذه المقامرة ببعض

أمور الحياة التى تفوق المال قيمة وأهمية !

واذا كنت أذكر « القورنائية » وما اليها من آراء ومذاهب تأثرت بها فى تلك الفترة ، فمن الخطأ ان يتصور أحد اننى كنت أفقه تلك الموضوعات بجلاء ، وانما كانت مجرد خيالات وأوهام غامضة تجول فى رأسى ! ولقد أفعمت حياتى اذ ذاك بالعمل واللعب واللهو ، ولم يكن يعكر صفوى ـ أحيانا ـ سوى الصراع السياسى الذى كان قائما فى الهند . وكانت للهنود فى كمبردج جمعية اسمها « المجلس » ، اعتدنا ان نناقش فيها المسائل السياسية . ولكن مناقشاتنا كانت بعيدة بعض الشىء عن الواقعية !.. على اننى خلال أعوامى الثلاثة التى قضيتها هناك ، لم أكن أحاول الكلام تقريبا فى « المجلس » لخجلى .. وقد رافقتنى هذه العقبة فى جمعية المناظرات بالكلية ، حتى اننى كنت أوثر دفع الغرامة ـ التى كان يقضى بها على من لايشترك فى المناظرات مرة واحدة خلال موسم دراسى كامل ـ على أن أتكلم !

واتجهت بعد ذلك الى دراسة القانون ، فحصلت فى صيف سنة ١٩١٢ على اجازة الترافع أمام المحاكم الانجليزية ، وعدت الى الهند فى الخريف بعد غيبة امتدت أكثر من سبع سنوات

نظام الحكم الانجليزى يقتل المواهب !

• **والتحقت** بالمحكمة العليا ، فطاب لى العمل الى درجة لابأس بها . وكانت الاشهر الاولى لعودتى من أوربا ممتعة . على ان الحياة التى اندمجت فيها ـ مع معظم أبناء جنسى ـ ما لبثت ان شرعت تفقد جدتها وطرافتها رويدا ، حتى شعرت بأننى محوط بتواتر رتيب كئيب لوجود لاغاية له ولا نفع . وأعتقد ان تعليمى المختلط كان مصدر تذمرى هذا من الجو الذى كان يحوطنى ، اذ كانت العادات والآراء التى اكتسبتها اثناء اقامتى فى انجلترا لاتتسق مع ما وجدت فى حياتى الجديدة من عادات وآراء . على

ان الجو المنزلى كان ــ لحسن الحظ ــ ملائما ، مما أعاننى على الاحتمال ٠ ولكنه لم يكن وحده كافيا ٠ وفيما عدا ذلك ، كانت هناك مكتبة المحكمة العليا ، ونادى رجال القانون ، حيث يلتقى المرء بنفر معين من الرجال ، ويتحدث فى موضوعات معينة تتكرر باستمرار ٠ ومن المؤكد ان هذا الجو لم يكن يساعد على النشاط الفكرى ، فما لبث أن استفحل فى نفسى الشعور بتفاهة الحياة وخمولها ٠٠

وكان الانجليز فى الهند يضيقون بصحبة الهنود ، كما كان كل انجليزى هناك يشعر ويتصرف كما لو كان عضوا فى جيش الاحتلال ٠ فكان من المستحيل أن تقوم علاقات طبيعية سهلة بين الطرفين ! ٠٠ وكان الحكم الانجليزى قد رفع فى المناصب ــ بل وفى المجتمع ــ طبقة من الموظفين الانجليز والهنود امتازت بالبلادة والجمود وضيق الذهن ٠٠ فكان الانجليزى الشاب لايكاد يستقر فى الهند ، حتى يستسلم لهذه الحياة الخاملة ، فيقضى نهاره فى العمل بين ملفات لانهاية لها ، ثم يقوم ببعض الرياضة ، ولا يلبث ان يذهب الى ناديه ليختلط بمن هم على شاكلته ويشرب الويسكى ويقرأ المجلات الانجليزيه الاسبوعية المصورة ٠ وكان قلما يقرأ الكتب ، فاذا فعل ، فانه ــ غالبا ــ لايقرأ الجديد منها ، وانما يعود الى ما كان يميل اليه من كتب قديمة ! ثم يلوم الهند على هذا الانحطاط الفكرى التدريجى ، ويلعن الجو ، ويصب سخطه على مثيرى الاضطرابات ، الذين كانوا يزيدون من متاعبه ، **دون أن يفطن الى ان تداعيه الذهنى والثقافى انما يرجع الى نظام الحكم البيروقراطى ، المستبد ، الذى كان يقوم فى الهند ، والذى كان هو جزءا منه !** ٠٠ واذا كانت هذه حال الموظف الانجليزى ــ رغم اجازاته وعطلاته ــ فما بالك بالموظف الهندى الذى كان يعمل معه وتحت امرته ، لاسيما اذا كان يحاول ان يشكل نفسه على النمط الانجليزى ؟!

نمو الحركة الوطنية بزعامة غاندى

• **ولقد** امتدت هذه الظاهرة من طبقة الموظفين الى أبناء الطبقة المتوسطة الهندية ، لاسيما ذوى الثقافة الانجليزية ـ فيما عدا ابناء بعض المدن مثل كلكتا وبومباى ـ فاذا أصحاب المهن الحرة ، من محامين واطباء ومن اليهم ، يستسلمون لهذا الخمول الفكرى ، ويعيشون فى معزل عن الشعب ، بل وعن الطبقة المتوسطة الدنيا . وكانت الشئون السياسية قاصرة على طبقة الموظفين والطبقة المتوسطة العليا . **على ان الحركة الوطنية التى قامت فى (البنغال) منذ سنة ١٩٠٦ زلزلت هذه الحال للمرة الاولى ، وبثت حياة جديدة فى الطبقة المتوسطة الدنيا ، وما تحتها .. حتى فى عامة الشعب . وما لبث هذا التطور أن نما سريعا فيما بعد ، تحت زعامة غاندى .** بيد ان الكفاح الوطنى ـ وان كان مبعثا للحياة والنشاط ـ الا انه يمتص كثيرا من الطاقة والانتباه ، بحيث لايدع مجالا لنمو ألوان اخرى من النشاط والجهود . لذلك شعرت بأننى غير راض عن الحياة فى تلك السنوات الاولى التى أعقبت عودتى من انجلترا ، فان مهنتى لم تكن تستأثر بكل تحمسى وعواطفى ، كما ان الشئون السياسية لم تكن تدع مجالا للنشاط الوطنى العدائى ضد الحكم الاجنبى . ولقد التحقت بحزب المؤتمر ـ الكونجرس ـ وحضرت اجتماعاته التى كانت تعقد بين آن وآخر ، وكنت فى بعض المناسبات القومية الخاصة أندفع بكل نشاطى وتحمسى للعمل ، ولكنها كانت مناسبات موقوتة !

على ان الحرب العالمية الاولى مالبثت ان استأثرت بكل انتباهنا . ومع انها كانت بعيدة عنا فى البداية ، الا ان قانون دفاع الهند أحاط البلاد بقبضة قوية . وما ان بدأ العام الثانى **للحرب ، حتى توالت أنباء المؤامرات والاغتيالات وأساليب الاحتيال** الصحفى لحشد المجندين من (البنجاب) . **وبرغم ما كان هناك**

من تصريحات بالولاء ، الا ان بريطانيا لم تكن تحظى من الهنود بغير نصيب ضئيل من العطف . **فقد كان المعتدلون والمتطرفون – على السواء – يتلقون انباء الانتصارات الالمانية بارتياح ، لا لانهم كانوا يحبون ألمانيا ، ولكن لانهم كانوا يشتهون أن يروا حاكميهم أذلاء !** .. وما لبثت الحياة السياسية ان عادت الى النمو والنشاط تدريجا ، اذ اطلق سراح الزعيم الهندى « لوكامانيا تيلاك » – الذى كان معتقلا – وقامت الجمعيات للمطالبة بالحكم الذاتى . كما ان الاجتماعات السنوية لحزب المؤتمر ازدادت نشاطا ، وبدأت « الرابطة الاسلامية » تسير مع « المؤتمر »

اتحاد المسلمين والهندوكيين يقضى على سياسة الاعتدال

• **واشتد** توتر الجو ، وابتهج كثيرون منا –معشر الشبان– اذ توقعنا أحداثا جساما . واذ نشطت حركة المطالبة بالحكم الذاتى ، اجتذبت اليها الشيوخ المتطرفين الذين اقصوا عن الكونجرس منذ سنة ١٩٠٧ ، وعددا كبيرا من أبناء الطبقة الوسطى – بجميع درجاتها – فبدأوا يشتغلون بالسياسة . ولكنها لم تجتذب عامة الشعب . واشتد الجدال حول قوة الدفاع الهندى التى نظمتها الحكومة فى تلك الايام من ابناء الطبقات المتوسطة ، والتى كانت تلقى معاملة تختلف عما كانت تلقاه قوات الدفاع الاوربية فى الهند ، مما جعلنا نقرر أن لاسبيل للتعاون الا اذا أزيلت الفوارق . على اننا قررنا التعاون مع قوات الدفاع المدنى ، اذ وجدنا ان من الخليق بالشبان ان يتلقوا قسطا من التدريب العسكرى ، فأرسلت طلبا للتطوع ، وأنشأنا لجنة فى (الله آباد) للدعوة للمشروع . حتى اذا اعتقلت السلطات بعض المساهمين فى الحركة الوطنية عمدت أنا الى اقناع اعضاء اللجنة – وبينهم أبى – بأن نوقف كل علاقة لنا بقوة الدفاع ، احتجاجا على تصرف السلطة الحاكمة،ونشرنا

بيانا أحرج الحكومة . وما لبث أبى أن تحول عن سياسته المعتدلة ، اذ كان بطبعه ينفر من الاسراف فى الخنوع . ومع ان الزعماء المتطرفين القدامى لم يجتذبوه الى صفوفهم ، الا ان الاحداث أثرت الى درجة كبيرة فى موقفه . وكان كثيرا مايصرح بأن الاساليب المعتدلة لاتصلح ، ولكن لاسبيل الى عمل ذى أثر، مالم يوفق الهنود الى ايجاد حل للخلافات بين الهندوكيين والمسلمين . فلما أقر الكونجرس – فى سنة ١٩١٦ – المشروع المشترك الذى وضعه مندوبو الكونجرس والرابطة الاسلامية فى اجتماع اللجنة العامة للكونجرس – فى دارنا – ابتهج أبى ومضى فى الابتعاد عن سياسة الاعتدال ، بعد ان فتح الطريق لجهود مشترك يجمع بين الهندوكيين والمسلمين . وعندما اشتدت الاضطرابات فى ولايات الهند المتحدة – فى صيف سنة ١٩١٨ – تخلى أبى عن الاعتدال ، وخرج المعتدلون من الكونجرس !

وكانت جهودى السياسية الاولى – فى باكورة الحرب – متواضعة ، وقد ظللت أتحاشى الخطابة فى الاجتماعات العامة ، عن رهبة ، وعن شعور بأن الخطب العامة يجب ألا تكون بالانجليزية ، وكنت أرتاب فى قدرتى على أن أخطب بالهندوستانية

اللقاء الاول مع غاندى

• **ولم** تكن المسائل السياسية اذ ذاك موضوعات مأمونة للنقاش ، بل كانت اثارتها تخلق للتو جوا مكفهرا . وقد ظل أبى يرقب فى اهتمام نمو اتجاهى نحو التطرف .. على اننى فى الواقع لم أكن متجها الى أساليب العنف ، وانما كنت أرى أن علينا الا نستكين للاحوال التى كانت قائمة ، وان كلا من الشرف الفردى والقومى كان يتطلب مسلكا أكثر شدة وحزما ضد الحكم الاجنبى . وأخذ أبى يتحول عن الاعتدال وكل خطوة فى هذا الصدد تثير صراعا حادا فى ذهنه ، ليستوثق من انه لم

يتخذها نتيجة نوبة من التحمس ، ولكن عن اقتناع !.. وما لبثت أحداث سنة ١٩١٩ فى (البنجاب) ان فصلت تماما بينه وبين حياته الماضية ، فألقى بنفسه فى غمار الحركة التى شرع فيها غاندى . وكان أول لقاء لى بغاندى حوالى وقت اجتماع الكونجرس فى (لكناو) فى عطلة عيد الميلاد سنة ١٩١٦ . وكنا جميعا نعجب به لكفاحه المجيد فى جنوب افريقيا ، غير انه كان يبدو لكثير منا جد بعيد عن السياسة ، وخاصة بعد ان رفض الاشتراك فى الكونجرس ، والمسائل السياسية القومية ، وقصر جهوده على مشكلة الهنود فى جنوب افريقيا . ولكنا لم نلبث أن رأينا انه كان متأهبا ليطبق أساليبه فى الهند أيضا ، وكانت هذه الاساليب تبشر بالنجاح

وكنت اذ ذاك وطنيا محضا - (أى غير متأثر بحزبية) - اذ توارت الآراء الاشتراكية المبهمة التى كانت تراودنى أيام الجامعة . على ان جذوة هذه الآراء ما لبثت ان اشتعلت بما كنت أقرأه . وكانت آراء غير واضحة ، ذات طابع انسانى مثالى ، أكثر مما كانت نتيجة تفكير علمى . ومن الكتاب الذين أحببتهم فى سنى الحرب وما بعدها « برتراند رسل » .وكانت أفكارى ورغباتى تثير صراعا فى نفسى ، وعدم رضى عن مهنتى ، فلم ألبث ان ازددت شعورا بأن من غير الممكن أن أوفق بين العمل العام ومهنة المحاماة ، ولم تكن مسألة مبدأ ، وانما كانت مسألة وقت وطاقة !

وفى تلك الاثناء - فى مطلع ربيع سنة ١٩١٦ - تزوجت .. ولم أكن أحسب ان الاحداث ستشغلنى عن الزوجة التى اتخذتها !

عدم التعاون مع الحكومة البريطانية !

◆ **وعندما** انتهت الحرب العالمية الاولى ، كانت الهند فى حالة هياج مكبوت ، وقد انتشر التصنيع ، وازدادت طبقة الرأسماليين ثروة ونفوذا ، فلم يزدهم ذلك الا جشعا . على ان

الاغلبية الساحقة من الشعب لم تكن مجدودة مثلهم ، بل كانت تتطلع الى التخفف من الاعباء التى كانت تثقلها ، وكانت الطبقة الوسطى – بدرجاتها المختلفة ثراء وثقافة – تتوقع تطورات دستورية كبيرة ، تؤدى الى الحكم الذاتى. **وأخذ الناس يتكلمون فى ثقة واعتداد عن تقرير المصير والاستقلال الداخلى. وانتشرت حالة القلق هذه حتى بين العامة ، لاسيما أهل الريف . فقد ظل أهالى المناطق الريفية فى اقليم (البنجاب) يتذكرون أساليب القسر التى انتهجت لحشد المجندين أثناء الحرب ، كما ان الجنود الذين عادوا من الجبهات البعيدة لم يعودوا مجرد آلات خاضعة ، بل ان آفاقهم اتسعت ، فازداد تذمرهم من الاحوال السائدة . كذلك تفشى الغضب بين المسلمين بسبب المعاملة التى لقيتها تركيا ومسألة الخلافة بعد الحرب .** وهكذا كان الجميع يترقبون تطور الامور فى اهتياج .. أو بالاحرى برجاء وأمل يخالطهما خوف وقلق !.. ثم جاء مشروع قانون «راولات» بمواده القاسية التى أباحت الاعتقالات والمحاكمات دون تقيد بالاجراءات التى نصت عليها القوانين ، فسرت فى الهند بأسرها موجة غضب ، وانبعثت المعارضة من كل الهنود على اختلاف آرائهم . ولكن القانون صدر .. وكان التساهل الوحيد هو ارجاء تنفيذه ثلاث سنوات !.. وكانت هذه السنوات الثلاث أكثر سنى الهند اضطرابا.. فكأنما أصدرت الحكومة البريطانية قانونا لم تستخدمه قط ، ولكنها أثارت به الهياج ، حتى ليظن المرء انه سن خصيصا لاذكاء الاضطرابات !

وكان غاندى قد تعرض لمرض خطير فى أوائل سنة ١٩١٩ ، فناشد نائب الملك – وهو لم يكد يبارح سرير المرض – ان لايوافق على قانون « راولات » ، فلما أهمل هذا النداء – كغيره – تزعم غاندى أول تمرد شمل الهند كلها ، وبدأ حركة عدم التعاون مع الحكومة !.. وما ان قرأت عن مشروعه حتى تنفست

الصعداء فى ارتياح هائل ، اذ رأيت فيه أسلوبا صريحا ، علنيا، فعالا

ينام على الارض ليجرب قسوة السجن !

• **وكنت** أتحرق شوقا وحماسا للاشتراك فى الحركة دون تفكير فى العواقب ـ وأقلها السجن ـ كما ان أبى كان ضد الحركة منذ البداية ، وكلما فكر فى تبعاتها قل ميله اليها . اذ ماجدوى دخول عدد من الافراد السجن ، وأى ضغط فى هذا على الحكومة . ودار الصراع فى نفسينا اياما عديدة وكان أبى شديد التعلق بأولاده ، كما أننى أردت أن أخفف من آلامه ، ولكنى لم أشك لحظة فى ان من واجبى أن أنضم الى الحركة . وقضى كل منا وقتا عصيبا . وكم من ليلة همت فيها على وجهى وحيدا ، معذب النفس ، أحاول أن أتلمس لى طريقا ! **واكتشفت فيما بعد ان أبى جرب فعلا النوم على الارض ليعرف كم سأعانى من النوم على أرض السجن . وما لبث غاندى أن جاء الى (الله آباد) بدعوة من أبى ، فقضيا وقتا طويلا فى حديث لم أحضره ، كانت نتيجته ان نصحنى غاندى بأن لا أساهم فى الحركة بنصيب يغضب أبى !**

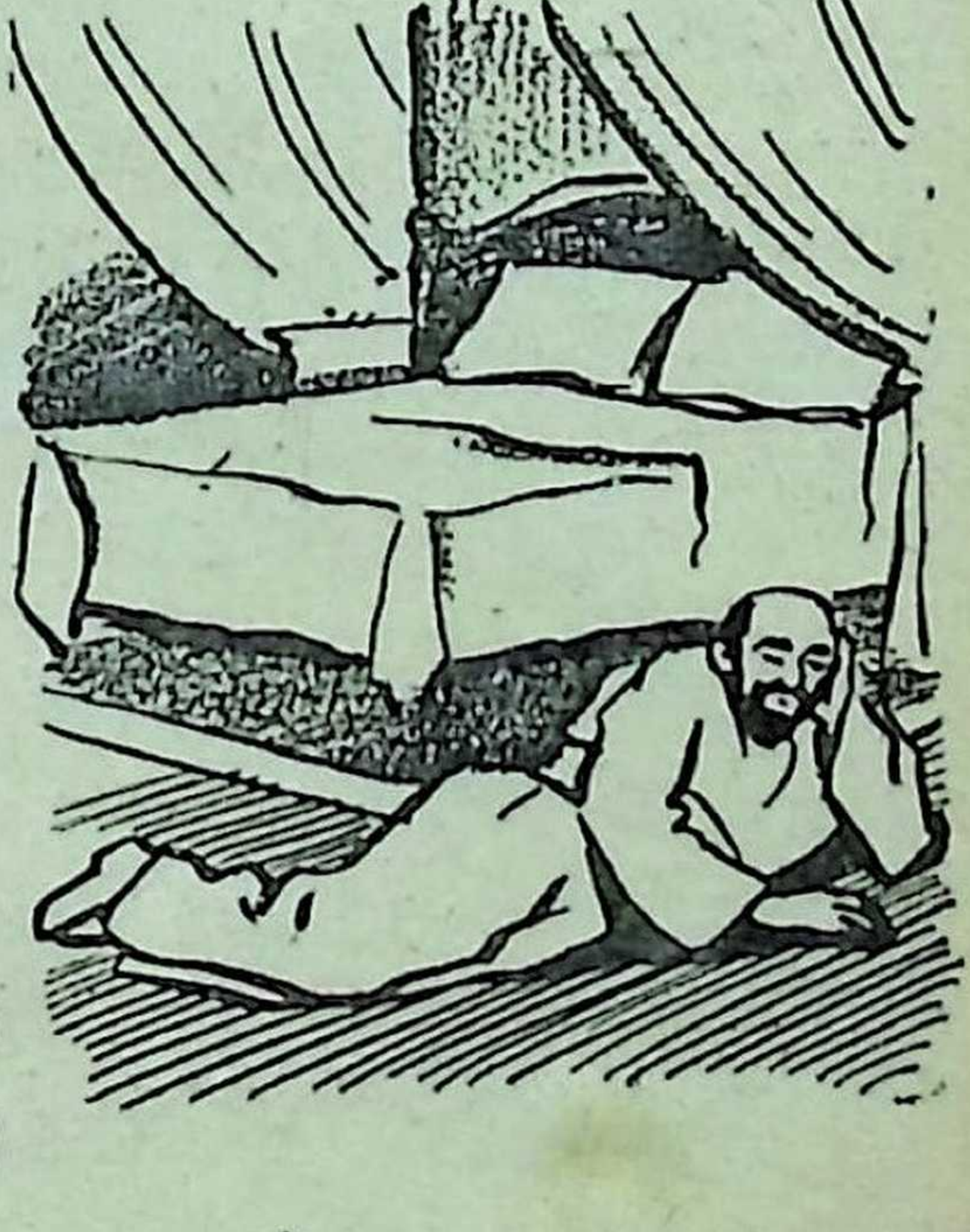

.. واستأت ، ولكن الحوادث تطورت بدرجة دعت الى توقف الحركة ، اذ اصطدم الشعب بالبوليس والجيش فى (دلهى) و (امريتسار) ، وقام العامة بأعمال العنف فى (امريتسار) و (احمد اباد) ، ووقعت مذابح (جاليانوالاباغ) ، وعزلت البنجاب عن باقى انحاء الهند

وانقطعت انباء ماكان يجرى فيها ، فكنا ننتظر ـ بلا حول ولا قوة ـ ماقد يتسرب الينا من أخبار عن الحالة هناك . وما لبثت ان قامت هيئة كبيرة من أعضاء المؤتمر للنجدة والتحقيق ، سارعت الى البنجاب بمجرد ان رفعت الاحكام العسكريه عن بعض أرجائها . وكان القائمون بالتحقيق يعملون تحت اشراف غاندى الذى رأيته كثيرا خلال التحقيق فى حوادث (البنجاب) ، فأخذ الايمان يتملكنى ببعد نظره فى الامور السياسية . وكان لاحداث البنجاب وما أسفرت عنه التحقيقات أثر كبير فى نفس والدى ، تجلت نتائجه بعد عام .

وكان مؤتمر (امريتسار) أول اجتماع للكونجرس حضره غاندى ، ولم يكن ثمة شك فى ان أغلبية الاعضاء ، والجموع الحاشدة التى كانت تقف خارج المؤتمر ، تتطلع الى غاندى كى يتبوأ زعامتها . وكان الزعماء المسلمون ـ مولاى محمد على وأخواه رضا وشوكت ـ قد سرحوا من السجن ، فبادروا الى الاشتراك فى المؤتمر .. وسرعان ما بدأت الحركة الوطنية تتخذ شكلا جديدا . وشرع غاندى يبشر بدعوته الى سياسة عدم العنف وعدم التعاون . وما لبثت أن تكونت فى الهند لجنة للخلافة الاسلامية ، سرعان ماغدت تحت نفوذ غاندى الذى انتدب ليكون أحد أعضاء الوفد الذى ألف لمفاوضة نائب الملك فى الهند بصدد الخلافة

وكان من الجلى ان الحكومة لم تكن تزمع قبول مطالب اللجنة ، ومن ثم فقد كان من المرجح قيام نزاع . لذلك جرت محادثات طويلة مع الزعماء والعلماء المسلمين ، نوقش خلالها موضوعا عدم العنف وعدم التعاون ، وأنبأهم غاندى بأنه يضع نفسه تحت امرتهم على شريطة ان يقبلوا مبدأ عدم العنف

وتطورت الحركتان الوطنية والخلافية جنبا الى جنب خلال سنة ١٩٢٠ ، وحدد يوم أول أغسطس لبداية حركة عدم العنف وعدم التعاون

« البوليس يقصينى عن أمى وزوجتى ! »

• **كانت** الامور السياسية التى اهتممت بها هى تلك الامور التى تهتم بها طبقتى .. الطبقة الوسطى ! .. وكان أنصار الاعتدال نفرا من علية ابناء هذه الطبقة ، الذين أثروا – بوجه عام – فى ظل الحكم البريطانى ، فلم يكونوا راغبين فى أية تطورات حادة قد تهدد مراكزهم ومصالحهم الراهنه . **ولقد كان من المطالب التى حرص عليها الكونجرس ذاته – فى سنواته الاولى – السعى الى تسوية دائمة للارض فى المناطق التى لم تستقر فيها الملكية ، وذلك لصون حقوق أصحاب الاراضى .. ولم يرد أى ذكر لمستأجرى الاراضى !** .. ولقد كنت فى سنة ١٩٢٠ أجهل كل شىء عن ظروف العمل فى المصانع أو الحقول ، وان عرفت انه كان ثمة فقر مدقع وتعاسة أليمة يحيطان بالعاملين فيها . وشعرت بأن أول هدف للهند – اذا شاءت ان تكون مستقلة سياسيا – هو معالجة مشكلة الفقر . وبدا لى ان الخطوة التالية يجب أن تتمثل فى التحرر السياسى وسيطرة الطبقة المتوسطة . وكنت قد بدأت اهتم بمشكلة الفلاحين حين دخل حياتى اهتمام جديد لم يلبث ان أصبح له دور كبير فى حياتى فى السنين التالية ، اذ وجدتنى على اتصال بالفلاحين أنفسهم ! .. فلقد اعتلت صحة أمى وزوجتى « كمالا » فى اوائل مايو سنة ١٩٢٠ ، فصحبتهما الى (مسورى) . وصادف ان كان فى الفندق الذى نزلنا فيه وفد أفغانى جاء ليتفاوض مع وفد بريطانى بعد حرب الافغان القصيرة فى سنة ١٩١٩ .

ومع اننى مكثت شهرا لم أتصل خلاله بعضو ما من الوفد الافغانى ، الا اننى فوجئت يوما بحكمدار البوليس يتصل بى ويذكر لى ان الحكومة المحلية طلبت اليه أن يحصل منى على تعهد بعدم الاتصال بالوفد . ولما لم أجد داعيا لذلك ، وأصررت على الرفض ، صدر أمر باقصائى عن المنطقة ! ومع اننى عدت بعد

ذلك ـ حين ساءت صحة أمي ـ غير عابىء بالاوامر ، الا ان نتيجة الابعاد أتاحت لى قضاء أسبوعين فى (الله آباد) . وفى خلال هذه الفترة ، تدخلت فى حركة الفلاحين . فقد حدث فى اوائل يونيو سنة ١٩٢٠ ـ على ما أذكر ـ أن سار نحو مائتى فلاح على أقدامهم خمسين ميلا ، من منطقة (بارتا بجاره) الداخلية ، الى مدينة (الله آباد) لاجتذاب انتباه كبار السياسيين الى سوء حالهم ، فذهبت الى لقائهم مع بعض الاصدقاء ، واذا بهم يروون قصصا تفطر القلوب ، عن المعاملة غير الانسانية التى كانوا يلقونها من كبار الملاك ومن السلطات. وما لبثت ان ذهبت مع بعض الزملاء لزيارتهم فى قراهم حيث مكثنا ثلاثة أيام ، فأزاحت هذه الزيارة الغشاوة عن بصرى !

الاصطدام المسلح والارهاب فى الريف !

◆ **ووجدنا** الريف كله مشبوب الحماس بانفعال غريب ، فكانت الاجتماعات الهائلة تنتظم فى أقصر وقت ، بمجرد صيحة تتناقلها القرى عبر الحقول : « سيتا رام » ! .. وكان القوم فى أسمال بالية ، ولكن وجوههم كانت تطفح انفعالا ، وعيونهم تومض وكأنهم يتوقعون أحداثا عجيبة تقضى على شقائهم بمعجزة! .. واستمعت الى قصصهم الاليمة : الايجارات الباهظة التى كانت تفرض عليهم ، والاتاوات غير القانونية ، والطرد من الاكواخ ـ المصنوعة من الطين ـ ومن الارض ، والضرب ، والتعرض لجشع مصاصى الدماء من عمال أصحاب الاراضى ، والمرابين ، والبوليس .. الخ !

وتكررت الزيارات التى كنا نغادر فيها السيارة لنسير على أقدامنا نجوس خلال القرى . وانتزع هؤلاء الفلاحون منى خجلى ، وعلمونى كيف أتحدث الى الجموع . ولم أكن ملما بفنون الخطابة ، ولكنى أخذت أتحدث اليهم حديث رجل الى رجل ، مفضيا اليهم بكل مافى رأسى وقلبى . وواصلت زياراتى

للريف طيلة سنة ١٩٢١ ، وأخذ ميدان نشاطى يتسع حتى شمل الولايات – أو المقاطعات – المتحدة . **واستطاعت دعوة عدم التعاون ان تصل الى أقصى القرى ، ومع ذلك فقد ظلت حركتا عدم التعاون والمطالبة بالاصلاح الزراعى مستقلتين كل عن الأخرى . وكان لدعوة الكونجرس ونداءاته أثر فى كبح الفلاحين عن الاندفاع والتهور ، فان الحركات الزراعية عنيفة بطبعها ، وكانت شرارة واحدة كافية لان توقد النار !.. على انه كان مقدرا للعنف ان يأتى فيما بعد ، اذ ما كانت الحكومة لتتساهل ازاء نمو قوة الفلاحين واتحادهم !.** فلقد حدث فى خريف سنة ١٩٢٠ أن قبضت السلطات على نفر من زعمائهم، فلما جاء يوم المحاكمة ، تدفقت جموع الفلاحين على دار المحكمة، فرؤى تأجيل القضية لليوم التالى . ولكن اليوم التالى شهد ازدياد الجموع ، حتى أصبحت تحاصر المحكمة تقريبا . وما لبث المسجونون ان سرحوا بعد محاكمة شكلية داخل السجن ، فرأى الفلاحون فى هذا انتصارا عظيما لهم !

وفى مطلع يناير سنة ١٩٢١ ، تلقيت برقية من منطقة (راى باريلى) تستدعينى الى هناك ، حيث كانت الظواهر توحى باضطرابات بالغة . فلقد سجن بعض زعماء الفلاحين هناك ، وتذكر الفلاحون انتصارهم السابق ، فأقبلوا من كل فج فى سيول دافقة . ولكن الحكومة لم تكن على استعداد فى هذه المرة للتساهل ، فحشدت لهم رجال البوليس والجيش . وعند وصولى الى هناك ، حال حكمدار المنطقة بينى وبين الاتصال بالفلاحين . والتحم الفريقان ، ولم يكن لدى الفلاحين سوى الطوب يقابلون به الرصاص ، ولكن هذا الاشتباك استل من نفوسهم كل خوف

المغزل اليدوى يزعج الحكم البريطانى !

● **ولقد** تكرر أطلاق الرصاص فى المنطقة مرة اخرى ، ثم

بدأ عهد ارهاب اضطهد فيه كل مبرز فى حركة الفلاحين ، اذ اعتزمت الحكومة ان تسحق الحركة ، وكانت حركة الغزل اليدوى - على المغزل البدائى البسيط - قد انتشرت بين الفلاحين بايعاز من الكونجرس ، فسرعان ما أصبح المغزل رمز العصيان وسبب المتاعب لحامله

وأدى الكبت فى منطقة (فيز أباد) - فى سنة ١٩٢١ - الى اتجاه غريب ، اذ أغار الفلاحون على أملاك أحد كبار الملاك ونهبوها .

وكانوا لجهلهم وفقرهم ضحية دهاء خدم مالك آخر . اذ ادخل هؤلاء فى روع الفلاحين ان هذا النهب كان برغبة من غاندى! .. وأسرعت غاضبا الى مكان الحادث ، فدعوت الى اجتماع ضم خمسة أو ستة آلاف فلاح اجتمعوا من القرى المحيطة ، فقسوت فى انتقاد عملهم ، ودعوت المذنبين الى الاعتراف علنا .. وقد أسفت فيما بعد حين علمت كيف انهم كانوا ضحية التغرير ، وكيف ان اعترافهم جر عليهم نقمة السلطات . فقد اعتقل أكثر من ألف منهم ، واستغرقت المحاكمات معظم السنة ، فمات كثيرون منهم فى سجن المنطقة ، وقضى على آخرين بالسجن لآماد طويلة .

ولقد ظلت حركة الفلاحين صامدة عاما بأكمله أمام الضغط المشترك من الحكومة وكبار الملاك ، ولكن المجاعات والاوبئة مالبثت ان حصدت الملايين من انصارها ، فوهنت الحركة وتراخت ، ولكن بعد ان افزعت الحكومة وحملتها على الاسراع

باصدار تشريع ايجار الاراضى
أعصاب الموظفين الانجليز تتداعى !

◆ **وكان** أبى هو الوحيد من زعماء الجيل القديم المبرزين ، الذى ناصر غاندى فى ذلك الوقت ٠ ولم تكن هذه المسألة سهلة عليه ، بل ان الامر استغرق وقتا طويلا فى التفكير قبل الاقدام عليه ٠ فان عدم التعاون كان يعنى انسحابه من ممارسة مهنته القانونية ، وترك حياته الماضية الى لون جديد من الحياة ٠٠ وهى مهمة ليست باليسيرة اذا ما كان المرء يقف على عتبة العام الستين من عمره ٠ ولكن عقله ، وقوة ادراكه ، وشعوره باحترام النفس ، وكرامته ٠٠ كل هذه قادته الى أن يرتمى فى أحضان الحركة الجديدة بكل عواطفه ، لاسيما بعد مأساة (البنجاب) وما أعقبها ٠ ولقد اجتذبته شخصية غاندى ، فكانت زمالتهما من نوع فريد ٠٠ كان أحدهما قديسا ، زاهدا ، يعاف كل شهوة جسدية ٠٠ وكان الآخر يتقبل الحياة ويقبل عليها ويستمتع بملاذها العديدة ، غير عابىء بما يصيبه بعد ذلك ! ٠٠ ومع ذلك فقد كانت ثمة روابط ومصالح مشتركة ، جذبت كلا منهما الى الآخر ، وخلقت بينهما صداقة وثيقة ، حتى عندما تباينت اتجاهاتهما السياسية فيما بعد

وعندما عقد « الكونجرس » دورته الخاصة فى كلكتا ، بدأ عهد غاندى فى تسيير سياسة الحزب ، فاذا بالكونجرس يختلف عن ذى قبل ، اذ اختفت الثياب الاوربية ، وظهرت طبقة جديدة من المندوبين انتخب أفرادها من أقل درجات الطبقة الوسطى شأنا ! وازداد استخدام اللغة الهندوستانية ـ وبعض لغات الاقاليم أحيانا ـ وبدت فى اجتماعات الكونجرس روح جديدة وتحمس جديد ٠٠ وسرعان ما اشتدت حركة عدم التعاون ٠ وكان نجاح الدعوة الى مقاطعة الانتخابات للهيئة التشريعية الجديدة نجاحا رائعا ٠ وبينما ارتفعت روحنا المعنوية ،

أخذت روح الحكومة فى الهبوط . وترددت السلطات طويلا قبل ان تقدم على تصرف ضد كبار الزعماء . بل ان أعصاب كبار الموظفين البريطانيين بدأت فى التداعى . ولم يصدق الرأى العام الانجليزى الدعوة الى عدم العنف ، بل خالها ستارا يخفى وراءه خطة سرية ستفجر العنف تفجيرا ذات يوم !

« عدم العنف » أقوى من الحرب !

◆ **وامتاز** عام ١٩٢١ بتوتر شديد ، كان وقعه على أعصاب الدوائر الرسمية قاسيا . وقد ساهم كثيرون من الزعماء والعلماء المسلمين بأدوار كبيرة فى الصراع السياسى فى ذلك العام ، نظرا للاهمية التى أضفيت على موضوع الخلافة الاسلامية ، فخلع نشاطهم هذا طابعا دينيا على الحركة أغرى المسلمين بالمساهمة فيها . وقد ساعد غاندى على هذا التطور بما كان يبديه من تقدير للعلماء والزعماء المسلمين . والواقع ان غاندى لم يكف عن اظهار أهمية الطابع الدينى والروحى للحركة !

كذلك كان عام ١٩٢١ عاما غير عادى بالنسبة لنا . فقد كان مزيجا غريبا من الوطنية ، والسياسة ، والدين ، والروحانيات ، والتحمس . ووراء كل هذا ، كانت هناك اضطرابات فى الريف ، ونشوء حركة عمالية فى المدن الكبرى . وكانت هناك فوارق بين الوطنية الاسلامية ـ التى كانت تتطلع الى ماوراء الحدود ـ وبين الوطنية الهندوكية ، ولكن الاثنتين كانتا تتسقان لتؤلفا الوطنية الهندية . **وكان من الرائع حقا ان يبدو غاندى وكأنما سحر كل الجماعات والطبقات ، وجمعها فى حشد واحد يجاهد لتحقيق غاية واحدة . فأصبح « رمزا يعبر عن الرغبات المتضاربة للشعب » !** .. وبفضل اصراره على عدم العنف ، كانت كراهية الهنود للبريطانيين فى سنة ١٩٢١ معتدلة ، فلم تنفجر فى عنف . وكان تكتل الشعب وراءنا فى صف منيع يملأنا ثقة . وأصبحت عبارة « عدم العنف » اصطلاحا معنويا

يقابل « الحرب » أو الصراع « العنيف » !

واستغرقت بكل نفسى فى الحركة ، فطلقت كل المجتمعات التى كنت أتردد عليها ، وكل صلاتى وأصدقائى وكتبى .. بل اننى طلقت الصحف ، اذ لم يعد الوقت يتسع لشىء . وأخذت أعيش فى المكاتب واجتماعات اللجان والجموع .. وكنا نجتاز الاميال على أقدامنا لنزور القرى البعيدة ونخطب فى الناس . وبدأت أفهم نفسية الجمهور ، والفرق بين جمهور المدن وجمهور الريف . ولقد اضطررت فيما بعد الى مواجهة جماهير ثائرة ، فكانت التجاريب التى خضتها فى تلك الايام خير عون لى .. وحاولت جاهدا ان أكون صريحا مع الجماهير ، بل كنت أعنف فى انتقادهم أحيانا ، ولكن هذا لم يزدنى الا مكانة لديهم !

اعتقالات بالجملة !

● وفى أواخر سنة ١٩٢١ ، اعتزم ولى عهد بريطانيا زيارة الهند ، فنشط الكونجرس للدعوة الى مقاطعة كل مايتعلق بالزيارة . وأعلنت الحكومة ان هذه الدعوة خروج على القانون، فتقبلنا الانذار بالتحدى .**وفى أوائل ديسمبر ، عمدت الحكومة الى حركة اعتقالات بالجملة . فأدركنا ان الصدام بين الكونجرس والحكومة وشيك الوقوع . وفتش البوليس دار الحزب فى (الله آباد) ، كما فتش دارنا وألقى القبض على أبى وعلى .**
ولم نأمل خيرا من هذا التصرف ، فقد بدت مدينة (الله آباد) لولى العهد ـ حين زارها ـ مقفرة ، خاوية ، وكأنما مات أهلها. وقدر عدد من حكم عليهم بالسجن بسبب حركة عدم التعاون ، فى شهرى ديسمبر سنة ١٩٢١ ويناير سنة ١٩٢٢ ، بحوالى ٣٠ر٠٠٠ شخص !.. ولكن ، اذا كان كل زعماء الحركة المبرزين قد سجنوا ، فان غاندى ظل طليقا ، يوجه فى كل يوم الرسائل والارشادات للشعب ، ويكبح كل نشاط غير مرغوب. وما تركته الحكومة حتى ذاك الوقت الا خشية رد الفعل الذى

يحدثه اعتقاله بين صفوف الجيش والبوليس الهنديين !.. ولكن ، شد ماكانت دهشتنا حين علمنا فجأة - فى السجن - بأن غاندى أوقف المقاومة المدنية نظرا لما جرى فى قرية (شاورى شاورا) حيث هجم بعض القرويين على مركز البوليس واشعلوا فيه النار ، وأحرقوا ستة من الشرطة !.. **واشتد بنا الغضب لوقف المقاومة المدنية وعدم التعاون ، ولكن ماهى الا أسابيع قلائل ، حتى ألقت الحكومة القبض على غاندى نفسه ، وقضت عليه بالسجن لمدة طويلة** . والواقع ان وقف المقاومة المدنية اذ ذاك لم يكن راجعا الى حادث (شاورى شاورا) كما حدسنا فى سجننا ، وانما كان الحادث هو القشة التى تشبثت بها غاندى لانقاذ الموقف . فقد اكتسب لطول اتصاله بالجماهير مايكتسبه كبار الزعماء الشعبيين عادة من قدرة على تعرف مشاعر الجماهير وما تفعله وما تستطيع ان تفعله ، وكان يكيف تصرفاته وفقا لما تهديه اليه هذه الحاسة . **ولقد أدرك غاندى ان حركتنا كانت اذ ذاك فى طريق الانحلال رغم قوتها - اذ أخذ كل تنظيم يختفى - بعد أن أصبح خيرة العاملين فيها فى السجون ، بينما لم تكن الجماهير قد تلقت تدريبا كافيا يمكنها من المضى بنفسها. وتسرب الى لجان الكونجرس والخلافة المحلية كثيرون من دعاة الفوضى ، فلم يكن هناك من سبيل لوقف استفحال نفوذهم الا بالتصرف الذى أقدم عليه غاندى** . ولا شك فى ان الحركة لو كانت قد امتدت ، لازدادت حوادث العنف ، ولقابلتها الحكومة بالقوة ، ولانتشر حكم الارهاب ففت فى روح الشعب المعنوية.. وكثيرا مايؤدى النكوص المؤقت الى تقوية عصب الحركات ، وما دامت المبادىء مصونة ، فان الاستجمام لايلبث أن يرد القوة للحركات !

« ابنتى الطفلة تحتج على البوليس ! »

• **وقضى** على وعلى أبى بالسجن لستة أشهر . وكانت محاكمة

زائفة !.. فقد اتهم والدى بالانضمام الى هيئة خارجة على القانون ، وقدمت السلطات ـ كدليل للادانة ـ وثيقة تحمل توقيعه باللغة الهندوستانية ، فى حين انه لم يكن يكتب توقيعه بالهندوستانية !.. ودعى للشهادة رجل أمى أقسم على صحة التوقيع ، مع انه كان يمسك به مقلوبا !.. أما أنا فقد اتهمت بتوزيع منشورات . ولم تكن هذه تهمة يعاقب عليها القانون اذ ذاك ، ومع ذلك فقد قضى على بالسجن !.. وبعد ثلاثة أشهر، انبئت بأن السلطات تبينت خطأ الحكم على ، فأطلق سراحى !.. وكان أول ما فعلت أن زرت غاندى فى سجنه ، وحضرت محاكمته . ثم عدت الى (الله آباد) ، فحاولت اصلاح هيئة المؤتمر ، وأبديت اهتماما خاصا بمقاطعة الاقمشة الاجنبية ، ومقاطعة المتاجر التى تستوردها أو تتعامل فيها . وسرعان ماقبض على ثانية لهذا السبب ، وأضيفت اتهامات جديدة ، ولكننى لم أدافع عن نفسى فى هذه المرة ، وان ألقيت فى المحكمة بيانا مسهبا .. وقضى على بثلاثة أحكام ، أذكر ان مجموعها كان عاما وتسعة شهور ، ومن ثم عدت الى السجن بعد ستة أسابيع من مبارحتى اياه . واذا بالقيود هناك قد اشتدت عن ذى قبل، وأخذت تشتد باطراد ، اذ استتب للحكومة النصر على حركتنا ، فشاءت ان تذيقنا صنوف المضايقات لما اقدمنا عليه من تحد لها!

وكان رجال البوليس يزورون دارنا كثيرا فى تلك الاثناء ، ليحصلوا الغرامات التى قضى بها على أبى وعلى ، فكانوا ينصرفون فى كل مرة ببعض قطع الاثاث ! وقد استاءت ابنتى « انديرا » ـ وكانت اذ ذاك فى الرابعة من عمرها ـ من هذا النهب ، وكانت تعبر عن احتجاجها وغضبها للبوليس . وأخشى أن هذه الذكريات عن طفولتها المبكرة ستظل تصبغ آراءها فى البوليس بصبغة معينة طيلة العمر !

رئيس للبلدية وسكرتير للحزب !

◆ **وفى** اواخر أيام ينـاير سـنة ١٩٤٣ ، اطلق سراح كـل المسجونين السياسيين فى سجن (لكناو) ، فخرجت لاجـد الكونجرس منقسما على نفسه ازاء الانتخابات العامة : كان من رأى غاندى مقاطعة الانتخاب بأسره ، وكان ثمة فريق يدعو الى خوض المعركة ، على أن يمتنع الفـائزون بعـد ذلك عن شـغل مقاعدهم النيابية !٠٠ وحاولت أن أوفق بين الفريقين ، فلمـا أعيتنى الحيـل انصرفت الى تنظيـم الحـزب ٠ **ولم تنقض على الافراج عنى بضعة أسابيع ، حتى وجدتنى مدفوعا الى رئاسـة المجلس البلدى ٠ ولم يكن انتخابى لهذا المنصب منتظرا ، بل ان أحدا لم يكن يذكر اسمي قبل اعلان النتيجة بخمس وأربعين دقيقة !٠٠ وما لبث تعدد نواحى العمل فى المجلس البلدى ان استأثر باهتمامى ٠ وفى تلك الاثناء ، اضيفت الى مهـامى فى الكونجرس ـ كسكرتير للجنة المركزية للولاية ـ مهمة سكرتير كونجرس الهند عامة ٠ وازاء تعدد هذه الاعباء ، وجدتنى أعمل خمس عشرة ساعة فى اليوم !**

وكان العمل فى تلك الفترة محاولة للفرار من نفسى ، فقـد خرجت من قوقعتى فى السجن لاجد آراء وألوانا جديدة من الصراع كانت تزيد من الفوضى فى الهند ٠ ومع ان ايمانى بزعامة غاندى ظل راسخا ، الا اننى بدأت أفحص بعض نواحى برنامجه بعين ناقدة ٠ بيد انه كان اذ ذاك فى السجن ، ولا سبيل الى تعرف رأيه ٠ وكان فريقا الكونجرس ـ أنصار التغيير وأنصار عدم التغيير ـ فى تنافس مستمر ٠ ومع أن دعاة التغيير كانوا يهدفون الى الاصلاح والدستور ، الا أن الطرق كانت مسدودة فى وجوههم ٠ أما دعاة عدم التغيير ، فكانوا من أنصار غاندى المتحمسين ٠ ومع انهم كانوا على كثير من الجمود ، الا أنهم حرصوا على أن يظلوا على اتصال بجماهير الفلاحين ٠ والى هذا الفريق ظللت أنتمي

رغم المحاولات التى بذلت لاجتذابى الى الفريق الآخر ، ورغم أن أبى كان من المتحمسين له ! .. على ان الفريقين ظلا متمسكين بسياسة عدم التعاون !

يرفض المناصب الكبيرة احتفاظا بنقاء اسمه !

◆ **ومنذ** سنة ١٩٢٣ ، أصبحت أجد تسرية كبيرة وسعادة فى الحياة العائلية ، رغم اننى لم أكن أوليها سوى قسط ضئيل من وقتى . ولقد كنت مجدودا فى علاقاتى العائليـــة ، فكنت أتلقى منها العزاء فى أوقات الضيق والمحن . وتبينت ـ وأنا خجل من نفسى ـ مدى ماكنت مدينا به لزوجتى،لمسلكها الرائع منذ سنة ١٩٢٠ . فمع ما كانت عليه من شمم وحساسية ، الا انها لم تتغاض عن اهمالى شأنها فحسب ، بل كانت تغدق على أسباب الراحة والتسرية كلما احتجت اليها . وكانت حياتنا قد تعرضت لبعض التغيير ، فقل عـدد الخدم ، وبيـع بعض أمتعتنا للتخفف من الكماليات ، ولتوفير المال لنفقاتنا المتزايدة . ومع ذلك فاننى لم أحس بنقص فى أسـباب راحتى . وعندما اشتد ضغط النفقات ، رأى والدى ان يعود لممارسة المحاماة ، وعلى الرغم من قصر الوقت الذى كان ينزل لهـا عنـه ، الا ان دخله منها كان طيبا .

ولقد أمضنى وأشقانى ان أشعر أننى وزوجتى نثقل على أبى اذ نعيش عالة عليـه .. وقضيت ثلاث سنوات أتدبر هذه المشكلة دون أن أجد لها حلا . ولم يكن من العسير الحصول على عمل مربح ، ولكن هذا كان معناه الحد من الجهود التى كنت أبذلها فى خدمة الصالح العام . ولم أكن أحب أن أتخلى ـ من أجل المال ـ عن نشاطى فى الكونجرس والمجلس البلدى ، لذلك رفضت المناصب ذات الدخل السخى التى كانت تعرضها عـلى بعض الشركات الصناعية الكبرى ، استغلالا لاسمى !

وزاملتنى هذه المتاعب المالية من بداية سنة ١٩٢٣ الى نهاية

سنة ١٩٢٥ . وكان الموقف السياسى فى تغير طيلة الوقت ، الامر الذى دفعنى الى قبول كثير من اعباء ومسئوليات الادارة المركزية للكونجرس العام . على أن التطورات فى الكونجرس ، ومناورات أنصار فريقيه ، انتهت بى الى الاستقالة من سكرتيرية اللجنة التنفيذية العامة . وما زلت أشعر بمدى ما داخلنى - اذ ذاك - من سعادة وارتياح لهذه الاستقالة !

وفى بداية مارس ١٩٢٦ ، أبحرت مع زوجتى وابنتنا الى أوربا . وكنت أعود إليها بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة حفلت بالحرب ، والثورة ، والتغير الهائل .. كانت الدنيا القديمة التى عرفتها قد ولت مع الحرب ، وظهرت - فى ارتقابى - دنيا جديدة ، عشت فيها عاما وتسعة شهور .. وكانت مهلة كافية ليستجم عقلى وبدنى . ولحقت بنا أختى الصغرى « كريشنا » فى أوائل الصيف ، فبقيت معنا حتى نهاية الرحلة . وقضينا فترة طويلة فى مصح بجنيف - بسويسرا - حتى اذا تحسنت صحة زوجتى ، قمنا بجولة فى فرنسا وانجلترا وألمانيا . **وبعدت فى تلك الاثناء عن العالم الهندى ، بل والعالم الاوربى الذى كنت أعيش فيه ، وبدت الحياة أمامى خالية من الاحداث !**

وفى تلك الاثناء ، دبت الفرقة الطائفية بين المسلمين والهندوكيين فى الهند ، فحيثما كان لاحد الفريقين الاغلبية ، كان الفريق الآخر يخشى الغبن الطائفى . واشتدت الفرقة أثناء الانتخابات العامة . وكان العبء الاكبر فى معركة الانتخابات - فى حزب المؤتمر - قد وقع على كاهل والدى . وكان يحب الصراع ، أو على الاقل لايحجم عنه ، فألقى بكل مافى وسعه فى الحملة . وكان من الطبيعى ان تخلف الانتخابات آثارا من السخائم والحزازات

وانتهى عام ١٩٢٦ بمأساة نشرت الظلام فى شفقه ، وأثارت

الجزع فى الهند كلها . فقد اغتيل الزعيم الهندوكى « سوامى شرادهاناند » الذى كشف صدره من قبل لاسلحة المستعمرين، والذى سار قبل ذلك بثمانى سنوات الى مسجد دلهى ، فاعتلى منبره ودعا الى وحدة المسلمين والهندوكيين من أجل حرية الهند !

يحب الشيوعيين .. ويعارضهم فى الرأى !

◆ **وصادف** ان كنت فى برلين فى أواخر سنة ١٩٢٦ ، عندما علمت ان الشعوب المظلومة اعتزمت ان تعقد مؤتمرا فى (بروكسل) ، فراقت لى الفكرة ، وكتبت الى حزب «الكونجرس» القومى الهندى أقترح أن يتولى دورا رسميا فى المؤتمر ، فقوبل اقتراحى بالموافقة ، واخترت ممثلا للكونجرس .

وبالفعل ، عقد المؤتمر فى فبراير سنة ١٩٢٧ ، وكانت (بروكسل) فى ذلك الوقت مركزا للاجئين السياسيين والعناصر المتطرفة ، لاسيما العنصر الشيوعى . وكان الجو مشحونا بآراء عن وجوب القيام بعمل مشترك بين الشعوب المضطهدة ضد الاستعمار . ومن الطبيعى أن الدول الاستعمارية - انجلترا وفرنسا وايطاليا ... الخ - كانت ضد أية محاولة من هذا القبيل . أما ألمانيا فانها لم تعد بعد الحرب الاولى من الدول المستعمرة ، فكانت ترقب فى حياد - مشوب بالعطف - نمو الاضطرابات فى مستعمرات الدول الكبرى الاخرى ، ومن ثم كانت برلين مركزا للعناصر الراقية ، النظيفة فى كفاحها ،
وكان من أشهر تلك العناصر وأنشطها، الزعماء الصينيون التابعون لحزب «الكومنتانج» الذى كان يجتاح الصين اذ ذاك، والذى انطوت أمامه العناصر الاقطاعية ، بل والاستعمارية . ولكن «الكومنتانج» لم يكن - فى زهو انتصاره - ليغفل عن المصاعب التى تعوق طريقه ، فكان يعمل على تدعيم مركزه بالدعاية الدولية . ولعل الجناح اليسارى فى الحزب - وكان يتعاون مع الشيوعيين -

هو الذى أبرز أهمية هذه الدعاية . ومن ثم اهتم مندوبو « الكومنتانج » فى أوربا بمؤتمر الشعوب المضطهدة ، بل لعلهم ـ مع بعض الشيوعيين والقريبين من الشيوعية ـ كانوا مبعث الفكرة

كذلك كان فى بروكسل مندوبون عن الهيئات الوطنيه فى جاوه ، والهند الصينية ، وفلسطين ، وسوريا ، ومصر ، وشمال افريقيا ، وبعض المستعمرات الافريقية . كما حضر المؤتمر مندوبون عن هيئات العمال اليسارية ، وكثيرون من المبرزين فى الحركات العُمالية الاوربية . وقام الشيوعيون بدور رئيسى فى أعمال المؤتمر التحضيرية . وكان مستر لانسبورى ـ عضو حزب العمال البريطانى ـ هناك ، وقد انتخب رئيسا للمؤتمر ، ووافق على أن يكون رئيسا للهيئة الدائمة التى أسفر عنها المؤتمر ، وهى « رابطة مناهضة الاستعمار » . ولكنه ما لبث ان استقال ، حين لاحت بارقة أمل فى ان يتولى حزب العمال الحكم فى بريطانيا . وقد ساءنى هذا الانقلاب من شخص كنت أعجب بخطبه قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة !.. على أن الرابطة كانت تضم شخصيات مبرزة أخرى منها « اينشتاين » ومدام « صن يات سن » . على ان « اينشتاين » ما لبث ان استقال لمعارضته لسياسة الرابطة الموالية للعرب فى الصراع اليهودى ـ العربى فى فلسطين !

وساعدنى مؤتمر بروكسل ـ واجتماعات الرابطة من بعده ـ على تفهم بعض مشكلات المستعمرات والدول غير المستقلة ، والصراع الداخلى فى الحركة العمالية الغربية . **ووجدتنى أشعر شعورا طيبا نحو الشيوعية ، لانها كانت ـ برغم أخطائها ـ لاتقوم على دجل أو على استعمار . ولم أكن قد عرفت دقائق المذهب الشيوعى ، وانما كانت فكرتى عنه عامة ، محدودة ، استهوتنى هى والتغيرات الهائلة التى كانت تحدث فى روسيا**

اذ ذاك . وكان من الغريب - رغم شعورى ذاك نحو الشيوعية - اننى كنت أنحاز فى المناقشات الى صف الفريق الانجليزى - الامريكى ، فقد كان هناك تشابه بيننا فى الرأى ووجهات النظر !

وكانت وزارات الخارجية والمستعمرات فى الدول الاستعمارية ترقب مؤتمر بروكسل باهتمام ، حتى ان فرنسا دست أحد رجال مخابراتها السرية فى مؤتمر أحد الشعوب الزنجية ، بعد ان صبغ وجهه ويديه باللون الاسود ! .. ولقد عاد بعض أعضاء « رابطة مناهضة الاستعمار » الى أوطانهم بعد ذلك ، ولم يعد بوسعهم حضور اجتماعاتها . وأخذت الرابطة تميل فى السنوات التالية نحو الشيوعية ، وان لم تفقد فى أى وقت من الاوقات - بقدر ما أعلم - طابعها الذاتى . على اننى لم أستطع ان أظل على اتصال بها الا عن طريق المراسلة ، حتى كانت سنة ١٩٣١ ، فقمت بدور فى التوفيق بين « الكونجرس » وحكومة الهند ، فغضبت الرابطة منى ، وفصلتنى فصلا ، دون ان تدع لى فرصة ايضاح موقفى !

وعندما أشرف عام ١٩٢٧ ، رجعت مع زوجتى وأختى وابنتى الى الهند ، وقد اكتسبت حالة بدنية وذهنية طيبة ، فاندفعت بكل طاقتى نحو العمل . ولم تلبث الاحداث أن اجتذبتنى الى بؤرة النشاط السياسى لحزب « الكونجرس » ، فتقدمت للجنته التنفيذية باقتراحات خاصة بالاستقلال ، فسرعان ما أقرتها اللجنة التنفيذية ، ثم الجمعية العامة بالاجماع . وكان التأييد العام لهذه المقترحات يدعو للحيرة ، حتى لقد خشيت ان لا تكون المقترحات قد فهمت على حقيقتها ، أو انها حرفت لتعنى شيئا آخر . وقد تحقق ماخشيت ، اذ لم يكد المؤتمر ينفض ، حتى قام الخلاف على معنى مشروع الاستقلال . وتجلى ذلك عندما بحث « الكونجرس » أمر دعوة جميع الاحزاب الى

مؤتمر لوضع دستور للهند ، اذ أسفر المؤتمر عن ان أنصار الاعتدال لم يكونوا يذهبون فى تفكيرهم فى الاستقلال الى أبعد من ان تتخذ الهند وضعا يشبه وضع ممتلكات التاج (الدومينيون) !

وعدت الى تولى سكرتيرية الحزب ، اذ خشيت ان ينساق الكونجرس الى التساهل ازاء الوضع المنشود للبلاد

الاستقلال .. مع مطلع عام ١٩٣٠ !

◆ **وكانت** سنة ١٩٢٨ حافلة بالجهود السياسية .. فقد اشتدت الحركة النقابية فى الهند ، وازدادت الاضرابات ،ونما الشعور لدى الطبقات العمالية . كذلك نشطت الحركةالمطالبة بالاصلاح فى الريف . واتسعت أيضا حركة الشباب ،وكثرت منظماتهم وجمعياتهم واجتماعاتهم . وامتاز ذلك العام بلجنة « سيمون » التى أوفدتها بريطانيا لتعرف الاوضاع ودراسة المطالب القومية للهند ، والتى قوبلت بمقاطعة تامة ، حتى لقد حفظ الفلاحون عبارة « عد الى بلادك ياسيمون » بالانجليزية لكى يرددوها أينما ذهبت اللجنة . **ومن العجيب ان هذه العبارة أصبحت مصدر ذعر لاعضاء اللجنة ، حتى لقد خيل اليهم - عندما أووا الى مضاجعهم فى (نيودلهى) - انهاكانت تنبعث من جوف الظلام !.. وما خطر ببالهم ان ماسمعوه لم يكن سوى عواء الذئاب !**

وأسفر مؤتمر جميع الاحزاب لدراسة الدستور ، عن تأليف لجنة برئاسة أبى ، عرفت باسم لجنة « نهرو » ، كما عرف تقريرها باسم « تقرير نهرو » . وكنت أرقب تطورات مشروعى الاستقلالى - من مركزى كسكرتير للكونجرس - فى ضيق ، اذ تبدى لى عبث تسويد الاوراق بنصوص دستورية فى حين ان المشكلة الرئيسية كانت تتمثل فى التغلب على القوة . كما ساءنى ان اللجنة كانت تضيق من نطاق غايتنا حتى انتهت بها

الى وضع ممتلكات التاج . وكان الحل الرئيسى فى رأيى هو القضاء على الخلاف الطائفى بين الهندوكيين والمسلمين والسيخ. وانتهى الامر بى وبأنصار الاستقلال ـ وكانوا كثرة ـ الى أن قدمنا لمؤتمر جميع الاحزاب بيانا نتنصل فيه من كل شىء يهبط بغايتنا دون الاستقلال ، ولكنا حرصنا على ان نوضح اننا لن نضع عقبات فى طريق المؤتمر

وما لبث ان اجتمع مؤتمر لاهور بعد حوادث صاخبة استغرقت سنة ١٩٢٩ بأسرها . **وبمصادفة عجيبة ، لم تكد الساعة تدق معلنة انتصاف ليل ٣١ ديسمبر من ذلك العام ، حتى أعلن قرار استقلال الهند ، والعام القديم يتوارى ليفسح المجال للعام الجديد !**

هكذا مر قرار الاستقلال وما ينبغى اتخاذه من أعمال لتحقيقه ، باجماع شبه تام . فسرعان ما حشدت الجهود للصراع ، وعهد الى اللجنة العامة للكونجرس بوضع الخطط اللازمة ، ولكن كل انسان كان يدرك ان القرار الحقيقى كان فى يد غاندى !.. وتنفيذا لقرارات المؤتمر ، دعا أبى أعضاء الكونجرس فى الجمعية التشريعية ومجالس الولايات الى الاستقالة من هذه الهيئات ، فلم يتوان منهم سوى نفر ضئيل. ومع هذا فقد كنا حتى تلك اللحظة لاندرى كيف نتصرف .. كنا قد أحرقنا مراكبنا ، فلا سبيل الى التراجع . ولكى نبدأ حملتنا ، ونختبر ـ فى الوقت ذاته ـ استعداد البلاد ، حددنا يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٣٠ ليكون « يوم الاستقلال » الذى يقسم فيه الهنود ـ فى طول البلاد وعرضها ـ يمين الاستقلال

القسم الرهيب .. وموكب الملح !

◆ **وما** ان حان اليوم الموعود ، حتى كشف لنا فى لمح البصر عن شدة تحمس البلاد . كان ثمة شىء يبهر الانفاس ، فى تجمع الحشود الضخمة فى كل مكان ، وترديدها اليمين فى

سلام ، ووقار : « **نؤمن بأنه من الحق الذى لانزاع فيه للشعب الهندى - كما هو لأى شعب آخر - ان يحظى بالحرية وان يستمتع بثمار كده ، وان ينال ضرورات الحياة ، لتتاح له الفرص كاملة فى النمو .. ونؤمن بأنه اذا قامت أية حكومة بحرمان الشعب من هذه الحقوق ، وباضطهاده ، فللشعب حق تغييرها أو الغائها . والحكومة البريطانية فى الهند لم تجرد الشعب الهندى من حريته فحسب ، وانما أقامت نفسها على استغلال عامة الشعب ، وألحقت بالهند الخراب الاقتصادى ، والسياسى ، والثقافى ، والروحى . لذلك نؤمن بأن من واجب الهند أن تفصم علاقتها ببريطانيا وان تنال الاستقلال التام ...** »

وأدرك غاندى - اذ جس نبض الشعب - ان الوقت قد أزف للعمل . واذا الاحداث تتتابع فى سرعة كمأساة تتجه الى ذروتها . وأخذت حركة العصيان المدنى تقترب ، فاتجهت أفكارنا على الرغم منا الى الحركة السابقة وكيف أوقفت فجأة عقب حوادث (شاورى شاورا) . وانتهينا الى أن أسلوب عدم العنف لا يصلح لكل الاحوال والظروف ، ولكن غاندى كان وطيد الايمان بأنه صالح لكل حال وظرف ، ومن ثم كان لابد من ان يتنوع تطبيقه كى يكون صالحا لكل الظروف المتباينة . أما وقفه ، فدليل على فشله !.. على ان غاندى لم يصارحنا بأفكاره ، وانما اكتفى بأن أشعرنا بأن ثمة تعديلات طفيفة أدخلت على آرائه ، وبأن العصيان المدنى يجب ان لا يقف اذا ماسلك طريقه الى التنفيذ !

وبدأ موكب الملح ، فاشتدت حماسة البلاد ، والموكب يواصل سيره يوما بعد يوم الى البحر . وأعطيت للجان الكونجرس الاقليمية والمحلية تعليمات تركز السلطة فى أيدى الرؤساء ، وتنظم الامر بحيث اذا اعتقل أحد من أعضائها حل محله سواه فى الحال . وحان شهر ابريل ، فاقترب غاندى

وموكبه من البحر ، وانتظرنا نحن الاذن ببداية العصيان المدنى ، وذلك بالخروج على القوانين التى كانت تجعل انتاج الملح احتكارا للحكومة . وكان ٦ ابريل هو أول أيام الاسبوع القومى الذى اعتدنا أن نحيى فيه ذكرى أحداث سنة ١٩١٩ ، فما ان حان ، حتى أقبلت البلاد كلها على انتاج الملح !

وألقى القبض على فى ١٤ ابريل ، وحوكمت فى السجن فى نفس اليوم ، وقضى على بالحبس لستة أشهر لانتهاكى قانون الملح . ولقد وقع كثير من الحوادث العجيبة فى تلك الايام ، ولكن لامراء فى أن أعجبها تمثل فى الدور الذى قامت به النساء فى الكفاح الوطنى . **فقد خرجن زرافات من عزلتهن فى دورهن ، ومع انهن لم يكن قد ألفن النشاط العام ، الا أنهن ألقين بأنفسهن فى المعركة بكل عواطفهن ، وأخذن على عواتقهن تنفيذ قرارات مقاطعة الاقمشة الاجنبية والخمور . ومنهن من غدون الرؤوس المسيرة للجان الكونجرس فى الاقاليم !**

وقبض على غاندى فى ٥ مايو ، فأعقبت ذلك اغارات كبيرة على مخازن الملح على الشاطىء الغربى ، ووقعت أحداث أليمة تجلت فيها وحشية البوليس

ديمقراطية للغرب .. وديمقراطية للشرق !

◆ **ولم** ينقض أكثر من خمسة أشهر وثلاثة عشر يوما بعد اطلاق سراحى ، حتى عدت ثانية الى السجن ، بعد احتفال البلاد بيوم الاستقلال فى سنة ١٩٣٤ . ونقلت الى سجن (آليبور) ، وفى ١٦ فبراير ، صدر الحكم بسجنى عامين !

.. وصادف اعتقالى ومحاكمتى فترة اضطرابات واصطدامات فى أوربا . كانت ثمة قلاقل فى فرنسا نتيجة شغب الفاشيين وتأليف حكومة « قومية » . وكان المستشار « دولفوس » يأمر جنوده فى النمسا باطلاق الرصاص على العمال والقضاء على الديموقراطية الاشتراكية . كانت كل الدلائل تنم عن ان

الفاشية كانت تجتاح أوربا وأمريكا . وكنت ، عندما تولى هتلر الحكم فى ألمانيا وأخفق فى حل المشكلات الاقتصادية ، قد توهمت أن حكمه لن يدوم . وكذلك رحت أعزى نفسى بأن انتشار الفاشية كان الصحوة السابقة لموتها . ولكننى مالبثت أن ارتبت فى أن أفكارى انما كانت متأثرة بتمنياتى .. وكانت صحافة انجلترا تطالب حكومتها بأن تقف فى وجه الفاشية والديكتاتورية ، وان تدافع عن الحرية ، فكان من الطبيعى أن أتساءل : **لماذا اذن لا تقول تلك الصحافة شيئاعن الحرية المهيضة فى الهند ؟.. اننا لم نكن نعانى اذ ذاك آلام الجسد فحسب ، بل عرفنا آلاما أقطع وأقسى .. آلام النفس والروح !.. كيف اهتم عشاق الحرية العديدون فى انجلترا لاحتضار الديموقراطية فى النمسا وأغمضوا عيونهم عن مصيرنا نحن ؟.. كيف يعمون عن أن يروا فى بلادنا ماكانوا يستنكرونه فى سخط وقوعه فى كل مكان آخر ؟!**

ان طول عهد البريطانيين بالنجاح والرخاء جعلهم ينظرون الى كل من عداهم نظرة استصغار ، فالعالم خارج حدود جزيرتهم عالم تسكنه أقوام أقل منهم شأنا . **ولعل الطبقة العليا فى بريطانيا تقسم العالم كما يلى : (١) بريطانيا .. تليها ثغرة واسعة ، ثم (٢) ممتلكات التاج البريطانى (السكان البيض فقط) وأمريكا (الانجلوسكسون من أهلها فقط) ، ثم (٣) أوربا الغربية ، و (٤) بقية أوربا ، و (٥) أمريكا الجنوبية (السكان الذين من أصل لاتينى فقط) ، ثم ثغرة واسعة يليها (٦) الملونون - من سمر وصفر وسود - فى آسيا وافريقيا !**

فما أبعدنا - نحن أبناء الطبقة الاخيرة - عن الاعالى التى يعيش فيها حكامنا !.. وهل من عجب - بعد ذلك - اذا أظلمت أبصارهم حين ينظرون نحونا ، واذا تضايقوا حين نتحدث عن الديمقراطية والحرية ؟.. ان هذه الكلمات لم

تصغ لنستعملها نحن !٠٠ لقد كانت الديمقراطية بالنسبة للهند ـ فى نظرهم ـ كمعطف من الفراء ، لا يتلاءم مع جوها ! ٠٠ حتى حزب العمال البريطانى ، رافع لواء الاشتراكية ، كان مصيرنا فى عهد حكومته الثانية أسوأ منه فى أى وقت آخر !٠٠ واذا كانت الديمقراطية لا تلائم الهند ، فهى كذلك تصغ لنستعملها نحن !٠٠ لقد كانت الديموقراطية بالنسبه لا تلائم مصر !٠٠ فلقد فرغت لتوى من قراءة رسالة فى جريدة « ستيتسمان » من القاهرة ـ فى ١٩ ديسمبر سنه ١٩٣٤ ـ عن تصريح رئيس وزراء مصر ، نسيم باشا ، بأنه يبذل جهده لجمع كلمة الاحزاب حتى تتعاون فى الانتخابات ٠٠ وقد أثار هذا التصريح قلق الدوائر العليا ، التى كانت ترجو استخدام « الضغط الادارى » فى الانتخابات ضد الوفد ، ولكن « رئيس الوزراء أوتى عقلا قانونيا أكثر مما ينبغى » ٠٠ و « لم يبق سوى ان تتدخل هوايتهول » !٠٠ أما ماسوف تفعله «هوايتهول» فى مصر ، فأمر لا ندريه ٠ ولكن هذه الفقرات المقتبسة من مقال لانجليزى « محب للحرية ! » ، فى افتتاحية «ستيتسمان» تلقى ضوءا على الموقف :

« ان مبعث الشر يكمن فى ان طريقة الحياة والاتجاه الفكرى لدى الناخب المصرى العادى لا يتسقان مع طريقة الحياة والاتجاه الفكرى اللذين تنبع الديمقراطية منهما » !

حقا !٠٠ يبدو ان الديمقراطية لأية دولة شرقية ، لا تعنى ـ فى نظر الغرب ـ سوى : ان تنفذ تلك الدولة أوامر السلطة الاستعمارية الحاكمة ، فلا تمس شيئا من مصالح هذه السلطة !

* * *

شهداء .. فى قبرص!

قصة الاستعمار الغاشم فى كل مكان ..
والأبطال الذين يفدون أوطانهم بأرواحهم!

للكاتب الصحفى ابراهيم موسى

البركان الذى أقام عليه الاستعمار قاعدته !

◆ من أغرب المتناقضات التى تدل على تخبط الدول الغربية ، أن انجلترا وفرنسا بادرتا – عقب صدمة تاميم قناة السويس – الى حشد قواتهما فوق بركان يغلى ويفور ويستجمع قواه لانفجار مروع يهز أركان الاستعمار !.. وكانما أودت الصفعة المصرية برشدهما ، ففاتهما ان « قبرص » مركز من مراكز الجهاد الكبير الذى يقوم اليوم فى كل مكان ضد الطغيان الغربى .. انها زميلة فى الجهاد ، يقدم ابناؤها الابطال فى كل يوم مثالا رائعا من أمثلة البطولة ، والسخط الذى يحتدم فى نفوس الاحرار ضد أنانية الغرب الغاشمة ، التى توحى له باستعباد الشعوب ارضاء لمطامعه وجشعه !

ويسر « كتابى » ان يقدم لك فيما يلى فصلا من كتاب يعده الزميل الصحفى « ابراهيم موسى » – رئيس القسم الخارجى بجريدة الجمهورية – عن قبرص وكفاحها . وهو هنا يعرض فى اسلوب قصصى بديع ، صورة من مغامرات الشباب القبرصى المجاهد ، وحقائق طريفة عن تلاعب تركيا وبريطانيا بمصير هذه الجزيرة المكافحة ، والافتئات على حقها فى تقرير مصيرها والعودة الى احضان امها .. اليونان !

◆ **كان** الكهف مظلما والانفاس محبوسة هلعا .. وقرقعة الدبابات والسيارات المدرعة تسمع بوضوح فى دياجير الليل .. وكل من فى الكهف منبطحا على وجهه يحمل مدفعا سريع الطلقات ، وقد صوبه نحو فتحة الكهف .. والجنود الانجليز – فى الخارج – يتصايحون ويتضاحكون ، وهم سائرون فى الطريق الجبلى الضيق ، بحثا عمن يسمونهم « الارهابيين » !

وفجأة ، انقطع ضجيج العجلات الثقيلة ، وتنفس «ماركو» الصعداء .. لقد كان من أصل ايطالى ، ولكنه آثر ان يرافق

أصدقاءه المجاهدين اليونانيين فى جهادهم من أجل استقلال قبرص وانضمامها آلى أمها الرؤوم .. اليونان !

وكان مع « ماركو » فى الكهف خمسة من شباب قبرص ، بينهم شاب من أب تركى وأم يونانية ، كان موضع ريبة زملائه زمنا الى أن غلب الدم اليونانى فى عروقه الدم التركى ، فقرر الجهاد حتى تعود قبرص الى اليونان .. وكان اسم الفتى « جواد » ، ولكن الأتراك ينطقون « الواو » « فاء » مضغوطة فى أكثر الاسماء ، فكان رفاقه ينادونه « جفاد » !

* * *

• **أطل** « جفاد » برأسه من فتحة الكهف ، وجعل ينظرهنا وهناك ، فلم يجد أثرا للقافلة المسلحة ، فأمسك بقيثارته وجعل يردد أغنية تركية ، بلكنة يونانية .. ولكن رفيقا له مالبث ان صاح به : « لماذا لاتنشدنا أغنية يونانية ياجفاد ؟ » .. فبادر « جفاد » الى الاخذ بنصحه ، وانهمك لحظات فى ضبط أوتار قيثارته ، ثم قال فى ترنيمة هادئة ، وصوت خفيض :

« أى فردوسنا المضطرب الاحشاء .. يا قبرص
« ما أجمل حقلك المزدهر بالسنابل والرياحين والزهور
« ما أجمل جارتى تحلب البقرة فى بشائر الصباح
« ما أشجى البلابل تغرد فوق أغصان الزيتون
« أى فردوسنا المضطرب الاحشاء .. يا قبرص !

... ...

« ينام الناس الليل وأجاهد فى الظلام
« وأقضى النهار موجسا خيفة من حبال الجلاد
« ولكن الدمع يجف ويغدو القلب صلدا كالحجر
« من أجل فردوسنا المضطرب الاحشاء .. يا قبرص !

... ...

« لقيتها فى ظل كوخنا الجميل فوق الآكام

« وكان الغسق قد طعن الســماء وصبغها بلون الدم
« وغرد فى الروض طــير ثم أشرق القمــر
« ما أجمل وأغلى فردوسنا المحبــوب .. يا قبرص !

... ...

« وقبلتهــا قبلة من نار فأجفلت وأنذرت بالصــياح
« وأغرورقت عيناها بالدمع فضممتها لصدر مضطرب
« فقالت : أتغازل يافتى وقومك فى حداد وجهــاد ؟!
« فاذهب .. وارفع العلم من أجــل وطنك قبرص ! »

... ...

وارتجف صوت جفاد قليلا فى الجزء الاخير من الاغنية ، ثم أمسك عن العزف والغناء وأطرق مليا . فصــاح به ماركو : « لا تهتم ياجفاد ، فانك ستلقاها فى الصباح ، على اننا لانريد مآتم وأحزانا هنا .. انما نريد أن ننعش نفوسنا بشىء من المرح . فحدثنا عن آخر شجار بين أبيك وأمك ، وكيف قلبا البيت الى مايشبه جلسات جمعية الامم المتحدة ! » .. وهنــا قهقه جفاد عاليــا ، وقال له : « ياخبيث .. كان هــذا سرا بيننا ! » .. فارتفعت الاصوات من كل جانب : « نريد ان نسمع ، فقد بقى على موعد الخروج لمهمتنا ساعات قليلة .. ألا قص علينا شيئا نضحك له قبل ان نفترق ، فقد لايعود لنا لقاء فى هذا الكوخ ! »

★ ★ ★

◆ **وبدأ** جفاد قصته قائلا : « انكم تعرفون ان أبى تركى متعصب لاتراك قبرص ، وعدو لفكرة ضم هــذه الجزيرة الى اليونان . ولكن والدتى اليونانية أشد منا حماسة لضمها الى الوطن الاصلى . وحدث ان آخذا يتجادلان بعد قراءة الصحف فى ذات يوم ــ كعادتهما أحيانا ــ الى أن جاءت اللحظــة التى نسميها أنا واخوتى « الملحمة الكبرى » !..فاذا بوالدتى تصيح

غاضبة : « **ما لتركيا ولنا ‥ نحن أكثرية فى هذا البلد ، ونريد الانضمام الى اليونان ، فى حين أن الاتراك لايزيدون على ١٥ فى المائة من سكان قبرص !** » ‥ فقاطعها والدى بحدة : « بل ٤٠ فى المائة ! »

وتجاهلته أمى كعادتها ، ثم قالت تخاطبنى واخوتى : « لقد تنازلت تركيا عن قبرص لبريطانيا فى سنة ١٨٧٨ ٠ وأيدت تركيا ـ فى مؤتمر لوزان الذى عقد فى عام ١٩٢٢ ـ هذا التنازل » ‥ فوقف والدى وصاح محتدا : « بل أنت تقلبين الحقائق ‥ أنت وأهلك اليونانيون ! ‥ إن قبرص فى الركن الشمالى من البحر الابيض المتوسط ، تحيط بها من جانبين أرض تركية ، وهى تركية منذ فتحها السلطان سليمان القانونى فى القرن الخامس عشر ٠ وآذا استولت أية دولة على قبرص ، فستصبح هذه الجزيرة مسدسا مصوبا الى قلب الاناضول ٠ فاذا كانت بريطانيا لاتريدها ، فأحرى بها ان تردها الينا ! »

وقالت أمى ملاطفة : « لماذا تحتد يا « بابا » ؟‥ **ألا تعرف أن الآثار التى اكتشفت فى منطقة القاعدة البريطانية أثبتت ان القبارصة كانوا يعرفون اللغة الاغريقية قبل المسيح بأكثر من ألف سنة ؟‥ ألم يشترك الملك القبرصى سنيراس مع ملوك الاغريق فى حرب (طروادة) ؟‥ ألا تعلم من تاريخ بلادنا ان ديننا وآلهتنا وشرائعنا القديمة كانت اغريقية ؟‥ ألم تقرأ عن الاسطورة التى تقول ان « افروديت » ـ ربة الجمال عند الاغريق ـ خرجت ذات يوم من الماء قرب ميناء (بافوس) القبرصى ؟‥ ومن الذى نصر أسطول أجدادى الاغريق على أسطول الفرس الآسيويين من أمثالك فى معركة (سلاميس) و (بلاتيه) ؟ أليسوا الملاحين القبارصة ؟!‥ ألم يؤلف الاسكندر الاكبر أقوى فرقة من قواد وجنود قبرص ؟** »

وهنا فار الدم التركى فى عروق أبى ، فلم يطق صبرا ، ورفع كوب الماء التى كانت أمامه ، وضرب بها الارض بقوة فتناثرت قطعا ٠٠ وصاحت أمى : « هكذا أنتم أيها الاتراك ٠٠ قوم متلفون ! »

وأمسكت بتلابيب أبى ، فأمسك بذراعها يريد أن يلويها ، ولكنه لم يستطع ، اذ أنها امرأة قوية ٠ وأسرعنا جميعا نفصل بينهما ، فترك أبى أمى وتحول يكيل لنا الضربات ، حتى اضطرنا الى أن نفر من الكوخ ونحن نضحك بصوت عال من هذا العبث ٠٠ والظاهر ان العجوزين خجلا من ضحكنا ، فتصالحا !٠٠ وعندما دخلنا الكوخ ثانية ، وجدنا أبى يقبل أمى قبلة حارة ، ويتوسل اليها أن تعد له « النارجيلة » والوسائد فى الحديقة ، فخرجنا نضحك مرة أخرى ، ولكنا لم نجرؤ على تناول الغداء فى البيت فى ذلك النهار

* * *

◆ **وضحك** الشبان الخمسة ٠ ولكن ماركو قال بلهجة الرثاء ان هذا جحيم وليس بيتا ٠ ثم سأل جفاد ، على حين غرة : « ولكن ٠٠ هل تعضد أمك ؟ » ٠ فأجاب الشاب : « ألم نتفق فيما بيننا على أن لا نخوض فى حديث السياسة فى البيت أو خارجه ، حتى لا نلفت الينا الانظار ؟٠٠ آنسيت القسم الذى أقسمناه ؟ »

وقال « فيلبوس » كبير الجماعة ـ وكان شابا قوى العضلات ، يميل الى الصمت : « أرجو ان نلتزم الهدوء وننام قليلا ، فنحن قد أشرفنا على منتصف الليل ، وسوف ننام على الحصى والرمل هنا ، أى ان فراشنا ليس وثيرا مريحا ، يعوضنا عن قصر الفترة التى سنستسلم فيها للنعاس ، اذ لابد لنا من ان نستيقظ مع الفجر ٠ فليبدأ ماركو نوبة الحراسة ثم أخلفه أنا ! »

* * *

• **وكان** الكهف فى الجبل الشرقى الذى ينحدر عند حدود سهل (لارانكا) ، احدى الموانىء الصغيرة فى قبرص الشرقية . وقد اشتهرت البلدة بصيد السمك أكثر مما إشتهرت بالملاحة

وكان الشبان الخمسة يتوقعون « عملية » حربية خطيرة قبيل الفجر ، فقد جاءهم رسول أنبأهم بأن قاربا شراعيا من قوارب صيد السردين سيصل عند الفجر وقد خبئت فى قاعه صناديق مليئة بالذخيرة والمدافع الرشاشة ، يقوده مجاهدون من بلد عربى صديق له مجد قديم لايقل عراقة عن مجد الاغريق !

وللمجاهدين القبارصة طريقة خاصة فى النوم ، اذ يحيك الواحد منهم طرفى البطانية السميكة المصنوعة من الغزل المحلى ، ليجعل منها كيسا مفتوحا من ناحية واحدة ، فاذا حانت ساعة النوم ، اندس فى الكيس وأغلقه على نفسه من الداخل بأربطة خاصة ، فيصبح فى أمن من البرد القارس والرطوبة التى تخترق العظام فى الكهوف .. وهم ينامون متقاربين ، ليدفىء بعضهم بعضا ، ولكن كلا منهم يحرص على أن يأخذ معه ـ فى الكيس ـ خنجره . أما المدافع السريعة الطلقات ، فان المجاهدين يحتفظون بها خلف مراقدهم ، أى أنهم ينامون بينها وبين باب الكهف . حتى اذا أيقظهم الساهر على الحراسة من اخوانهم خرجوا من الاكياس بسرعة عجيبة ، وبادروا الى المدافع السريعة وراءهم ، ليقابلوا بها أى عدوان !

ومن نظمهم أن يملأوا أرض مخابئهم بالرمل ، فاذا هاجمتهم قوة ـ على حين غرة ـ أسرعوا الى أكياس نومهم فملأوها بالرمل . ثم وضعوها أمامهم كالمتاريس تقيهم حراب المغيرين أو رصاصهم أو شظايا قنابلهم اليدوية . كذلك يحرص المجاهدون على أن يدفنوا تحت الرمال ـ فى كل كهف ـ كميات

من علب الاغذية المحفوظة ، وأوانى الماء ، ليستعينوا بها اذا حوصروا يوما ، وبذلك يستطيعون أن يصمدوا ريثما تواتيهم النجدة من زملائهم ٠٠ ولا يطول بهم انتظار النجدات ، فى مثل هذه الامور عادة ٠ فقد درج سكان الكهوف المتجاورة على أن يخرجوا – اذا ما جن الليل – ليتزاوروا ، ويتفقد كل فريق بقية رفاقه فى الكهوف الاخرى ٠ **وما أن يكتشف أحد ان سكان أحد الكهوف قد وقعوا فى كمين ، أو تعرضوا لحصار، حتى يبادر الى تنبيه المجاهدين فى الكهوف الاخرى ، فيخفوا الى نجدتهم وفك الحصار عنهم !**

★ ★ ★

◆ **وكان** « فيلبوس » هو الوحيد بين سكان الكهف – الذى دارت فيه الاحاديث السابقة – الذى نأى النوم عنه سريعا ، وتركه مسهدا ٠٠ اذ انه لم يكد يستغرق فى النعاس ، حتى هب مذعورا ٠ فقد تمثل له فى المنام انه معلق بين الارض والسماء ، وان أمه تقف تحته تبكى مر البكاء ٠٠ **ولاح له على صفحة السماء طيف السيد المسيح ، وقد بسط له ذراعيه هاتفا : « مرحبا بك يابنى فى السماء ، فقد بذلت الروح من أجل الوطن ! »** ٠٠ وخشى « فيلبوس » ان يقض نوم زملائه لفرط تقلبه وتململه وهو مسهد ، فأسرع الى « ماركو » الذى كان ساهرا للحراسة عند مدخل الكهف ، فدعاه الى أن ينام ويدع له الحراسة ٠٠ وقال ماركو محتجا : « ولكنك لم تكد تنام ! » ٠٠ فقال فيكبوس : « بل نمت الكفاية ، وأريد ان أتدبر خطة التهريب ، فأيقظ أخى جورجى عند دخولك الكهف ! »

وكان أخوه أكبر منه سنا ولكنه أنحف بدنا وأضعف قلبا، ولهذا آثرت الجماعة ان تجعل فيلبوس زعيما لها ، لاسيما وأنه كان أكثرهم مالا ونشاطا وتضحية !

واستيقظ جورجى وهو يفرك عينيه ، وقال لاخيه متضاحكا ، بعد اذ خف اليه لدى فوهة الكهف : « أليس لفرقة الشياطين هذه حق فى النوم ؟ » ٠٠ ولكن فيلبوس لم يجبه - على غير عادته - فربت كتفه فى عطف وسأله : « ما بك يافيلبوس ؟ »

- ليس بى شىء ، ولكنى رأيت حلما غريبا ، أحسب انه نذير بأنى أشرف على الموت شهيدا ، فان صح هذا فهى أمنية كل منا ، وخير للمرء أن يموت فى سبيل قضية نبيلة ، من أن يموت لاسرافه فى شرب النبيذ ، أو لافراطه فى مغازلة الفتيات وسهر الليالى فى طلبهن ، أو لمرض يطول حتى تتعفن رائحة الجسد فينفر من المريض أقرب الناس اليه ! »

ثم قص عليه ما رآه فى حلمه ، فجزع جورجى . وأحس ان العرق يتصبب من قفاه وينساب باردا على عموده الفقرى فيزيده اضطرابا ! ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وخفف من جزعه ، وجعل يسفه تأويل أخيه للحلم ، زاعما ان الحلم كان يرمز الى أن السيد المسيح يحبه لانه نبذ الدنيا ، فكأنه مات عنها حين وقف شبابه على خدمة بلاده !٠٠ ولكن « فيلبوس » لكزه قائلا : « لا أريد ان تخفف عنى شيئا ، فلست جبانا أخشى الموت . وقد تكون الرؤيا من هواجس العقل الباطن ، ولكنى أوثر - على أية حال - أن تعى ما أنا مفض به اليك : لقد أخفيت فى ركن من هذا الكهف صندوقا حديديا صغيرا به أموال ادخرتها لشراء مايتطلبه الجهاد . كما ان فى الصندوق حليا اشتريتها لاهديها لخطيبتى « ماريا » يوم زواجنا . فاذا قدر لى ان أموت ، فخذ الصندوق واقتسم المال مع الرفاق ليفعل كل منكم به مايريد ، أما اذا اتفقتم على اختيار خلف لى ، فلا داعى لتقسيم المال ، بل سلمه لهذا المختار كى ينفقه فى مواصلة الجهاد . واعط الحلى لأمى وقل انها هدية منى اليها ، فلن يكون بعد الموت أمل فى زواج ! »

وأطرق فيلبوس قليلا ·· وأطرق جورجى كذلك والدمع ينحدر من عينيه ، وقد حمد للظلام ان ستر له حزنه وعبراته·
وكان فيلبوس قد أفاق من لحظة الوهن التى أصابته ،فأمر أخاه بأن يذهب الى مكانه ويستأنف النوم ، بعد ان بين له المكان الذى أخفى فيه الصندوق

★ ★ ★

◆ **كانت** النجوم مبعثرة فى السماء كأنها لؤلؤ منثور ، والظلام دامسا ، والسكون شاملا كسكون القبور !
وذكر فيلبوس ـ وهو جاثم عند فوهة المغارة ـ « ماريا » وبسمتها المشرقة ، وذلك الشعاع الذى كان يفيض من ناظريها بسحر يهفو بالعقل ويؤجج فى النفس لهيب العواطف !·· كانت كالصبح المشرق وورد الرياض ، فكان اذا نظر اليها ملكت عليه فؤاده ، وتوارت الدنيا عن بصره لتبقى صورة « ماريا » وحدها !·· **وتذكر الشاب لقاءه بخطيبته فى صباح ذلك اليوم ، وكيف أتته بملاءة بيضاء ناصعة من الحرير ، أبدعت فى وشيها بالخيط الملون ، ثم قالت له وخداها يتوردان خجلا : « انه غطاء فراشنا ! »**
وتساءل فيلبوس : أحقا كانت تلك آخر ليلة له فى هذه الحياة ؟·· أم أن الرؤيا تفسر على وجه آخر ، كما قال جورجى ؟·· أم هى أضغاث أحلام وسوست له بها المخاوف التى كانت تراوده ازاء المغامرة المرتقبة ؟
ودخل الكهف فأشعل عودا من الكبريت ، ونظر على ضوئه الى ساعته فوجدها تشير الى الرابعة · ومن ثم أيقظ رفاقه قائلا انه لم يبق على انبثاق ضوء النهار وقت يذكر ·فنهضوا مسرعين ، وقد تعودوا ذلك منذ دربوا على حرب العصابات والفداء · وبادر كل منهم الى ارتداء « عفريتة » العمال الخاصة ، لانها أنسب الثياب لمن كانت أعمالهم تستدعى

الضرب فى الجبال الوعرة ، فضلا عن انها خير ستار يخفون وراءه حقيقتهم ، اذا فوجئوا فى الميناء

وتركوا مدافعهم الرشاشه ، واقتصر كل منهم على مسدس وكمية من الرصاص وبضع قنابل يدوية • وما لبثوا أن سمعوا صوت محرك صغير ، فقالوا : « هذا هو مانولى قد جاء بسيارته » • وغادروا الكهف فى حذر وتسللوا هابطين الى حيث كانت السيارة فى انتظارهم ، وقد أخفى السائق وجهه فى طاقية من الصوف كانت تغطى الاذنين والرأس ولا تكشف الا عن العينين • وصعد الشبان الى السيارة فى صمت ، والليل يضفى على الجبل وطريقه الضيق ظلاما لايكاد يبين معه شىء •• وما لبث فيلبوس أن لاحظ ان السائق أوقف محرك السيارة ، فعجب لذلك ، وهمس فى أذنه : « لم أوقفت المحرك ؟ » ، فقال السائق : « لان من الخير أن تنحدر السيارة على السفح بحكم ميله ، حتى لا يحدث المحرك ضجيجا يثير الشبهات ! »

وفزع فيلبوس اذ جاء الجواب بصوت رقيق لايشبه صوت مانولى فى شىء ، فأمسك بكتفى السائق وأدار وجهه نحوه ، واذا به يشم عبيرا كان بوسعه ان يميزه بين ألف عبير •• كان عبير « ماريا » ، فهتف وقد غاص قلبه بين جنبيه : « ماذا أتى بك ؟ •• وأين مانولى ؟ »

قالت : « لقد اعتقلوه ارتيابا فى أمره ، فترك مع أمه رسالة كى أسرع اليك فأنبهك للخطر •• واذ عرفت منه انه كان يعتزم أن يوافيكم بالسيارة ، رأيت أن أؤدى المهمة بدلا منه وأنا فى جزع خشية ان يكون قد مسك سوء ، ولكنى ضللت الطريق ، فظللت أتخبط فترة ، حتى اهتديت اليه بعد ان تذكرت معالمه التى رأيتها عندما حملت اليكم الطعام مع مانولى ذات ليلة •• وما أسعدنى اذ وجدتكم أحياء ، أحرارا ، وقد عرفت ملامحك وأنت تطل من الكهف لتنظر الى السيارة ! »

وصعق فيلبوس وهو يتصور ماقد تتعرض له حبيبته من أخطار ، فراح يناشدها ان تبرح السيارة · وإنضم اليه رفاقه يحثونها على العودة ·· ولكنها أصرت على مرافقتهم فى مهمتهم، لايثنيها أى خطر ، قائلة ان لا حياة لها بغير خطيبها ·· وأقسمت انها لن تترك عجلة القيادة ولو قتلوها !·· فقال لها فيلبوس : « ولكنك لاتعرفين الطريق ، فدعى « جفاد » يرشدك لانه أعرف بها منا » ·· وقفز جفاد الى مكان قريب منها ، وجعل يرشدها الى وجهتهم

★ ★ ★

◆ **وانتهى** السفح ، ووصلت السيارة الى السهل ، فأحس ركابها بنسيم عليل رطب ، أوحى اليهم بأن البحر قريب · وما لبثت السيارة أن استقرت فى بقعة تكاثفت فيها الكروم، فأمر فيلبوس خطيبته بأن تظل فى السيارة لترقب الطريق ، بينما تسلل الشبان صوب البحر فى هدوء ، حتى لاح لهم شبح صياد يشير بشىء أبيض فى يده

وكانت الظلمة قد أخذت تنقشع عن الساحل ·· وبدأ نور الفجر الباهت يكشف معالم الاشياء التى كانت دفينة فى بحار الظلام · وكان الجو باردا والضباب كثيفا عند الساحل ،فقال فيلبوس : « ان الحظ يواتينا ، فالضباب أعظم صديق لنا ! »

وطلب فيلبوس الى « جفاد » ان يتقدم فيسأل الصياد عن كلمة السر · فسار « جفاد » حتى بلغ حافة الماء ، وقال للصياد: « هل معك سردين ؟ »

— نعم ·· معى كمية كبيرة منه تكفى لعدة أسابيع

وعاد جفاد يسأله : « وهل هو سمين ؟ » · فأجاب الصياد: « انه هدية من أصدقاء » · وعند ذلك سأله الشاب : « وما كلمة السر ؟ » ، فقال الرجل : « لقد انبلج الفجر فارفعوا علم الجهاد ! »

فرجع جفاد الى زملائه قائلا انه رسول أمين فلنسرع بأداء مهمتنا • واذ ذاك تولى فيلبوس قيادة السيارة ودفع بماريا الى الخلف • وكان كل عضو يحمل مسدسه فى يده ، متأهبا لاستخدامه اذا ظهر للجنود أثر • ثم أدار فيلبوس السيارة ، وتراجع بظهرها صوب القارب ، ليسهل نقل مابه اليها • وشمر الرفاق « بنطلوناتهم » ، وخلعوا أحذيتهم ، وخاضوا فى الماء الى مافوق الركبة • واذ ذاك أزاح الصياد وزملاء له على السفينة بعض سلال السردين ، ثم رفعوا ألواحا فى قاع السفينة الشراعية ، وراحوا يخرجون من جوفها صناديق عديدة ، فى سرعة مدهشة • وتعاون الصياد ورفاقه على نقل الصناديق الى جوف السيارة ، ثم رفعوا أشرعة سفينتهم ، وانطلقوا بها الى عرض البحر ، بينما انهمك رفاق فيلبوس فى تنظيم الصناديق داخل السيارة ، وغطوها بأكداس من السردين أهداهم اياها الملاحون !

★ ★ ★

◆ **وأشرفت** السيارة على سفح الجبل — فى رحلة العودة — فأخذت تصعد فى بطء ، اذ كان السفح شديد الانحدار • ولكن المحرك القديم لم يلبث ان عجز عن دفع السيارة الى الصعود ، فاذا بها ترتد الى الوراء •• وبدرت من « ماريا » صيحة جزعة ، اذ خشيت ان تنقلب السيارة فتتفجر الذخيرة التى كانت تحملها • وأسرع فيلبوس فوضع يده على فم الفتاة فى خشونة آلمتها ، **ولكن الصيحة كانت قد نبهت « داورية » من الجنود جثمت فى سيارة فى مكان عال من السفح ، فسرعان ماقفز الجنود ، وأسرعوا هابطين ، وهم يصيحون فى فيلبوس ورفاقه آمرين اياهم بأن لا يتحركوا من أماكنهم ••** وكانت المسافة الفاصلة بين الفريقين بعيدة ، ولكن الجنود كانوا فى مواقع مرتفعة ، تمكنهم من ان ينالوا المجاهدين

بطلقاتهم • وفكر فيلبوس بسرعة مذهلة ، ثم رفع قدمه عن « فرملة » السيارة ، فعادت بظهرها مسرعة ، بينما أمر زملاءه همسا بأن يدسوا مسدساتهم فى طيات ثيابهم !

وان هى الا لحظات ، حتى كانت السيارة قد ارتدت الى السهل ، فأسرع فيلبوس يوجهها صوب حرش من أشجار الزيتون ، أوقفها فى جوفه • ثم جمع بعض الاغصان الجافة، وأمر زملاءه بأن يشعلوا نارا ، ليتظاهروا بأنهم فريق من الشبان خرجوا للرياضة وانصرفوا الى شى السردين لاعداد فطورهم • و صب أحد الرفاق قليلا من وقود السيارة على الاغصان ، لتدب فيها النار سريعا • ولم تنقض دقيقتان ،حتى كانت النار مشتعلة ، والرفاق يجلسون القرفصاء حولها ،وقد انهمكوا فى تنظيف السردين بخناجرهم !

وكان الجنود فى تلك الاثناء قد ظنوا أن الشبان سيجنحون الى الفرار ، فعادوا الى سيارتهم ، وانطلقوا هابطين السفح بها، ثم راحوا يبحثون عن السيارة الأخرى • وما لبثوا أن رأوها بين أشجار الزيتون • **فلما أشرفوا على المكان ، رأى الضابط أمامه منظرا أخجله وجعله يشعر بشىء من الحرج والتطفل • • فقد شهد أمامه بعض الشبان يمازحون فتاة ، ويتخاطفون السردين المشوى ، فى مرح صاخب**

ولكنه تقدم منهم رغم ذلك ، وبادرهم متسائلا : « من أين أتيتم ؟ »

فأجابه فيلبوس فى صوت

هادىء ، ولهجة مرحة : « كنا نصيد السردين فى سفينة بعض الاصدقاء ، فجاد البحر علينا بصيد وفير ، جعل الزملاء ينساقون لاغراء بطونهم ، ويقسمون على أن يتذوقوا السردين قبل ان تستولى عليه أمهاتهم العجائز ! »

وكانت انجليزية فيلبوس ركيكة مضحكة ، فلم يتمالك الضابط نفسه من الضحك . وجذبته رائحة السردين المشوى ، فجلس مع جنوده حول النار . وأخذ فيلبوس يشوى السردين ثم يعطى الضابط وجنوده وهؤلاء يأكلون . الى أن تذكر فيلبوس ان له صديقا يسكن غير بعيد عن مكانهم ، فخطرت له فكرة بادر الى تنفيذها ، اذ قال للضابط أن السردين لايكون شهيا الا مع النبيذ . فضحك الضابط وأشار اليه بيده ، وكأنه يقول له : « تفضل .. هات ماتريد ! »

وأسرع « فيلبوس » الى بيت الصديق فطرق الباب . وفتح الصديق الباب وهو مضطرب ، اذ كان قد رأى سيارة الجنود تحوم فى المنطقة . ولكن فيلبوس روى له ماحدث ، وطلب اليه زجاجة كبيرة من نبيذ معتق كفيل بأن يدير رؤوس الجنود . فلبى الصديق رجاءه . **واذ ذاك سأله الشاب أن يبادر الى كهوف بقية الزملاء فيطلعهم على الموقف ، حتى اذا قدر للضابط أن يكشف أمره وأمر زملائه ، حاصره رفاق الجهاد وأخذوه وجنوده أسرى !**

ورجع فيلبوس وهو يترنح فى مشيته ويقهقه فى صخب ، قائلا انه ثمل من الكوب الاولى من النبيذ الذى أتى به ، وانه يتحدى أى انجليزى ــ يفخر بأنه من شاربى الويسكى ــ ان يجرع كوبين من هذا النبيذ . وأقبل الضابط وجنوده على النبيذ ، بعد أن أثقلوا بطونهم بالسردين ، فسرعان مادب التخدر فى أوصالهم ، وشعروا بحاجة الى الراحة والاسترخاء . واذ ذاك أشار فيلبوس الى جفاد ، وسأله أن يستقل السيارة

الى البلدة فيأتيهم بخبز طازج وزيتون . وفهم الشاب ماقصد اليه زميله ، فأوعز الى بعض رفاقه بأن يصـــحبوه ، وأسرعوا بالسيارة الى الكهف ، فأفرغوا فيه حمولتها الثمينة ، ثم عادوا بخبز طازج ساخن ، ومزيد من النبيذ !

* * *

• **وثمل** الضابط فمد يده الى ماريا يداعبهـا .. وهمت الفتاة ان تصده في خشونة ، لولا أن لمحت فيلبوس يشيراليها بأن تأخذه بالحيلة حتى يجدوا لهم مخرجا .. وكانت الخمر قد لعبت برأس الضابط فقال لفيلبوس :

ـ كيف تكون فتياتكم بهذا الجمال وتلك الرقة .. وكيف يكون رجالكم بهذا السخاء وهذا المرح ، ويقال ان بين اليونانيين فى قبرص وبين الانجليز أحقادا ؟!

ـ ليس بيننا وبينكم حقد ، غاية مافى الامر اننـا نرى ان أكثرية الشعب من اليونانيين ، ولهـذا نريد أن نصبح جزءا من الوطن الاكبر الذى يضم جزر بحر (ايجه) كلها .. أعنى اليونان !

ـ ألم ننفق عليكم منذ أكثر من سبعين عاما ؟! .. ألم نفتح لكم المدارس ؟! ألم نرفع مستواكم ؟!

ـ لقد كانت للاغريق حضارة مزدهرة عندما كانت انجلترا بلادا تعيش فى أحضان الهمجية .. قبـائل متأخرة لا تعرف كتابة ولا قراءة ، وليس لها أدب أو فن رفيع !

ـ انكم أيها اليونانيون وقحون . وأعتقد ان فى هذه الجزيرة من الجنود البريطانيين مايكفى لتأديبكم !

وأوشك المجاهدون الشـبان أن يفقدوا سيطرتهم عـلى أعصابهم ، لولا أن أشـــار اليهم فيلبوس من طرف خفى ، ثم قال : « لاتغضب ياسيدى .. اننا لا نطلب شـيئا ليس من حقنا ، فمن حقنا ـ كما ورد فى ميثاق الامم المتحدة ـ ان نقرر

مصيرنا كما نريد بالحسنى • فما الذى يغضبكم فى هذا ؟ »

ــ لقد ثار المصريون علينـا فخرجنا من منطقة القنـاة ، واتخذنا من هذه الجزيرة قاعدة للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط • فأين تريد أن نذهب بعد ذلك ؟! •• هل تظن انه كلما ثار شعب خرجنا بقاعدتنا عن أرضه ؟ وأين يكون المصير؟ لابد لنـا من قاعدة نشرف منها على حماية مصالحنـا فى هذه المنطقة ، فان آبار البترول ومعامله وناقلاته يجب ان تكون فى حماية قوات هائلة تقف على قدم الاستعداد دائما •• ويجب أن تكون لنا قاعدة للدفاع عن الشرق الاوسط ضد أية دولة أخرى من الدول الكبرى الطامعـة فى الاستيلاء عليه وعلى جنوب البلقان والاناضول !

ــ ياسيدى الضابط •• ما لنـا نحن وكل هـذا ؟•• ان ميزانية قبرص صغيرة ، ومشروعاتها معطلة بسبب انفاق جزء من أموالنا على ثكناتكم وتحصيناتكم •• أما اذا قدر لنـا ان نصبح جزءا من اليونان ، فلسوف يتحد أبناء الجنس الواحد ، ويزداد نصـيبنا من الميزانيـة العامة ، فنحقق مانريد من مشروعات الاصلاح ، وتهدأ النفوس وتطمئن !

ــ يبدو لى أيها السيد ، رغم سردينك المشوى ونبيذك المعتق وخبزك الساخن الطازج ، انك شيوعى !

فقال أحد المجاهدين : « ياسيدى الضابط •• ان من أكبر أخطائكم ، أنكم ترمون كل وطنى بأنه شيوعى !» •• ولـكن فيلبوس أشار لزميله بأن يسكت ، وانبرى يقول : « سيدى الضابط •• عندما هاجمتم مركز الحزب الشيوعى وفروعه ــ فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥ ــ وصـادرتم جـريدته « نيوس ديموكراتس » ، تبينتم بأنفسكم أن عدد أعضائه لايزيد على أربعة آلاف فرد ، فى حين أن اليونانيين من أهـل الجزيرة ، الذين يؤيدون الانضمام الى اليونان ، يزيدون عـلى نصف

المليون ٠٠ فهل تظن أن أربعة آلاف يستطيعون ان يتحكموا فى قيادة نصف مليون ودفعهم الى التضحية بكل مرتخص وغال فى سبيل قضيتهم ؟٠٠ أتظن ياسيدى ان أستاذنا وزعيمنا مكاريوس شيوعى ؟٠٠ انه رجل دين محافظ ومن أسرة نبيلة عريقة ، فكيف يمكن ان يصبح شيوعيا ؟ »

وأطرق الضابط لحظة ، ثم سأل فيلبوس : « انك خبير بالسياسة ياهذا ، فما هى مهنتك ؟ »

ـ اننى مجرد صياد سمك ياسيدى الضابط ، مثل رفاقى ٠ ولكنا نقرأ الصحف فنفهم منها مانقوله الآن !

ولم يزد الضابط على أن همهم قليلا ، ثم أمر جنوده أن يعودوا الى السيارة ويمضوا فى طريقهم

★ ★ ★

◆ وأسرع فيلبوس ورفاقه بدورهم الى سيارتهم ٠ وبينما كان الجميع يلومون فيلبوس على اندفاعه فى مجادلة الضابط، أصم الشاب أذنيه وأطلق العنان للسيارة حتى بلغت بهم الكهف ، فقفزوا منها ٠ وما ان اطمأنوا الى انصراف « ماريا » بالسيارة الى دار أسرتها ، حتى دخلوا كهفهم ، وانطلقوا ـ بنشاط النحل فى خليته ـ يملأون الاكياس بالرمال ،ويعدون مدافعهم السريعة الطلقات

أما الضابط فقد أسرع الى الشاطىء لاستكمال دوريته ٠٠ وبحث مليا عن سفن الصيادين لتفتيشها فلم يجد لها أثرا ٠٠ على أنه وجنوده لم يلبثوا أن لمحوا فى الارض آثار أقدام وعجلات غائرة فى الرمال ، مما أوحى اليهم بأن أفرادا نقلوا من البحر الى احدى السيارات أشياء ثقيلة !٠٠ وأثار الامر ريبة الضابط ، فأمر بتتبع آثار عجلات السيارة ، وكانت من العمق بحيث سهل اقتفاؤها الى سفح الجبل ٠ وهناك انقطعت الآثار على الصخور ٠ ولكن أحد الجنود كان مدربا على قص

الاثر على الصخر ، فراح يتعرف على اتجاه السيارة خلال الاحجار المقلوبة، فاذا بالسيارة قدوقفت ، ثمارتدت القهقرى الى السهل ٠٠ وقادت الآثار « الدورية » الى المكان الذى كانوا يأكلون فيه السردين !

وحامت الريبة حول السيارة و « الصياد السياسى » الذى كان يجادل الضابط ٠ ووضح الامر ، فبادر الضابط الى جهاز اللاسلكى الذى يوجد بسيارته ، وطلب نجدة ، فخفت اليه عدة سيارات مصفحة صغيرة وطائرة هليكوبتر ٠ وجعلت الحملة تتبع الآثار بدقة حتى انقطعت عند كهف ٠٠ ثم وجدوا أثر السيارة لا يكاد يبين على الرمل ، بعد هبوطها من الجبل ، مما نم على أنها أصبحت أخف مما كانت عند الساحل ،فأدرك الجنود أن « الصياد السياسى » ورفاقه لابد قد أفرغوا من السيارة أحمالا ثقيلة وضعوها في منطقة الكهف أو ما حولها

وأقبل الجنود يفتشون القرية القريبة ، فلم يعثروا على أثر ٠٠ ونقبوا خلال الكروم والبساتين فلم يجدوا مكانا توحى تربته بأنها قلبت حديثا ليدفن تحتها شىء ما ٠ واقترح الضباط الذين جاءوا بالمدد ، أن يفتشوا الكهف والمنطقة المحيطة به من سفح الجبل

★ ★ ★

٭ **وكان** الرفاق قد أحسوا بالجلبة فأقاموا الاكياس المليئة بالرمل فى مدخل الكهف كمتاريس ، ورقدوا فى ظلمة الكهف متربصين !

وتسلق الجنود ـ المختصون بحرب الجبال ـ السفح الى الكهف ، وحاولوا اقتحامه ، فاستقبلهم سيل من رصاص المجاهدين ، اضطرهم الى الرجوع مثخنين بالجراح !٠٠ وهبط فريق آخر من الجنود بالمظلات على قمة الجبل ٠ ثم تدلوا منها على سلالم من حبال ، حتى اذا ما أصبحوا على مقربة من فتحة

الكهف ألقوا عدة قنابل يدوية أحدثت دويا شديدا ، ولكن أكياس الرمل حالت دون إصابة الرفاق بشظاياها ٠٠ وأدرك الضباط أن المجاهدين لم يصابوا بسوء ، لان سيل الرصاص كان لايزال ينهمر ٠ ولكن عدد الجنود كان يزداد بين وقت وآخر

وكان صاحب الدار الذى أهدى فيلبوس النبيذ المعتق قدأبلغ رسالته الى القرى المجاورة ، ونبه أهلها الى أن رجال ذلك الكهف فى خطر ، اذ كان المجاهدون ساكنو الكهوف الاخرى ، قد خرجوا عند الفجر مثل فيلبوس ورفاقه ، ولم يعودوا بعد٠ فخرج الفلاحون وأصحاب بساتين الزيتون والكروم ، يرقبون ماكان يجرى فى لوعة وأسى ، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا، لانهم كانوا عزلا ، بلا سلاح !

ورأى الضابط ـ الذى كان السردين لايزال فى معدته لم يهضم بعد ! ـ أن هذه الطريقة لاتجدى ، فطلب أربعة من المتطوعين ، وأمرهم ببث الديناميت فوق فتحة الكهف ، وبمد فتيل من هناك حتى سيارات الحملة ٠ ثم طلب الى الجميع ـ جنودا وضباطا ـ أن يعودوا الى سياراتهم ٠ واذ عاد المتطوعون الاربعة وقد أتموامهمتهم ، فجر الضابط الديناميت ـ وهو عنه بعيد ـ فهدم الجزء الصخرى الذى يعلو فوهة الكهف، وملأ الفتحة بالاحجار ٠٠ وظل الفدائيون الاربعة يكررون مهمتهم ، والانفجارات تتوالى ، حتى انقطع اطلاق الرصاص من

الكهف ، اذ تكاثرت الاحجار حتى سدت فوهته

وأخذت النساء تولولن وتبكين أبناءهن بعد ان انقطع كل صوت لهم فى الداخـــل ٠٠ واذا بالاحجار تتدآفع الى سفح الجبل وتصيب الجنود ، فأدرك الضباط ان فيلبوس ورفاقه خشوا أن يموتوا اختناقا ، فدفعوا الاحجار الى الخارج ليفسحوا ثغرات ينساب خلالها الهواء ٠٠ وإنتهز الجنود هذه الفرصـة فأسرعوا الى تسلق الجبـل فى حملة مباغتة ، ثم هاجمـوا الكهف من كـل جانب واقتحموه ، وأمروا من كانوا فيـه بالتسليم أو اطلاق النار عليهم ، فلم يجد فيلبوس ورفاقه بدا من التسليم ، بعد أن أثرت فيهم توسلات الامهات والزوجات وبكاؤهن !

★ ★ ★

◆ **وبعد** أيام قليلة ، انعقدت محكمة عسكرية بريطانيـة ، لمحاكمة فيلبوس ورفاقه ٠ ووقف المحـامى الذى تولى الدفاع عنهم يقول ان هؤلاء الشبان لم يطلبوا الا ماكان القبارصـنة يطلبونه منذ سـنة ١٨٧٨ ، أى منذ أن تخلى الباب العـالى (تركيا) لحكومة « دزرائيلى » عن قبرص ٠٠ ولم يحفل أحد بتعرف رأى أهل الجزيرة فى هـذا المصير الذى طمع فيـه دزرائيلى وارتضاه السلطان ، ولكن رئيس أسـاقفة الجزيرة ألقى خطبة بين يدى أول مندوب سامى بريطانى ـ وكان السير جارنيت ولسلى ـ رحب فيها بالمندوب ، وان أعلن آن «الشعب القبرصى يريد الانضمام الى اليونان » !٠٠ فلما آنتقل الحكم فى بريطانيـا الى « جلادستون » ـ فى سنة ١٨٨٠ ـ قـدم القبارصة طلبا اليه ينشدون آلانضمام الى اليونان ، فوعدهم جلادستون بذلك ٠ ولكنه ماكاد يسمع بأن (كريت) ستنزع من تركيا لتعطى لليونان ، حتى نكث بعهـده ، وقال ان من

الافضل - بعد هذا الذى حدث - أن تبقى قبرص فى يد بريطانيا !

وتحدث المحامى عن العهود التى قطعتها الحكومات البريطانية المتوالية ، ثم نكثت بها ، فقال : « وعندما دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى ضد بريطانيا ، عمدت الحكومة التركية الى الغاء معاهدة ١٨٧٨ التى تنازلت بمقتضاها لانجلترا عن الجزيرة ! .. وفى تلك الاثناء ، كانت بريطانيا تحاول جاهدة اغراء اليونان على الانضمام الى الحلفاء فى الحرب ضد تركيا .. وكان الجزاء الذى وعدتها به - أو الطعم الذى استدرجتها به الى شراكها - فى أكتوبر سنه ١٩١٥ ، هو أن تمنحها قبرص ! .. ومن ثم حاربت اليونان الى جانب الحلفاء فى سنة ١٩١٧ . ولكن بريطانيا نسيت وعودها بعد أن كسبت الحرب . وفى سنة ١٩٢٣ اعترفت تركيا فى معاهدة لوزان بضم قبرص الى بريطانيا ، فلم تحن سنة ١٩٢٥ حتى أصبحت الجزيرة من مستعمرات التاج البريطانى » !

واستطرد المحامى قائلا : « **وأجرى استفتاء غير رسمى فى سنة ١٩٥٠ لسكان الجزيرة ، بشأن المصير الذى يريدونه لجزيرتهم . وكان عدد المقترعين الذين تزيد أعمارهم على ١٨ سنة ٢١٥ ألفا ، اقترع منهم ٢١١ ألفا فى جانب الانضمام الى اليونان . وأرسلت نسخ من نتيجة الاستفتاء الى العالم بأسره ، ولكن هذا كله لم يكن ذا جدوى . وكانت الجمعية العامة للامم المتحدة قد أوصت أعضاءها - فى ١٦ ديسمبر ١٩٥٢ - بأن يعترفوا ويؤيدوا حق جميع الشعوب فى تقرير مصيرها . ولكنها حين رفعت اليها قضية قبرص ، لم تنصف القبارصة . فماذا يفعل هذا الشعب ازاء القوة والجبروت ؟.. ان هؤلاء الشبان كانوا يحتمون بالكهوف من الظلم ، فلم يرق**

ذلك لجنود الامبراطورية وهاجموهم فى الكهف الذى اعتزلوا العالم فيه ! »

ورفعت الجلسة أياما للمداولة ، ثم قضت المحكمة على المتهمين بالسجن لفترات متفاوتة

★ ★ ★

◆ **وذهبت** ماريا مع والدة فيلبوس لزيارته وزيارة أخيهفى السجن ، فأوصاهما الاول بالبحث عن المال والحلى المدفونة فى أرض الكهف ٠ ولكنهما كانتا فى شغل عن ذلك بالتطلع اليه ، اذ كانت حاله تثير القلق ٠ وتكررت الزيارات وهما تلاحظان فى كل مرة أن وجه فيلبوس كان يزداد ذبولا عنهفى المرة السابقة الى أن جاءهما قسيس (لارنكا) يوما يطلب اليهما الاستعداد لزيارته فى حجرته بالمستشفى ، بعد اذ أصيب بهبوط خطير فى القلب ونقل اليه !

واجتمع أهل (لارنكا) وقراها يطلبون العفو عنه ، ولكن السلطات البريطانية الغاشمة لم تعرهم أذنا !

وكان فيلبوس فى حجرة منفردة بمستشفى السجن ٠٠ حجرة حصنت نافذتها بشبكة من القضبان الحديدية ٠ وكان الفراش من نوع ردىء ، والحشية من قش تكور هنا وهناك بشكل يؤذى ضلوع النائم ٠٠ ولكن فيلبوس كان شارد الذهن لا يكاد يشعر بشىء ٠٠ كان عقله لايعلق بغير ماريا وأمه ، والمستقبل المحفوف بالمخاطر والفاقة ، بعد ان ضاع ماكان يدخره لهما من مال وحلى !

ودخل القسيس أولا ، فجلس بجانبه ، وتحدث اليه مليا ، والأم والخطيبة جاثمتان فى ركن من الحجرة ٠ حتى اذا ما أتم القس مراسمه الاخيرة ، مسحت الأم الدمع المنهمر على خديها ، وأشارت الى « ماريا » بأن تتشجع أمامه ، ثم تقدمتا متجلدتين من فراشه ، فحاول أن يمد يده الى أمه ، ولكنه لم يستطع

لشدة وهنه ٠٠ وكان صوته خافتا كما لو كان همسا ٠وأجال المريض بصره فى ماريا مرة وفى أمه مرة أخرى ، وقد غامت على عينيه غشاوة لدنوه من النهاية !

وقبلته أمه ، فلم تتمالك ماريا أن انفجرت باكية ٠٠ ونظر اليها نظرة طويلة وهو ساهم الفكر ، ثم بحث تحت وسادته عن ورقة وقلم وكتب لهما بخط ردىء ويد مرتعدة : « **لقد نادانى السيد المسيح منذ تلك الليلة ٠٠ وها أنذا ألبى النداء !** »

وتطلعت أمه الى وجهه ، فوجدته يبتسم فى هدوء ، أشرق بنور الايمان والامل فى رحمة السماء ، فرسمت الصليب بيدها على وجهها وصدرها ، وحذت ماريا حذوها

وكتب فيلبوس مرة أخرى يقول : « انى سعيد ٠٠ انه ينتظرنى ! » ٠٠ فنهضت الأم عن المقعد وأزاحته بعيدا ، ثم ركعت بجانب الفراش ٠ وأخذت تصلى بحرارة عسى ان ينقذ الرب ابنها من مخالب الموت ٠ ونظر فيلبوس الى الناحية الاخرى من الفراش ٠٠ الى ماريا ، ولكنها بدت له كطيف يلوح على بعد !

* * *

◆ **ومكنته** صحوة الموت من أن يرفع يده ويضعها على يدها، فأمسكت بها وأطبقت عليها بكلتا يديها ، وكأنها تحاول ان تتشبث بها لتحول بين خطيبها وبين الانتقال الى العالم الآخر الذى يقف على أبوابه !

واسترد فيلبوس صوته ، فقال فى همس : « اغفر لى ياأبى الذى فى السماء ! » ٠٠ وفرحت أمه اذ خيل اليها انه قد غالب الموت ، وتجاوز الخطر ٠ فمالت على أذنه تسأله : «ماهى رغبتك يابنى ؟ ألا تريد ان آتيك بشىء فى المرة القادمة ؟ »

واعتدل فى فراشه ٠ ثم نهض معتمدا على ذراع واحدة

يريد ان يستوى جالسا ، ولكنه عجز عن اتمام محاولته ٠٠ وقال لأمه فى صوت قوى : « ان لنا جميعا رغبة واحدة ! »٠٠ فقالت والدمع يحبس صوتها ويظلل عينيها : « وما هى يابنى ؟ » ٠٠ قال : « أن تعود جزيرتنا الى الوطن المقدس ! »

ثم تخاذلت عنه ذراعه ، فارتمى برأسه مرة أخرى على الوسادة ٠٠ وكأنما انعقد لسانه على كلمة واحدة ، راح يرددها : « اينوسيس ٠٠ اينوسيس » !

و « اينوسيس » هى شعار المطالبين بضم قبرص الى اليونان .

وبعد لحظات سكن صوته ٠ ثم اتسعت حدقتاه ٠٠ وبسط ذراعيه فى الهواء ، وكأنه يرحب بشخص يراه مقتربا منه ٠٠ وفتح فاه قليلا ، فاقتربت أمه منه تريد أن تسمع مايريد ان يقول ٠٠ ولكنه كان يلفظ النفس الاخير

وضم الى سجل المجاهدين شهيد جديد !

كتاب البحث الطبى

فى الامراض البولية والتناسلية المستعصية وتضخم البروستاتا التى هى سبب العلل فى جسم الانسان ٠٠ وطريقة علاجها بجهاز فهجر الذى لايستعمله الا مخترعه مؤلف هذا الكتاب الدكتور فهمى جرس ، ٧٨ شارع الجمهورية (ابراهيم باشا سابقا) ت ٥٦٢٠٤ ويطلب من المؤلف (٥٠ مليما)

الحياة قصة

روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء :

قرات معى فى الاعداد الماضية قصص: • أموك : لستيفان زفايج • قلب عذراء : جون جالزورثى • مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى • التلميذ : بول بورجيه • احدب نوتردام : فيكتور هوجو • جريمة حب : بول بورجيه • جين اير : شارلوت برونتى • ايام بومباى الاخيرة : لورد ليتون • مانون ليسكو : الاب بريفو • حديقة الله : روبرت هتشنز • عندما تحقد المراة : جورج اونيه • آسيا : ايفان تورجنيف • الحب الاول : تورجنيف • تاييس: اناتول فرانس • بلاد العميان : هـ.ج. ويلز • نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون • كوخ العم توم : هارييت بيتشر ستو • الزوج والعشيق : سومرست موم • البوهيمية : هنرى مرجيه • فتاة لها ماض : بول بورجيه • شيرى : كوليت • الجريمة والعقاب: دستويفسكى • لحن كرويتزر :تولستوى • اميرة مصر : جورج ايبرز • الامطار: سومرست موم • افروديت : ببيرلويس • جيجى : كوليت • الشيطان فى الجسد : ريموند راديجيه • ليبوريللا: ستيفان زفايج • كانديد • اشجان فرتر • فرانشسكا • لوريت • المعطف • يوميات زوجة • الافق المفقود • النار الخالدة • الوحل • ابناء وعشاق • « اليهودى التائه » • « صباح الخير ايها الحزن » • علاج الحب • العانس • « آدم بيد » • أحزان الشيطان • وهاك اليوم الجزء الثانى والاخير منها

THE SORROWS OF SATAN
BY
MARIE CORELLI
أحزان الشيطان!
القصة الخالدة للروائية العالمية
"ماري كوريللي"

فى ركاب الشيطان !

◆ كنت فقيرا ، معدما ، لا ألاقى من المجتمع سوى النبذ والاعراض .. كما كنت كاتبا فاشلا ، يرفض الناشرون قبول انتاجه . وفجأة ، هبطت على ثروة طائلة .. خمسة ملايين من الجنيهات !.. ولم أعلم اذا كانت قد هبطت على من السماء ام جاءتنى على يد الشيطان . المهم ان المجتمع بدأ يهش فى وجهى ، وأخذ الناشرون يتهافتون على انتاجى ، والنساء لا يتورعن عن ابداء اعجابهن بى

« ولم أكن وحيدا فى غزواتى للمجتمع .. فقد كان يصاحبنى ويؤازرنى فيها صديقى الامير « لوتشيو ريمانيز » ، الذى عرفنى به احد أصدقائى القدامى . وكان الغموض يلف الامير بغلالة لا تدع لبصيرة الانسان فرصة كى ينفذ الى اعماقه ليتبين حقيقة أمره . كل ماعرفته عنه ، عبارة غامضة قالها ذات مرة عن نفسه : « اننى أنحدر من سلالة لا تستطيع أعرق أسراتكم أن تنافسها حسبا واصلا .. أسيطر على مملكة واسعة ، وأحكم حيثما يطيع الناس نفوذ المال ! »

« على انى أعترف بأن الثروة غيرتنى تماما ، ففقدت الشعور باللذة الذى كنت أستمده من الحرمان ، كما أخلدت موهبتى فى الكتابة الى النعاس .. وأثار حسرتى اننى اضطررت بمالى الى اصطناع ضجة حول كتابى حين نشرته - بعد ان أثريت - فى حين ان كتب أديبة تدعى « مافيس كلير » كانت تجد رواجا هائلا ، أذاع صيت الكاتبة ، وأذكى غيرتى وحسدى ، حتى اننى لم أتورع عن ان أكتب نقدا جائرا ، غاشما ، لآخر كتبها ، باسم غير اسمى !

« وفى ذات يوم ، عرفنى الامير بفتاة جميلة تدعى « سيبيل » ، كانت ابنة نبيل مفلس اسمه « ايرل التون » . وفتنت بالفتاة من النظرة الاولى ، فاخذت أتردد على دارها مع الامير ، كما أخذت أغدق عليها الهدايا . بل لقد تطوعت بالوفاء ببعض ديون أبيها ، كما ابتعت قصرا ريفيا بديعا كان يمتلكه ، وكان يجاور كوخ « مافيس كلير » !.. وفى احدى تلك الزيارات ، ثارت « سيبيل » على ثورة عنيفة : « لماذا لا تفاتحنى بأسباب حضورك الى هنا ؟ لماذا لا تقول ان اختيارك « الملكى » قد وقع على ، وانك تريد ان تتزوجنى من بين نساء الدنيا طرا ؟ ألا تأملنى .. هل فى السلعة التى تريد شراءها اى عيب ؟ » .. وراحت تعدد لى محاسن جسمها ، ومفاتنها ، ثم صاحت : « لماذا تعرضنى للخزى بتباطؤك فى ابرام الصفقة ؟ »

« والآن ، أدعك أيها القارىء لتواصل قراءة قصة حياتى .. أو بالاحرى مأساتى العجيبة ! »

• وهتفت صائحا : « سيبيل ٠٠ لقد أنهكك التعب والانفعال ، فليس بوسعك ان تفقهى ماتقولين ! ماهذا الهراء الذى يجول بخاطرك عن الشراء والبيع ؟٠٠ انك لتعلمين اننى أحبك ، فأنا لم أحاول اخفاء هذا ، ولابد انك قرأته فى وجهى ٠ واذا كنت قد ترددت فى أن أبوح بحبى ، فانما كان ذلك خوف صدك ! » ٠٠ وتعلقت بى فى خوف الطائر الذى وجد نفسه فجأة حبيس قفص ٠٠ وسلبتنى ذراعاها الناعمتان ـ اللتان التفتا حول عنقى ـ كل سلطان على نفسى ، فرحت أقبل تموجات شعرها ٠ واذ ذاك رفعت رأسها وتطلعت الى وفى عينيها بريق غريب ، لا ينبعث عن حب بقدر ماكان منبعثا عن خوف !٠٠ وكان مرأى جمالها مستسلما لى بهذا الشكل كفيلا بأن يحطم كل قيد حاولت ان أكبح به جماح عواطفى حتى تلك اللحظة ، فطبعت على شفتيها قبلة طويلة ، خيل الى أنها مزجت كيانينا معا ٠ وفجأة ، دفعتنى عنها ، ووقفت تتأملنى ، ثم سألتنى : « ما الذى أحسست به الآن ٠٠ حين قبلتنى ؟ »

ـ بكل مباهج الجنة ولهب الجحيم ٠٠ مجتمعين فى لحظة واحدة !

فرمقتنى فى حيرة غريبة ، وقالت فى قنوط : « أما أنا ، فلم أشعر بشىء !٠٠ ليس بوسعى أن أشعر ، فاننى احدى نسائكم الحديثات ٠٠ « المودرن » ! ٠٠ لا أستطيع سوى ان أفكر ، وان أحلل ٠٠ أفتراك تسعد معى ؟٠٠ انك مخطىء فيما لديك عنى من أفكار ٠٠ لقد كنت دائما مسوقة الى هذا المصير ٠٠ الى أن أغدو متاعا لرجل غنى !٠٠ كم من رجال تطلعوا الى شرائى ، ولكنهم لم يكونوا يملكون الثمن الذى يطلبه أبى !٠٠ لاتذهل ، فهذه حال كل نساء الطبقة العليا !٠٠ كل غير المتزوجات منهن ـ فى انجلترا ـ معدات للبيع ، كأنهن من الجوارى الشركسيات ، فى سوق للعبيد !٠٠ لاتحتج ،

فانني واثقة من انك تحبني ، ولكنك لاتعرفني على حقيقتي ، وانما اجتذبك الى وجهي وقوامي .. انكَ لتعجب بشبابي وبراءتي ، ولكني لست شابة ، بل أنا مكتهلة القلب والمشاعر .. لقد كنت بريئة يوما ، عندما كنت أعيش في (ويلوزمير) ، بين الازهار والطيور وكل المخلوقات الامينة ، ولكن موسما واحدا قضيته في المدينة كان كافيا لاغتيال شبابي .. موسم واحد حافل بالمآدب وحفلات الرقص وقراءة الروايات !.. **انني لاسائلك : أتظن أن بوسع أية فتاة تقرأ الكتب التي تنشر الآن بسخاء ، والتي يوعز اليها أصدقاؤها بقراءتها ـ لانها « رائعة » ـ ان تظل محتفظة ببراءتها ؟.. تلك الكتب التي تلم بأدق تفصيلات حياة الساقطين ، والتي تحلل الرذائل الخفية في الرجال ، وتلك التي تدعو الى «الحب الحر الطليق» وتعدد الزوجات كما لو كانا من الواجبات المقدسة ؟..الكتب التي لا ترى عيبا في أن تقدم الى أوساط الزوجات الصالحات، والفتيات البريئات الافكار ، بطلة تبحث في جرأة عن رجل ـ أي رجل ـ لينجبها طفلا ، دون أن تتخبط في « ذل » الزواج ! .. لقد قرأت كلَّ هذه الكتب ، فماذا ترتقب مني ؟.. انك لن ترتقب براءة بالطبع .. انني أزدري الرجالَ .. وأزدري جنسي .. وأكره نفسي لانني امرأة ! »**

ومع ذلك فقد رحت أحدق فيها بشعور غريب ، جمع بين العبادة والبعد عن الوهم ، تماما كالوثني حين يتطلع الى الصنم الذي لايزال يحبه ، وان لم يعد يؤمن بقداسته !.. والتقت عيناي بعينيها المؤتلقتين ، فقلت : « لن أتحول قط عن رأيي ياسيبيل .. انني أحبك ، وسأحبك دائما ! » .. فقالت : « قد أبدو لكَ غريبة ، ولكنني صالحة لان أكون زوجة ، فليس في دور الزوجة شيء لا أعرفه ، وان كنت لم أتجاوز العشرين. وكل ما أسألكَ اياه هو أن تذهب الى أبي وتشتريني منه في الحال .. فاذا ما ابتعتني ، ودفعت أجر القس ، ودفعت

لوصيفات العروس ، وللضيوف ٠٠ وحتى للرجل الذى يغلق باب عربة العروسين ، فهل لك فى أن تنقلنى بعيدا عن هـذا البيت الذى يخيفنى فيه وجه أمى ـ وكأنه شبح فى الظلام ـ والذى يعذبنى فيه الفزع ليل نهار !٠٠ أجل ، لنعش بعيداعن لندن المقيتة ، ولنقم فى (ويلوزمير) ٠٠ فقد أجد هناك بعض مباهج الايام الخالية ! »

وعندما قبلتها مودعا ، قالت : « انك ولا ريب ستخبر الامير ريمانيز بالنبأ ؟٠٠ أنبئه فى الحال ، فاننى أحب أن يعرف !»

وغادرت البيت وأنا موزع القلب بين الزهو والنشوة والالم ٠٠ كنت قد أصبحت خطيب ابنـــة « ايرل » ، و ٠٠ حبيب امرأة صرحت بأنها عاجزة عن الحب !

★ ★ ★

◆ **اننى** اذ أعود بالذاكرة الى هذه الفترة من حياتى ـ وقد انقضى عليها ثلاث سنوات ـ أجدنى أذكر ذلك التعبير العجيب الذى ارتسم على وجه « لوتشيو » حين أنبـأته بأن « سيبيل التون » قبلتنى زوجا ، فان ابتسامته المفاجئة بعثت فى عينيه بريقا لم أر مثله من قبل ٠٠ بريق وهاج ، ولكنـــه رهيب ، يوحى ـ ويا للعجب ! ـ بسخط محتدم مكبوت فى أعمـاق صاحبه !٠٠ وكان أثناء حديثى اليه يعبث بألعوبته المفضلة ـ الحشرة الدقيقة التى كان يحتفظ بها ـ مما أثارنى ٠ وأرسل آخيرا ضحكة مقتضبة ، ثم قال : « هكذا النساء جميعـا ٠٠ قليلات منهن من أوتين قوة على مقاومة اغراء رجل غنى ! » ٠٠ فقلت وقد أهاجنى قوله : « ليس من الانصاف أن تقيس كل شىء بمقياس المـال ٠٠ ان سيبيل تحبنى لذاتى ! » ٠٠ فاخترقتنى نظرته كأنها صاعقة ، وهو يقول : « اذن ، فلاهنئك من كل قلبى ٠٠ ماكنت أعلم أن الحب ـ بالشكل الذى كان معروفا فى الزمن الغابر ـ قد غزا امرأة تبدو جامدة العواطف

كخطيبتك الحسناء !٠٠ أؤكد لك يا صديقى ، انك كسبت ثروة تفوق ملايينك ، اذا كنت قد كسبت الحب الصادق من امرأة صادقة ! »

ـ عجبا يا لوتشيو ٠٠ حسبتك كنت تكرهها ؟

ـ واننى لاكرهها ، ولكن لا تنس السبب الذى أكره من أجله النساء جميعا !٠٠ انه راجع الى أنهن يملكن فى متناول أيديهن كل امكانيات الخير فى الدنيا ، ولكن الاغلبيةالساحقة منهن تحول هذه الامكانيات الى شر ٠٠ والرجال بدورهم يخضعون لتأثير النساء ، ولو ان قليلين منهم من يقرون بذلك !

وكنت أرقبه وهو يداعب الفراشة ، فوجدتنى أصيح فجأة بانفعال : « دع هذا الشىء الذى لا يطاق ٠٠ اننى أكره رؤيته ! » ٠٠ فضحك قائلا : « أميرتى المصرية المسكينة !٠٠ يا لقسوتك ياجوفرى !٠٠ لو انك عشت فى أيامها لكان من المحتمل ان تكون من عشاقها ! » ٠٠ وأعادها الى علبتها البللورية ، ثم تحول قائلا : « من يدرى ما الذى عانته هذه الفراشة حين كانت امرأة ؟ ٠٠ كيفما كان الامر ، فاننى أعتقد انها فى حالها الراهنة أسعد حالا ! ٠٠ **ان بعض الارواح اذا ماجردت من الاطار البدنى بدت بغيضة ! أنسيت ماذكره صديقك « جون كارينجتون » فى الخطاب الذى قدمنى فيه اليك ، من اننى حجة فى المسائل العلمية ؟! »**

ولم تلبث الصحف ان نشرت نبأ خطبة وحيدة ايرل التون ، الى المليونير المشهور ـ وليس المؤلف المشهور ! ـ جوفرى تمبست !٠٠ وكانت الطبعة العاشرة من كتابى قد ظهرت ، ولكنا لم نوزع أكثر من ألفى نسخة ، فى حين ان الكتاب الذى تحاملت عليه فى قسوة وخسة ـ كتاب « فوارق » لمافيس كلير ـ كان قد وزع ثلاثين ألفا !٠٠ ووجدتنى أقضى الساعات الطويلة مسهدا ـ فى جوف الليل ـ أحاول ان أضع كتابا جديدا ، مبتكرا ، جريئا ، يقسر الرأى العام على ان يعترف لى بمكانة

تفوق تلك التى حصلت عليها بامتلاكى الثروة ٠٠ ولكن قوة الابتكار كانت قد ماتت فى نفسى !

وفى أوائل ابريل ، قمت بأولى زياراتى لضيعة (ويلوزمير) ، اذ علمت ان أعمال تجديد القصر وتزيينه أوشكت على الانتهاء ٠ وكان القصر عتيقا ولكنه بديع ، وقد نبتت الخضرة تعلن بنضارتها جمال الربيع ٠ وكان كل شىء مشرقا ، بهيجا ، مروحا عن النفس ٠ وتحولت الى « لوتشيو » أشد على يده قائلا : « أشعر بأننى عاجز عن أن أوفيك حقك من الشكر !٠٠ لولاك لكان من المحتمل أن لا ألتقى قط بسيبيل ، أو أهتدى الى ويلوزمير ! » ٠٠ فتساءل مبتسما : « اذن فأنت سعيد ؟٠٠ كنت حسبك على النقيض ! »

– لست سعيدا كما تتوقع ٠٠ اذ ما أن حصلت على الثروة حتى بدا ان ثمة شيئا يهبط – بدلا من ان يرقى – بى !٠٠ من الغريب ٠٠٠

– لا غرابة هناك ، فمن المسلم به ان أكثر أهل الارض تعسا هم الاغنياء !

فسألته مبتسما : « أأنت – مثلا – تعس ؟ » ، فاستقرت عيناه على بنظرات مدلهمة ، رهيبة ، وقال : « **أفلا ترى ؟٠٠ أتغرك الابتسامة التى أظهر بها ٠٠ الابتسامة التى يصطنعها الناس ليخفوا أشجانهم المكنونة عن نظرات أبناء جنسهم الخالية من الاشفاق ؟!٠٠ أما عن الثروة ، فيكفيك ان تعرف ان بوسعى أن ابتاع ممالك بأسرها ، دون أن ينقص هذا من ثروتى ! بوسعى أن أتوج ملوكا ، وان أخلع ملوكا ، دون أن أفقد شيئا ! بوسعى ان أسحق بلادا كاملة تحت قدم المضاربات المالية ! بوسعى ان أبتاع الدنيا كلها ، ومع ذلك فهى فى نظرى لا تساوى أكثر من ذرة من التراب تدور فى اللانهائية !** »

فقلت : « انك محوط ببعض الغموض يا لوتشيو ، وكأنك فقدت شيئا لا تستطيع ثروتك ان ترده اليك ٠٠ لعلك يوما

تثق فى وتصارحنى ! » · واذ ذاك ضحك قائلا : « سأنبئك يوما بتاريخى ! »

★ ★ ★

◆ **وعندما** جلسنا للغداء ، قال : « سأسألك الآن صنيعا ياجوفرى · لاحاجة بك هنا الى اقامة مآدب ، واستخدام عدد كبير من الخدم · والذى أقترحه هو ان تقيم مأدبة كبرى تكريما لخطيبتك ، فى شهر مايو ··ودعنى أتولى تنظيم برنامجها! » · واذ وافقت قال : « لابد انك تدرك اننى اذا تعهدت بعمل شىء، فاننى أؤديه كخير مايمكن أن يفعل · ولما كان زفافك مقدمة لفراقنا – ولو لفترة من الوقت – فاننى أود أن أظهر تقديرى لصداقتك ، بأن أنظم احتفالا ستتأكد من أن انجلترا لم تشهد أو تعرف له مثيلا ! » ··ومرة أخرى ، كررت له موافقتى التامة المطلقة ، فقال : « لسوف تتزوج فى يونيو ، فلتكن الحفلة اذن فى الثانى والعشرين من مايو ·· فان هذا يدع للمجتمع فترة يفيق فيها من روعة الحفلة ، ليتأهب لحفلة أخرى · وهى الزفاف ! »

وصحبته بعد الغداء الى جولة فى حدائق القصر · وفيما كنا نتجول فى أنحائها ، توقف فجأة وقال بلهجة حالمة : « **انتبه ياجوفرى ·· انتبه الى سكون الارض عندما يغرد الطائر !·· هل لاحظت يوما ماتبديه الطبيعة من خشوع حين تتلقى الاصوات القدسية !·· ليس فى السماء العليا طيور ، وانما هناك أرواح تسبح لله ! ·· ان دنيا الرب العلوية خليقة بأن تحوى كل العجائب ، والروائع ، والجمال !·· حتى هذه النبتة الصغيرة خليقة بأن تبدو أجمل وأينع ، حيثما لايوجد الانسان !·· لقد طالما احتججت – ولا أزال – على خلق الانسان !** » · فضحكت متسائلا : « أتحتج على وجودك ؟! » ، فاشتدت عيناه اسودادا بالتدريج ، وقال : « ان البحر عندما يهدر وينقض على الشاطىء،

فانما ينشد فريسته : الجنس البشرى !٠٠ انه يبغى ان يطهر الارض الطيبـة من الحشرة الضعيفـة التى تعكر صـفو ذلك الكوكب !٠٠ وعندما يقصف الرعد بعد وميض البرق بلحظة ، أفلا يخيل اليك ان السحب ذاتها تشترك مع عناصر الطبيعـة فى حرب قدسية ضد خلق الانسـان ؟٠٠ ألا ترى انك واياى ـ مثلا ـ نمثل العنصر غيرالمنسجم وسطهذهالمروج المتسقة؟٠٠ اننا بالذات لانحمد للحياة نعمها ، بل نحن غير قانعين بهـا ، فلم نؤت براءة الطير أو الزهور !٠٠ ان حكمتنـا تنبعث أول ماتنبعث من الشر ، وفقا لما جاء فى أسطورة شجرة الحكمة ٠٠ الشجرة التى علمت ثمرتها آدم وحواء معنى الخير والشر ، ثم ظلت تغرى الانسـان على الشر أكثر مما تغريه على الخير ، وتوسوس له بأنه حى خالد كالله ! »

قلت : « ولـكننى لا أفكر فى خلود ، فان هـذه الحيـاة تكفينى ٠٠٠ » ، فقاطعنى وهو يحدجنى بنظرة ثاقبة : « أجل، ولكن ٠٠ ماذا يكون من أمرك اذا كانت هناك حيـاة أخرى ٠٠ حياة لم يؤخذ رأيك فيها ؟ » ٠٠فصحت بصبر نافد : « لاتدعنا نضيع الوقت فى نظريات !٠٠ اننى سعيد اليوم ! » ٠ فأمسك بذراعى وواصلنا سـيرنا حتى صرنا فى مواجهـة كوخ جميل ، صغير ، يكاد يكون مدفونا وسط الخضرة اليانعـة ٠ واذ ذاك قال لوتشـيو : « سـيطر على أعصـابك واحتفظ بهـدوء ذهنك ، فهنا تسكن امرأة لاتطيق انت شهرتها ولا اسمها ٠٠ مافيس كلير ! » ٠٠ وتدافع الدم الى وجهى ، وحاولت ان أقنعه بالعودة ، ولكنه أخذ يثنينى ، وتقدم الى مدخل الكوخ المتوارى خلف النباتات الزاحفة،واذا بضحكة كأنها نغم الموسيقى تنبعث فى الجو ، أعقبها صوت صاف عذب يداعب كلبـا ٠ واسترق لوتشيو نظرة خلال فرجة بين النباتات ، وأشـار يدعونى الى جواره هامسا : « هاك الغولة العجوز النهمة الشرسة ! » ٠٠ ولكننى لم أر سوى امرأة صـفراء الشـعر ، فى ثوب أبيض ،

تجلس على مقعد منخفض من القش وقد ضمت فى حجرها كلبا صغيرا ، بينما وقف على مسافة منها كلب ضخم ، بديع المنظر !

ولم أصدق ان هذه الحسناء الوادعة هى « مافيس كلير » ٠٠ فما خلق هذا الرأس الصغير ليتوج بأكاليل المجد ، وانما خلق ليحاط بأكاليل الورود تحملها يدا عاشق متيم !٠٠ وما كان فى وسع أنثى صغيرة الجسم ـ كتلك التى رأيتها ـ ان تنتج كتابا ينم عن عقل قوى ، عبقرى ، ككتاب « الفوارق » الذى أعجبت به فى السر ، وان تحاملت عليه فى مقال باسم منتحل ! ٠٠
وهتفت : « لايمكن ان تكون هذه مس كلير٠ولا بد ان الروائية تختلف عن هذه الشابة الطروب ، ذات الثوب الباريسى الابيض ! »

★ ★ ★

◆ **وتحول** لوتشيو الى الباب فدق الجرس ، واذا بخادم نظيفة الملبس تلبى النداء ، فقدم اليها بطاقتين باسمينا،التماسا لمقابلة مس كلير ٠ وسرعان ماعادت وسألتنا أن نتبعها ، وهى تبتسم ٠ ودخل لوتشيو فى خفة ، أما انا فقد وجدت نفسى أتبعه ، مع آنى لم أكن راغبا منذ لحظة !٠٠ وولجت « كوخ الزنابق » دون ان يخطر ببالى انه سيصبح يوما المكان الوحيد الذى أجد فيه الطمأنينة والدعة اللتين ظللت أصبو اليهما دون أن أحظى بهما !٠٠ وكان البيت فى الداخل أكثر اتساعا مما يبدو من مظهره الخارجى ٠٠ والبهو مربعا ، فسيحا ، بطنت جدرانه بخشب البلوط المنقوش ٠٠ وتناثرت فى كل مكان الزهور ، والكتب ، وبعض التحف الخزفية ، وبعض الزخارف التى لاتتولد الا عن ذوق نسائى ٠ وأخذ لوتشيو يتأمل الصور التى كانت تزين الجدران ٠٠ صور امبراطور روسيا ، وبدروفيسكى ، وملكة ايطاليا ، وولى عهد انجلترا ٠٠ وكلها

تحمل توقيعات أصحابها . وهتف : « لعمرى .. يبدو ان مس كلير تجتذب اليها عددا كبيرا من علية الناس ، دون معونة المال .. ترى كيف تفعل ذلك ياجوفرى ؟ »

وفيما كان يتكلم ، رأينا المرأة التى كانت فى الحديقة تدخل . وتقدم منها لوتشيو قائلا : « يجب ان نعتذر عن تطفلنا يامس كلير ، فاننا لم نقو على المرور بدارك دون ان نحاول مقابلتك . ان اسمى ريمانيز .. وهذا صديقى مستر جوفرى تمبست المؤلف » .. ورمقتنى مبتسمة وهى تهز رأسها محيية، بينما استطرد لوتشيو قائلا: «إنه، ولعلك تعرفين ، قد أصبح مالك قصر ويلوزمير . وستصبحان جارين ، بل وصديقين على ما آمل!» .

فقالت فى بساطة وهى تبسط يدها لنا : « أهلا بكما .. اننى متعودة على زيارات الاغراب . على اننى عرفت مستر تمبست بشهرته » . ودعتنا الى الشاى . وحاولت أن أتكلم ، فلم أجد قولا مناسبا . وملأ منظرها نفسى ندما واستحياء . كانت مخلوقة بديعة المظهر .. صغيرة الجسم ، أنيقة ، بسيطة فى غير تكلف ، فشعرت بأن مقالى القاتل انما كان كحجر ألقاه وحش وضيع على طفل برىء !.. ومع ذلك ، فقد كنت أكره نبوغها .. تلك الميزة الغامضة التى تجتذب انتباه الدنيا عنوة بقوتها وحرارتها .. الميزة التى كنت أفتقدها !.. والتقت عيناى بعينى مس كلير ، العميقتين ، الشديدتى الزرقة ، الوقورتى النظرات ، الصافيتين . وسألتنى عن القصر ، وعما اذا كنت قد أعجبت به ، فقال لها لوتشيو اننى مقبل على الزواج من ليدى سيبيل ، فأجابت بابتسامة واهنة :

ـ قرأت عن هذا ، وأعتقد ان مستر تمبست خليق بأن يغتبط ، فان ليدى سيبيل رائعة جداً . اننى أذكرها عندما كانت طفلة جميلة ، وكنت أنا الأخرى طفلة .. فكثيرا ما كنت أراها ، وان لم أخاطبها !

وازددت اعجابا بها حين راحت تصب لنا الشاى بنفسها .

لم تكن جميلة ، ولكنها كانت ذات شخصية فاتنة ساحرة ، وجاذبية رقيقة ناعمة • وقالت فجأة وهى تبتسم لى : « كان كتابك بديعا يامستر تمبست • لقد قرأته بمجرد صدوره • ولكن ، هل تعلم انى أرى ان مقالك أبدع ؟ » •• فتضرج وجهى وقلت متلعثما : « اننى لا أكتب مقالات ! » • فضحكت قائلة : « بل انك كتبت فى مناسبة واحدة « شرحتنى » فيها بمهارة ! •• ولقد أعجبت بالمقال ، ولكن •• لماذا تبدو مرتبكا ؟ »

•• وتراقصت نظراتها على ، وقالت : « ماأحسبك تظن اننى استأت لنقدك •• لا •• ان لدى من المشاغل مايصرفنى عن التفكير فى النقد والنقاد • ولكن مقالك بدا لى عجيبا •• كان مفعما بالغضب الى درجة أثارت عجبى •• اننى جد آسفة لان كتابى أثارك الى هذا الحد ! »

وضحكت ثانية ، ورمقتنى بنظرة صريحة ، فشعرت بأننى أحمق غبى •• فلم تكن تلك المرأة بوجهها الصافى ، وصوتها العذب ، ونفسها الهانئة ، تشبه فى شىء تلك الصورة التى تخيلتها عليها !•• والتقت عيناى بعينى لوتشيو، فلمحت فيهما نظرة ساخرة ، فازددت ارتباكا • وحدث اذ ذاك ماحول انتباهنا عن الموضوع ، اذ ولج الكلب الصغير الحجرة ، فما أن رأى لوتشيو حتى كشر عن أنيابه ، وراح ينبح بشدة !•• وعجبت صاحبته ، فهتفت : « ماذا جرى ياتريكى ؟ » •• وحدجت لوتشيو بنظرة ثاقبة ، ثم قالت : « ماعهدته يسلك هذا المسلك •• لعلك لاتحب الكلاب ياسيدى الامير ؟ » •• فأجابها : « بل أظن ان الكلاب هى التى لاتحبنى ! »

ولاحظت ان نظراتها الجميلة كانت لاتفتأ تحط على ملامح لوتشيو المليحة ، فى دهشة وعجب • وعادت تحدثنى عن النقد والنقاد ، ثم دعتنى لترينى نقادها ، فعجبت مما كانت تعنى ، وتبعتها الى الحديقة وانا فى حيرة ذهنية ، وقد قلب تصرفها غير المتكلف وصراحتها الفاتنة كل ما كان برأسى من أفكار عن

« الاناث المسترجلات » ! ٠٠ كانت بمواهبهـا الفكـرية امـرأة خليقة بالحب ٠٠ **اواه يامافيس ! ٠٠ اننى لاهمس باسمك فى وحدتى، وأراك فى أحلامى، وأركع أمامك فأدعوك بـ «ملاكى»! ٠٠ الملاك الذى يقف على باب نعيمى المفقود ، يلوح بسيف العبقرية فيمنعنى من الاقتراب من شجره حياتى التى ضيعتها !**

* * *

◆ **ولم** نكد نصل الى الحديقة ، حتى وقع حادث كاد ينتهى أسوأ نهـاية ٠ فان الكلب الكبير لم يكد يرى لوتشـيو ، حتى زمجر بصوت رهيب وانقض فى وحشية عليه ٠ وبحضور بديهة ورباطة جأش يثيران الاعجاب ، امسك لوتشـيو عنق الكلب بقبضة حديدية حتى اضطره الى التراجع ٠ وشحب وجه مافيس وسألته ان يطلقه ، فأفلته لوتشيو من قبضته ، واذ ذاك ارتمى الكلب على الارض وزحف الى قدميهـا ٠ وتطلعت مافيس الى لوتشيو متمتمة : « لشد ما انا آسفة ٠٠ لقد نسيت ماانبأتنى به من ان الكلاب لاتحبك ، ولكن ، اى عداء عجيب هـذا ! ٠٠ اننى لا افهـم شيئـا ، فان « امبـيرور » كلب أليف ، هادىء الطباع ٠٠ ان هذا حادث نادر ! »

وغابت مافيس دقيقتين ، نقلت خلالهمـا الكلب الى داخـل الدار ، فقلت للوتشيو : « يبدو ان كلبيها رفيقان غير لطيفين » ، فقال : « **بل هما أمينان ، اعتـادا صراحة سيدتهمـا ، ومن ثم احتجا على أكذوبة تجسدت شكل آدمى! ٠٠ ان هذه المرأة المتوجة بالمجد ، حقيقة صادقة مجسدة ، فلا عجب فى انهـا حظيت بالشهرة ٠ أما أنا فأكذوبة حية ، وانى اذ أدرك هذا وأقر به ، أشعر بأننى أكثر أمانة من الطراز العادى من البشر !** »

وما لبثت مافيس ان اقبلت ، وقد استعادت رباطة جأشها ، ولطفها ، فراحت تتحدث الى كلينا فى بشر ، وهى تقودنا خلال الحديقة حتى انتهت بنا الى ساحة مرصوفة ، يتوسطهـا برج

حمام ، فصفقت بيديها ، واذا بسرب من الحمائم المتباينة الالوان ، يجيب النداء ، فيحوم حول رأسها ، ويحط أفراده عند قدميها ٠٠ وقالت ضاحكة : « هؤلاء هم نقادى ؟٠٠ منها ما أعرفه وأطلق عليه اسم الصحف التى يكتب فيها بعض نقادى ، ومنها مالا يحمل اسماء ٠٠ هل رأيت نقادى الآن ؟٠٠ انهم كثيرون ! »

وقالت وهى تودعنا : « آمل وقد التقينا ـ يامستر تمبست ـ ان لاتعود راغبا فى ان تمثلك حمامة ! » ٠٠ فقلت فى اخلاص صادق : « اؤكد لك يامس كلير ـ بشرفى ـ اننى جد آسف اذ كتبت ذلك المقال ٠٠ لو اننى عرفتك اذ ذاك ٠٠ لكم وجدتك تختلفين ، أشد الاختلاف ، عن أهل الادب المعهودين ! »

ـ يسرنى ان وجدتنى كذلك ٠٠ فالواقع ان اهل الادب يسرفون فى الاعتداد بأنفسهم ، وفى اضفاء الاهمية على انتاجهم ، ومن هنا يغدون ثقلاء على النفس !٠٠ أما انا ، فيسعدنى ان أجد مسكنا ـ ولو كان حقيرا ! ـ ألوذ به لاواصل الكتابة !٠٠ لقد كنت يوما جد فقيرة الى درجة لاتتصورها ٠٠ ولست الآن غنية ، ولكنى اوتيت مايمكننى من مواصلة العمل كما ينبغى ، وكان من المحتمل ان أميل الى الكسل والاهمال لو اننى آوتيت أكثر من ذلك ، ومن ثم يتسلل الشيطان الى حياتى !

فقال لوتشيو وهو يثبت بصره عليها : « أظنك اوتيت من القوة مايكفى لمقاومة الشيطان ! » ، فقالت مبتسمة : « لست أدرى ٠٠ انما أتصوره شخصية فاتنة الى درجة خطيرة !٠٠ ماتصورته قط بحوافر وذيل ، فان ادراكى يؤكد لى ان شخصية بهذا الشكل لاتملك ان تجتذب اليها أحدا ٠ ولعل فكرة « ميلتون » عن الشيطان هى الصحيحة ، اذ تصوره ملاكا قديرا تردى وسقط ! »

وران الصمت فجأة ٠ وما لبث لوتشيو ان قال فى رقة ناعمة : « وداعا يامافيس كلير ! » ٠٠ وكان صوته متهدجا ، ووجهه

مكفهرا ، ممتقعا . وتطلعت اليه المرأة فی شیء من الدهشة ، فقال فی رفق : « احرصی علی ان تظلی دائما كما انت ، فلا تدعی شيئا يحولك عن طريقك !.. احتفظی بطبيعتك المشرقة ، وبقناعتك الصادقة .. لقد رأيت الدنيا ، وذهبت فی أسفاری بعيدا ، وقابلت كثيرين من المشهورين والمشهورات ، من ملوك وملكات وشعراء وفلاسفة ، فاكتسبت تجارب متباينة وخبرة واسعة . **لذلك فلست ألقی القول علی عواهنه اذا أكدت لك ان الشيطان ، الذی استطعت ان تتحدثی عنه بهذا الاشفاق ، لايمكن قط أن يعكر صفو روح نقية قانعة مثل روحك !.. ان الطيور علی أشكالها تقع ، والملاك الساقط لايرافق الا أولئك الذين يجدون لذة فی تعاليمه وصحبته !** »

وسألنی لوتشيو أثناء عودتنا : « هل أحببت غريمتك ؟ » ، فقلت : « أجل .. وأحببت كتابها ، وكان هذا هو الذی أوحی الی بأن أتحامل عليه !.. لقد حسدتها علی مقدرتها ، وما زلت أحسدها . ولقد أوغرت شهرتها صدری ، فحاولت ان آسیء اليها ، ولكنی لن أفعل شيئا من هذا القبيل بعد اليوم . لقد وعيت هذا الدرس وحفظته عن ظهر قلب ! » .. فحدجنی بنظرة فاحصة وقال : « ماهو الا واحد من دروس كثيرة ستتعلمها .. هذا درس الشهرة ، وسيكون الدرس التالی فی الحب ! »

* * *

أخذت الاستعدادات لزواجی تجری علی قدم وساق .. وانهالت الهدايا مدرارة علی « سيبيل » وعلی . ولقد كان كل امریء يدرك مدی ثروتی وعدم حاجتی الی أشياء ثمينة ، ومع ذلك فان أولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم «أصدقاءنا» راحوا يتنافسون فی تقديم أغلی الهدايا وأثمنها . وكنت أدرك — بالطبع — سر هذا الاسراف السخی ، فماكانت هداياهم سوی

رشوة لكى ندعوهم الى حفلة زواجنا ، ثم الى مآدبنا وحفلاتنا فيما بعد .. فضلا عن انهم كانوا يطمعون فى الافادة من مكانتنا الاجتماعية ، ولعلهم كانوا يطمعون فى ان نقرضهم مالا فى الملمات !

وكانت « سيبيل » تستعرض الهدايا فى غير اكتراث ، ولكنها أكدت لى اعجابها بالمجوهرات الانيقة التى قدمتها لها ، كما لاحظت انها أعجبت كثيرا بالهدية التى قدمها لوتشيو .. وكانت تحفة رائعة : حزاما على شكل ثعبان صنع جسمه كله من الزمرد النادر ، كما صنع رأسه من اليواقيت والماس . وكان مرنا ، فما ان أحاطت به سيبيل خصرها ، حتى بدا كأنه ثعبان حى ! .. ولم أعد أرى لوتشيو كثيرا فى تلك الفترة ، اذ شغلت بالاجراءات القانونية التى اقتضاها نزولى عن نصف ثروتى لعروسى .. ولم يكن يعكر هنائى سوى شعورى بأن « سيبيل » كانت تعتبر نفسها كمتاع أو جارية أصبحت ملك يدى !

وفى تلك الاثناء ، كان كتابى قد توارى عن انتباه الرأى العام . وأصدرت رواية أخرى ، أحطتها بضجة مفتعلة ـ كتلك التى أحطت بها الكتاب السابق ـ ثم توارت هى الاخرى عن الاذهان . وشعرت بأن تل الذهب الذى كنت أجلس على عرشه ينأى بى عن معبد الشهرة !.. أدركت اننى فشلت ، وان فشلى كان ذريعا . وكان أنكى مافى الامر أن أخال أحيانا ان المجد كان قمينا بأن يدين لى ، لو اننى ظللت فقيرا !

ولم يدخر لوتشيو وسعا فى اعداد العدة للحفلة التى اقترح اقامتها فى (ويلوزمير) قبل الزواج ، ووجه الى علية القوم ثمانمائة دعوة ، فما لبثت الحفلة المرتقبة ان أمست حديث المجتمع كله . ولم يبادر الى الاعتذار سوى نفر قليل ، كانت مافيس كلير من بينهم ، الامر الذى أحزننى !.. ولم أكن أدرى شيئا عن تدبيرات لوتشيو ، اللهم الا انه عهد بكل شىء الى

شركات وفنانين من فرنسا،قائلا ان الانجليز لايستطيبون فى مثل هـذه المناسبات ماهو آنجليزى !٠٠ وما لبثت ان رحلت معه بعد ظهر اليوم الحادى والعشرين من مايو الى (ويلوزمير) لاتفقد ما أعد للحفلة ٠٠ فاذا القصر حافل بالخدم ، وقد ازدان بأبدع الزينات ، حتى لقد رحت أجوس خلاله وانا نشوان !٠٠ وفى قاعة الرقص ، أقيم مسرح صغـير ، أنيق ، ذو ستـائر من القصب ، نقش عليه قول شكسبير : « الدنيا مسرح ، وما كل الرجال والنساء سوى ممثلين » !

وقال لوتشيو : « لقد أعددت بضع لوحات جية ٠٠ فان علية القوم فى أيامنا هذه يسأمون سريعا ! » ٠٠ فقلت بعد ان تفقدت كل شىء وخرجت الى الحديقـة : « كأنى بك اعددت كل شىء بقوة السحر يالوتشيو » ، فأجاب ضاحكا : « انه المال ياعزيزى ٠٠ المفتـاح الذى يفتـح الابواب فى وجـه الشـيطان ! » ٠٠ وضحكت ٠ وفجأة ، لاحظت انه يتأملنى مليا ، فلما التفت اليه، ابتسم قائلا : « **كنت أفكر فيما كان يحتمل ان تفعله فى الحياة لو لم ترث هذه الثروة ، ولو لم أعترض طريقك** »

ـ لاشك فى انه كان مقضيا على بأن أموت جوعا ومسغبـة اذ ذاك !

ـ بل يخيل الى ان من المحتمل انك كنت تصبح كاتبا كبيرا ٠٠ فلقد قرأت كتابك فوجدت فيه آراء بديعة ٠٠ آراء نبعت عن عقيدة مخلصة ، وكان خليقا بها ان تصل الى الناس ، لانها سليمة !

واستأذن فى ان يتفقد بعض الاعمال التى كانت تجرى فى داخل القصر ، فسرت وحيدا فى الحديقـة ٠ وكانت السمـاء صافية ، متألقة ، فوجدتنى أغادر الحديقة ، وأخطر على مهـل نحو كوخ مافيس كلير ٠ وكنت أدرك انها غائبة ، فخيل الى ان كل شىء كان يرهف السمع مترقبا خطواتها فى عودتهـا ٠ وأرهفت آلسمع بدورى ، فما لبثت عيناى آن اغرورقتا بالدمع

فجأة .. كان من العجيب ان لا أفكر في خطيبتي في تلك الليلة، وأن أتمثل وجها غير وجهها .. وجها ليس بالجميل ، ولكنه عذب ، يشرق ببريق ينبعث من عينين لطيفتين ، وادعتين ، بريئتين !.. وأحسست بشيء يطوف ببالي .. شيء حزين ، لم أوت بلاغة تمكنني من وصفه !

وعدت وئيدآ الى القصر . وفيما كنت أقترب ، رأيت خلال الاشجار ضوءا احمر يومض في احدى نوافذ الطابق الاعلى ، كأنه النجم الثاقب .. وما ان غشيني النعاس في تلك الليلة ، حتى تمثلتني في المنام فقيرا ، ولكني موفور السعادة ، أعمل دائبا في مسكني القديم ، وأسجل خواطري التي ألهمني وحي خفي بأنها ستحمل العالم كله على أن يمجدني !.. وتناهت الى سمعي انغام الكمان التي كانت تنبعث من الغرفة المجاورة في مسكني القديم ، ولكنها كانت في هذه المرة خالية من كل أسى ، حافلة بالفوز والفرح .. ورأيت روحا مقبلة عن بعد ، لها وجه مافيس كلير !

★ ★ ★

◆ **كان** يوم الحفلة من أبدع الايام ، فقد كان الجو صحوا ، جميلا ، وكانت عروسي أرق ماعهدتها معاملة لي ، وتفانيا في اسعادي . وفيما كنا في خلوة بالحديقة ، حانت منها التفاتة الى مداخن كوخ « مافيس كلير » ، فرويت لها ماكان من زيارتي ولوتشيو للكاتبة . وامتقع وجه « سيبيل » وانتابتها رجفة غريبة ، عندما ذكرت لها انني لم أر صديقي يبدي احتراما وتوقيرا لامرأة كما أبدى لمافيس !.. وخيل الى أن شيئا من رطوبة الاصيل قد سرى اليها ، فدعوتها الى داخل القصر ، ولكنها قالت في لهجة حالمة : « بل لنبق .. اذن فصديقك الغريب الاطوار .. كاره النساء .. وجد في مافيس كلير مايستثير اعجابه ! لابد انها مخلوقة جد سعيدة .. فهي حرة

طليقة ، مشهورة ، تؤمن بكل مافى الحياة والانسانية من خير، كما توحى كتبها ! »

وما ان غربت الشمس ، حتى كان الضيوف قد انتشروا فى جنبات الحديقة ، حيث دار عليهم خدم أنيقون ، يوزعون نسخا من برنامج بديع الالوان ، كتب عليه « لوحات حية » . وأسرع الكثيرون الى القاعة التى أقيم فيها المسرح الصغير ، وابتدأ البرنامج بعزف على « الفيولونسيل » بهر الجميع ، ثم انبعثت أنغام مجموعة من الكمان ، تخللها صفير « الفلوت » .. وانبعث رنين جرس فضى صغير . **ثم رفعت الستار عن لوحة اسمها « المجتمع » ، تمثل أنثى بديعة القوام ، فى ثوب غال للسهرة ، وقد كلل شعرها بالماس ، وتألق صدرها بالاحجار الكريمة ، وانفرجت شفتاها بشكل يثير الحواس !.. وكانت فى احدى يديها كأس من الشمبانيا ، وفى قدميها نعلان من ذهب .. وفى ذيلها امرأة تعسة ، انكمشت فى اسمال بالية ، والجوع يتجلى على محياها ، بينما استلقى الى جوارها طفل ميت .. وخيم على المنظر شبحان ، أحدهما احمر اللون ، والآخر أسوده ، يمثلان الفوضى والموت !**

وتوالت اللوحات ، والقوم ممسكون أنفاسهم ، مبهورون لروعتها .. كانت تمثل روح العصر ، وعيوب البشر ، فى صور رمزية رائعة !.. وما أن انتهت اللوحة الاخيرة ، حتى نضا الناس عنهم الاسى الذى بعثته المناظر فى نفوسهم ، وأسرعوا الى الحديقة فاذا بها تتلألأ بالاضواء والزينات ، واذا بسرب من الكواعب الحسان يرقصن على أنغام موسيقى خفية ، ويلوحن بعصابات فضية رصعت بنجوم كهربائية .. وكان المشهد غريبا ، حتى خال القوم ان الراقصات من الحوريات أو من الجنيات! ولقد رغبت فى أن أرى الفتيات ، ولكن لوتشيو أبى .. وما لبثت البرامج السحرية الفاتنة أن انتهت ، فدعا لوتشيو الحضور الى شرب نخب العروسين .. ثم انفض الجمع نى

مرح وصخب ضاحك ، وخف الخدم الى مرافقة الضيوف الى العربات ، فى أرقى مسلك نم عن حسن اختيارهم وتدريبهم

واذ عدت الى القصر بعد أن ودعت « سيبيل » ، وجدت لوتشيو فى غرفة التدخين ، وقد بدا وجهه شديد البياض ، يشى بتعب مرهق ، فقلت : « انك مريض ولا ريب يالوتشيو» ٠٠ ولمحت جسده يرتعد ، ولكنه أجاب بصوت أجش مضطرب: « لا تجزع ٠٠ انها نوبة مرض مزمن ، نادر بين البشر ، ولا سبيل الى الشفاء منه ! » ، فلما ألححت عليه ليذكر هذا الداء ، قال بنفس الصوت المكدود : « **انه الندم ٠٠ الداء الذى لايجدى معه طب ولا جراحة !** »

* * *

◆ **وقبل** أن تكف الصحف عن الحديث عن روعة الحفلة التى بهرت المجتمع كله ، استيقظت ذات صباح فاذا اسمى على كل لسان ، لا لنبوغ فلسفى أو علمى ، ولا لخدمات سياسية أو اجتماعية ، وانما لان جوادا أملكه فاز فى سباق « الديربى » !٠٠ وما كنت أعلم شيئا عن الجواد ، سوى ماسبق ان ذكره لى « لوتشيو » عرضا من أنه ابتاع لى جوادا اسمه « فوسفور » ، حرص على تكتم أمره ، وعين تابعه «امييل» ليكون « الجوكى » الذى يقوده يوم السباق ٠ وكان فوز الجواد على جواد ولى العهد حدثا هز المجتمع ، حتى ان أمير ويلز دعانى اليه ، وهنأنى بنفسه !٠٠ ولم تذهلنى الارباح الطائلة التى فزت بها ، وانما أمضنى ان أحظى ـ أنا جوفرى تمبست الذى كان يوما كاتبا يحاول ان يشق طريقه جاهدا ـ بمثل هذه الشهرة ، أو ماكان المجتمع يعتبره شهرة ، فى النهاية !

وقال لوتشيو اذ انصرفنا من ميدان السباق : « يعجبنى فيك ياجوفرى ان لك ضميرا حيا يثور ضد الغش والزيف ٠

فلماذا لا تفسح له الطريق ؟ » . فسألته : « أتقصد ان أقول للكاذب انه كاذب ، وللسارق انه سارق ، فيصب على الجمهور نار غضبه ؟ » .. ولكنه أجاب : « لن تكون نارهم أقوى من نيران جهنم ان كنت تؤمن بها !.. اليك نصيحتى ياجوفرى : افسح الطريق للجانب النبيل من طبيعتك ، ولا تجعل ادراكك السامى لما هو صواب وحق ، ضحيةلقوة أو نفوذ أى انسان.. وافترق عنى !.. اننى غير ذى نفع لك ، اللهم الا فيما يرضى أهواءك ونزواتك !.. صدقنى اذا قلت ان من دواعى راحة نفسك ، اذا حانت ساعة الموت ، ان تطلق كل هذا الترف والزيف .. وان تفارقنى !.. دع المجتمع لصخبه وحماقاته ، وافعل بما قاله المسيح : بع نصف ما لديك واعطه للفقير ! »

وانقضت الايام سراعا ، وحان يوم الزفاف . وكان لوتشيو شبينى ، فلما بلغ معى الكنيسة ، قال متضاحكا ، متظرفا : **« هل سمعت ماقيل من ان الشيطان لايلج كنيسة ، لان الصليب يقوم عليها ؟.. انهم نسوآ نقطة مهمة ، وهى ان الصليب قد يكون موجودا بالفعل ، ولكن القسيس موجود كذلك .. وحيث يوجد قس ، يكون الشيطان فى أعقابه ! »** .. وما ان تمت مراسم الزواج ، حتى قال لوتشيو للعروس: « خليق بى ان أمارس تقليدا قديما ! » ، وطبع على وجنتها قبلة ، فاذا الدماء تغيض من وجهها ، وتهالكت فى أحضان احدى وصيفاتها . حتى اذا استردت وعيها ، استهجنت ماتبدى على من قلق ، وزعمت أن الحر والزحام ارهقاها !

* * *

◆ لم ألبث - بعد الزواج - ان شعرت بأننى لست سعيداء اذ كانت علاقتى بسيبيل لاتتجاوز رباط الجسد . أما الانسجام

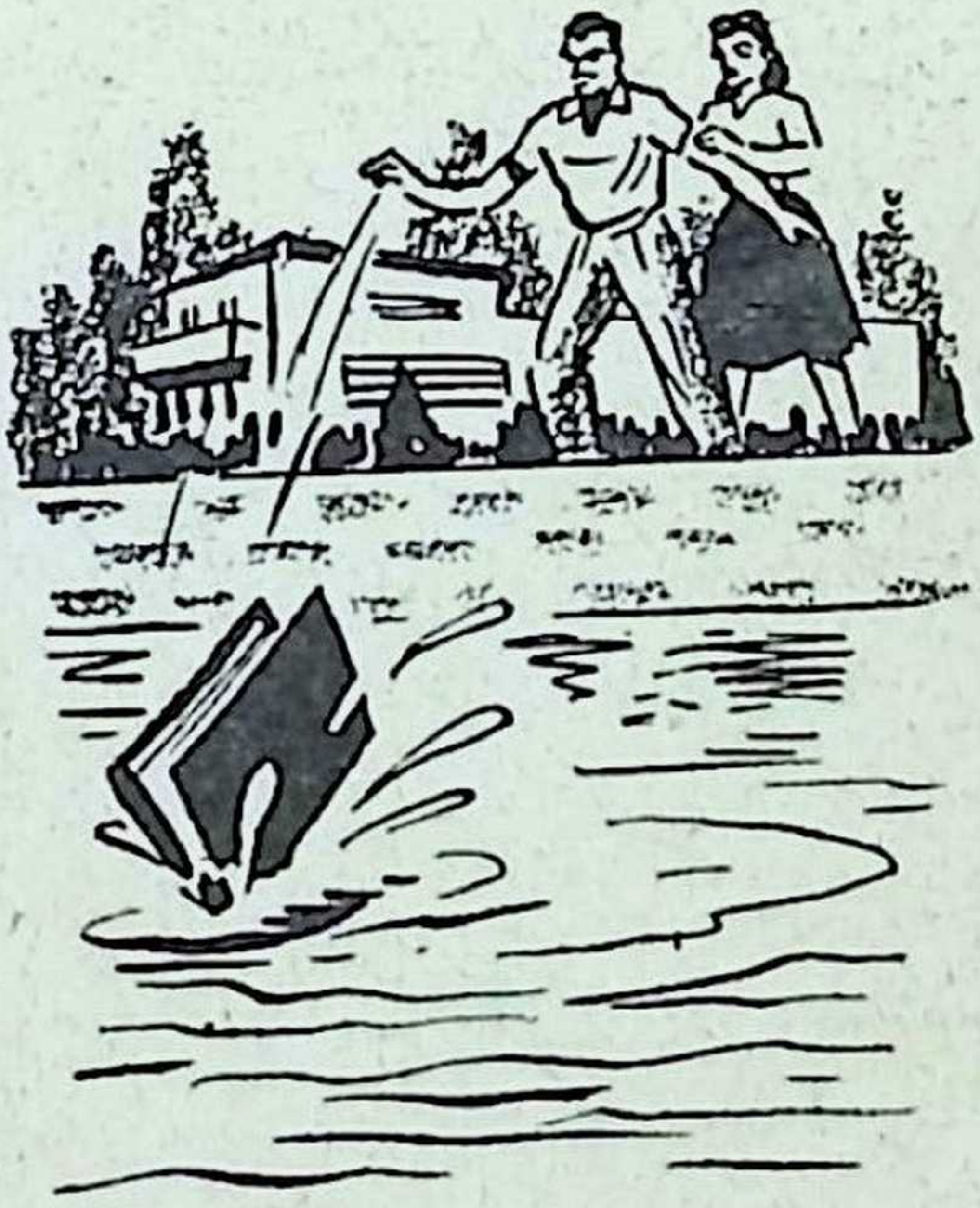

الروحى والفكرى فلم يكن له وجود . وأيقنت اننى كنت أهلا لهذا الشقاء ، فأنا الذى اخترت العروس بنفسى ، وقد فتننى جمالها الظاهرى .. ولست أدرى السر فى ان فكرى كان يهفو الى مافيس كلير ، كلما فكرت فى السعادة !

وحدث ان وجدت سيبيل يوما - فى « الفيلا » التى استأجرناها لتمضية شهر العسل على ضفاف احدى البحيرات - مستغرقة فى قراءة كتاب رخيص لمؤلفة متبذلة ، فانتزعت الكتاب من يدها ، وطوحت به الى البحيرة !.. وعندما هدأت ثائرتى ، تحولت أعتذر لها ، واسألها لماذا لاتقرأ كتب مافيس كلير ، فقالت : « لقد قرأتها كلها مرارا .. ولكن ، كيف تستطيع هذه المرأة أن تستبقى قلبها وايمانها - كما كانا فى عهد الطفولة - فى عالم كعالمنا ؟.. اننى أقرأ لمافيس كلير حين أهفو الى الشعور بأننى ملاك ، ولكننى فى أغلب الأحيان أشعر بميل الى شعور مناقض ، واذ ذاك أضيق بكتبها !.. **فما أشد الضيق الذى تعانيه حين تجد شخصا يؤمن بالله ليس فى وسعك ان تؤمن به .. وأن تجد عقائد جميلة تقدم تحت ما لا تستطيع ان تمد قبضتك لتناوله .. وان تعلم ان هناك مخلوقا مثلك - لايفرقه عنك سوى العقل - يحظى بسعادة لن تنالها قط ، ولو قضيت الليل والنهار رافعا كفيك تدعو السماء !** »

وتمنيت اذ ذاك لو انها سعت الى أن تقترب منى بنفسها

وفكرها وروحها وعواطفها ، ولكنهـا قالت فى قنوط : « ان حبك لى ليس حبا شاعريا ، وانما هو حب انسان ، بكل مافى حب الانسان من حيوانية !٠٠ انك لاتملك الا أن تكون وضيعا، لانك رجل ٠٠ وانا وضيعة لاننى امرأة ٠٠ ولعلنـا اذا آمنا بالله ، اهتدينا الى حياة تخالف هذه الحياة ، وحب يتباين عن هذا الحب !٠٠ ولكن ، لا تبتئس ياجوفرى ، فهكذا هو الزواج فى أيامنا : رابطة لا تحتمل الدوام ، وفى وسعنا ان نفعـل كسوإنا ، فنتظاهر أمام الناس بأننا زوجان مثاليان ! »

وكانت اذ ذاك متكئة الى صدرى ، فوددت لو خنقتها ، اذ بدت لى كحشرة سامة ، أو خفاش من الخفافيش التى تمتص دماء الانسان !!

وعدنا بعد رحلة شهر العسل الى (ويلوزمير) ، فكان أول ما حرصت عليه هو ان أجمع بين سيبيل ومافيس كلير ، عسى أن تأخذ الاولى عن الثانية شيئا من سمو فكرها وعواطفها ٠ على اننى لم أكد أرى مافيس بثوبها البسيط الانيق ، ووجهها الملائكى ، حتى ثرت على خستى اذ تحاملت يوما عليهـا !٠٠ ولعنت لوتشيو ــ الذى كان اذ ذاك فى بطرسبورج ــ اذ كان صاحب الفضل فى زواجى التعس !٠٠ ولم أتمالك ان رحت أقارن بين المرأتين : كانت مافيس روحيـة ، طاهرة النفس ، سامية الاهداف ٠٠ وكانت سيبيل وضيعة ، تافهة !

وكنا فى غرفة مكتب مافيس ، فدعتنا الكاتبة الى الحديقـة لتناول الشاى ٠ وفيمـا كنت أبرح الغرفة ، استرعى نظرى شىء لم أكن قد لاحظته من قبل ٠ كان ثمة مصباح صغيرموقد فى أحد الاركان ، وفوقه صليب عاجى ناصع ، على قاعدة من المخمل الاحمر الداكن ، بينما قامت تحت المصباح ساعة كتب حولها : « الآن هو الوقت المناسب » !٠٠ وكانت حروف كلمة « الآن » أكبر من سواها !٠٠ **كان هذا شعار مافيس : «الآن» ، فلا تبدد لحظة ، وانما اعمل ، و صل ، واعقد الامل ، واشكر**

الله ، وابتهج .. ولا تأس على الماضى ، أو تقلق على المستقبل، وانما افعل خير ماتستطيع و دع ما بقى لله !

ولحقت بالمرأتين فى الحديقة ، فابتدرتنى زوجتى قائلة : « ان لمس كلير فكرة راسخة ياجوفرى ، تنفرد بها دون سواها .. انها غير معجبة بالآمير ريمانيز كبقية الناس ، بل انها لتصرح بأنها لا تميل اليه » . وتضرج وجه مافيس ، وتمتمت: « من الخطأ أن يجهر الانسان بما يجول فى نفسه . اننى أعرف انه من أعز أصدقائك يامستر تمبست ، وقد كان لمظهره – حين رأيته لاول وهلة – أثر عظيم فى نفسى ، ولكننى حين درسته بعد ذلك ، داخلنى اعتقاد بأنه ليس كما يبدو ! » .. وتطرق بنا الحديث بعد ذلك عن النقاد ، فذكرت مافيس كيف انها كانت تحسن الى بعض الصحفيين والكتاب ، فيردون لها الاحسان اساءة وحملات مغرضة !.. وعجبت سيبيل حين عرفت ان هذا العقوق لم يكن يصد مافيس عن المضى فى الخير !.. وفيما كنا فى طريق العودة ، قالت سيبيل : « الآن فهمت سر كراهية البعض لمافيس كلير .. بل أخشى انآكون قد بدأت أكرهها ! »

وتوقفت ، فحملقت فيها مذهولا ، اذ كانت منذ لحظات تعرض على مافيس صداقتها .. ولكنها عللت ما خالجها من كراهية بقولها : « **لانهاسعيدة .. لان حياتها خلو من الفضائح. ولانها قانعة !.. انها تؤمن بالله ، وترى فى كل ما يامر به خيرا ، وهى بهذا الايمان الوطيد تستطيع ان تسعد فى أحقر المساكن ، ولو لم يتجاوز دخلها بضعة بنسات فى اليوم . أليس بوسعك ان تتصور أن الشرير يكره الطيب ؟.. وان الفاسدة تكره العذراء البريئة ؟!** »

* * *

• **وحدث** ان دعوت آمير ويلز الى (ويلوزمير) ، فقبل

الدعوة .. وكان من الطبيعى ان يختار ضيوف القصر فى فترة وجوده ، وقد فكرت فى دعوة مافيس كلير ، وانا موقن من إنه لن يعارض ، ولكنها اعتذرت وسألتنى أن أعفيها من هذا الحرج . على أن الامير أخـذ يتردد خلال مقامه على كوخها الهـادىء المطمئن . وما ان رحل الضيوف الملكيون ، حتى ساد القصر وجوم كئيب ، أوحى الى والى سيبيل بشـعور من التوجس ، وكان ثمة نذيرا بنكبة .. وكان من الواضح أن زوجتى كانت تعانى ماكنت أعانى من هم واكتئاب !.. وفى احدى الامسيات، قالت لى : « لقد خطر ببالى ان فى الحيـاة بعض نواح طيبة ، برغم كل شىء ، واننى اذا عثرت عليها ، وعشت فيها سعدت .. ولكنك آخر من يساعدنى فى هـذا السبيل .. لقد كانت أفكارى وآرائى تثير اشمئزازك ، فمـاذا فعلت ـ بوصفك زوجى ـ لكى تحولها ؟.. أليست تسـاورك عن النزوات الدنيئة التى تساورنى ؟.. هل حفلت يوما بأن تسألنى عن سر ما بى ؟.. **هل حاولت ـ فى صبر المحب الصادق ـ ان تقيم أمامى أهدافا أسمى من تلك التى اتجهت اليها من قبل ؟ .. هـل حاولت ان تقودنى ، وأنا المرأة المخطئـة ، الآثمة ، الضالة ، الى الضوء الذى أحلم به .. ضـوء الامل والايمان الذى يبعث فى النفس السكينة ؟ »**

ودفنت وجهها فى وسادة الاريكة التى كانت تجلس عليها ، وانخرطت فى بكاء أليم . ووجدتنى مشدوها ، حائرا أمامها ! .. وقبل ان استجمع شتات ذهنى ، بدا فى فراغ البـاب شبح طويل ، وسمعت صوتا أليفا يقول : « هـل لى ـ بحق الصداقة ـ أن أدخل دون استئذان ؟ » .. وقفزت صـائحا : « ريمانيز ! » .. وأمسكت بيده ، ولكنه سـحبها قائلا : « لا ياجوفرى .. ان تحيتى الاولى يجب ان تكون لزوجتك ! » .. وتهللت سيبيل فجأة لمرآه ، وهتفت : « ليس بوسعك ان تتصور كم كنت مشوقة لرؤيتك ؟ » .. وأخذ لوتشيو يشرح

كيف انه وصل فى اليوم السابق الى انجلترا على ظهر يخته ، فجاء لفوره بالقطار دون ان يخطرنا ، ثم شاء أن يفاجئنا دون أن يعلن مقدمه رسميا عن طريق الخدم

و مضت ايام هادئة ، ولكننى رغم استمتاعى بها كنت أشعر بأن هدوءها يسبق نكبة أو كارثة • وكنت قد طرحت همومى وأفكارى جانبا ، ولم أعد أحفل بغير راحتى وارضاء نفسى ، وتجديد أواصر الود مع لوتشيو • واقترب الخريف ، ولكن الطقس ظل بديعا • وفى احدى الليالى ، رأيت مشهدا غريبا بين مافيس كلير - التى كانت قد تناولت العشاء على مائدتنا - وبين لوتشيو • اذ كنت قد خرجت أتمشى فى الحديقة بعد العشاء ، وفى عودتى ، سمعت صوتيهما ينبعثان من احدى الخمائل • ولم أتمالك نفسى من استراق السمع ، وقد رابنى أن يكون هذان الشخصان قد وقعا فى الهوى • وسمعت لوتشيو يقول لمافيس: « لقد سألتك يا مافيس كلير أن تسمحى لى بأن أخدمك •• انك عبقرية ، وهذه صفة نادرة فى النساء •• وما ينبغى أن أكون ما أنا هو حقا ، اذا لم أسع الى اغرائك على أن تسمحى لى بأن أساعدك ! » • وراح يمنيها بالثراء ، والمجد ، وبأن يسوق أعظم الرجال ليجثوا عند قدميها فتختار منهم من يروق لها زوجا !

وأرهفت السمع مشوقا الى جواب مافيس ، فما لبثت ان قالت : « ما اعتمدت على أحد من قبل فى شىء ، وانما ساعدت نفسي بنفسى ، وأوثر ان أظل كذلك ! لست أريد ان أكون غنية ! واذا أحاط بى المعجبون والمتملقون فلن يكون بوسعى ان أميز الصديق الصادق من الصديق الزائف ! ثم اننى لم أصب يوما الى نفوذ أو سلطان ، اللهم الا سلطان الحب • وكم من أناس أحبوا كتبى ، فأحبونى عن طريقها ، وانى لاشعر بحبهم وأبادلهم اياه دون حاجة الى معرفة شخصية !•• **واذا كان لى أعداء ، فاننى أغفر لهم ، ولن يضرونى فى شىء ، اذ ان انسانا**

ما لا يملك أن ينزلنى عن مكانتى ما لم أهبط أنا بنفسى ! »

وتحول لوتشيو يغريها بالحب : « بوسعى ان أمنحك الحب ‥ لا حبى أنا ، فأنا لا أحب أحدا ! » ‥ وارتجفت مافيس تحت ضوء القمر ، وقالت : « لماذا تتكلم هكذا ؟‥ من أنت ؟ ‥ اذا كنت ترى الحب والزواج هما كل ما يبعث السعادة فى المرأة ، فأنا لا أراهما كذلك !‥ اننى أحلم بالحب ، ولكن عدم تحقق أحلامى لم ينتقص من سعادتى ، فما كنت لأتذمر اذا كان الله قد أراد لى ان أكون وحيـــدة ‥ ثم ان كتبى وزهورى وطيورى لاتدعنى وحيدة ! » ‥واقترب منها ريمانيز حتى واجهها ، وقال : « هذا حق ‥ ألا تتذكرين انك رأيتنى من قبل ‥ هل وقعت عيناك على يوما ، منذ وقت بعيد ، وفى عالم من جمال ونور ، كان فيه كل منا غير ماهو الآن ! لشد ما ترتجفين !‥ لا تخافينى ، فمـا كنت لأوذيك ولو أعطيت ألف دنيا كهذه !‥ اننى أفكر فى أحداث غابرة ، سحيقة ، فيملأ الندم نفسى ويشوى روحى بما هو أقسى من النار !‥ اذن ، فلا مال الدنيا ، ولا نفوذ الدنيا ، ولا حب الدنيايغريك يا مافيس !‥ انك لمعجزة حية !‥ أترفضـين ان أعاونك ، اذن فخليق بى ان أسألك ان تعينينى ! »

وركع أمامها ، وتناول يدها فقبلها فى اجـلال ، ثم قال : « صلى من أجلى !‥ انك تؤمنين بأن الله يستمع لك ،وعندما أنظر اليك أشاطرك هذا الاعتقاد ، فصلى من أجلى ‥ من أجل واحد هوى من عليائه ، فراح يكافح ولكنه قد لا يقوى عـلى استعادة مكانته !‥ واحد يشقى تحت عقاب ثقيل ‥ويحاول ان يبلغ الفردوس ، ولكن ارادة الانسان اللعينة تستبقيه فى الجحيم !‥ عدينى بأن تصلى من أجلى ، فان هذا يقربنى درجة من المجد الذى ضيعته !‥ ان جرائم الرجال بقبحها وابتذالها ‥ ودناءات النساء وقسوتهن ‥ وجحود الابنـاء ‥ ونبذ الخير ، واستشهاد الفكر ، والانانية ، والجشع ، والشهوات ،

وكفر المخلوق بخالقه ٠٠ هذه هى أحزانى التى لا نهاية لها ! ٠٠ اننى لا أجرؤ على آن أذكر اسمى للغير ، ومع ذلك ، يشهد الله اننى لست أسوأ من أسوأ انسان حى ٠٠ اننى أغوى ، ولكننى لا ألاحق بالغواية ٠٠ ولقد حاولت اغواءك الليلة ، وان لم تدركى ، ولكنك نجيت نفسك من الشر كما تفعل أى نفس طيبة ، صادقة ٠٠ فوداعا ، ولن تريني في الحياة بعد الليلة !»

وتراجعت مافيس عنه ممتقعة الوجه ، ثم انسحبت فى بطء حتى اختفت بين الاشجار ، فحاولت بدورى ان أبتعد دون آن يشعر بى ، ولكنه نادانى قائلا : « لم لم تأت يامسترق السمع ؟! » ٠٠ ومضى يشرح لى ان العالم خاضع لسيطرة قوتين هما الحب والكراهية ، وما مشكلات العالم سوى نتيجة صراع هاتين القوتين ٠ وقال انه فى صف الكراهيـة ، وان كفتها هى الراجحة حتى الآن !

* * *

◆ **وفيما** كنت مستغرقا فى النوم ـ فى الليلة التالية ـ شعرت كأن يدا راحت تهزنى حتى أيقظتنى ٠ وتلفت بجوارى ، فلم أجد زوجتى ٠ وألفيتنى مسوقا الى خارج المخدع ٠٠ وعند نهاية السلم المفضى الى بهو فسيح ، رأيت منظرا جعلنى أمسك أنفاسى ٠٠ رأيت شبحا طويلا فى ضوء القمر المنساب من أحد المنافذ ، وسمعت همسا ، فغلى الدم فى عروقى ، وتسللت فى حذر هابطا السلم ٠ **وفجأة رأيت ماصعقت له ، فعضضت على شفتى ، وتواريت ٠ كانت زوجتى جاثية على الارض وقد تهدل شعرها ، ورفعت يديها فى ضراعة الى شبح معتم وقف أمامها ٠٠ وكان لوتشيو بعينه ! أفكانت زوجتى وصديقى يشتركان فى خيانتى ؟!**

وسمعتها تضرع اليه باكية : « اننى أحبك ، والحب يقتلنى ، فارحمني ! » ٠٠ ولكنه كان يصدها ـ كلما الحت في الضراعة ـ

قائلا : « كنت أعرف هذا دائما ٠٠ ان روحك الظامئة للدماء قفزت الى روحى لاول وهلة ! لقد كنت منذ البداية ضـالة فعرفت مولاك ! لقد تزوجت والكذب عـلى لسانك ! آقسمت أمام الله ان تفى لزوجك ، فى حين كانت الخيانة تملأ أفكارك، فقلبت النعمـة الى نقمة ولعنة !٠٠ اننى أكرهك ، وأكـره مثيلاتك من النساء ، لانكن تشعن الفساد فى الدنيا ٠٠ تقلبن الخير الى شر ، وتجعلن الرجال ـ بسحر أفخاذكن العارية ـ حمقى ، وجبناء ، ووحوشا ! » ٠٠ وهكذا مضى ينعتها بأقذع النعوت ، ويصارحها بأنها ماتزوجتنى الا لانني صديقه فكانت تأمل ان تتخذ منه عشيقا تحت ستار الزوجية !

واذ يئست من ان تلين قلبه ، انتضت خنجرا ـ كانت تخفيه فى طيات ثوبهـا ـ لتقتله وتنتحر ٠ واذ ذاك قفزت أحـول بينهما ، ولكن لوتشيو كان قد سبقنى فانتزع الخنجر وحطمه٠ واشتد بى الانفعال والهياج حتى اضطر لوتشيو الى ان يعطينى جرعه مخدرة

واستيقظت فى الصباح وقد عقدت العزم عـلى ان أهجر سيبيل ، فأرسلت لها مع وصيفتها رسالة شرحت فيها جرمها وخيانتها وما اعتزمته من هجرها ، وطمأنتها الى اننى نزلت لها عن القصر وعن نصف ثروتى ، لتعيش فى ارستقراطيتها !

ورحلت مع لوتشيو الى لندن ، فاقترح عـلى أن أسافر الى الهند حيث يتعزى أمثالى بصيد الفيلة ٠٠ أو الى مصر لاسرى عن نفسى بجمالها الساحر ، قائلا : « تعال فاقض الشتاء معى فى مصر ٠ لنرحل على يختى « اللهب » الى الاسكندرية ٠٠ ثم نمخر عباب النيل فى « ذهبية » ، وانس ان للنساء وجودا » ٠٠ وفيما كنا نتحدث فى الفندق ، وصلت برقية من مافيس كلير تدعونى الى العودة لامر خطير ، فرحلت على الفور

وأمام القصر ، كانت مافيس ـ بوجهها الملائكى وثوبهـا الابيض ـ في انتظاري ، فشدت علي يدى وهي تهتف : «هاقد

وصلت أخيرا .. حمدا لله ان جئت ! » .. ولكننى لم أمهلها ، بل سألتها عما جرى ، فعلمت أن الخدم وجدوا مخدع زوجتى موصدا من الداخل ، وعبثا طرقوا البـــاب ، ومن ثم هرعت وصيفة سيبيل الى كوخ مافيس تنشد عونهـــا ، فخفت الى القصر ، ونصحت الخدم بأن يحطموا الباب ، ولكنهم أبوا أن يتحملوا المسئولية ، ومن ثم أبرقت الى

وأسرعت أطرق البـــاب وأنادى سيبيل ، ولكن أحـدا لم يسمع حركه ما فى الداخــل . وكانت مافيس الى جـوارى ترتجف . فاستعنت بالخدم وكسرنا الباب . وظل الجميع فى الخارج – وكأنما صدتهم يد خفيه ، رهيبة – بينما اندفعت الى الداخل وأنا أهتف : « سيبيل ! » . ووجدتنى وحيدا فى ظلام دامس وقلبى يخفق فى عنف وشدة . وتقدمت فى الظـلام ، فخيل الى ان شبحا أبيض ، مضيئا ، رهيبا ، يبرز من جوف العتمة ، ويشير الى – وكأنه نذير مخيف – ان أتقدم . وتعثرت .. وعدت أنادى : « سيبيل ! » .. ثم فطنت الى ان زر النور الكهربائى كان الى جوار منضدة الزينة . وفيما كنت أتحسس طريقى اليه ، لمست يدى شيئا باردا كجسد ميت ، فاشتد ذعرى . وما ان بلغت زر النور ، حتى ضغطته فى انفعـــال عصبى . وفاض النور فى الحجرة .. وعلى قيد ذراع من المكان الذى وقفت فيه ، كانت سيبيل جالســة الى مائدة الزينة ، تحدق فى المرآة بعينين جامدتين .. وهى جثة هامدة ، متيبسة الاطراف !

وكان الى جوارها خطاب ذكرت فيه انها تجرعت ســما ، واعترفت بما كان منها ، ملقية على تربيتها « الارستقراطية » وعلى الطبقة الراقية – التى نشأت فى أحضانها – تبعة الشر والاثم اللذين كانا يسيطران على نفسها !

* * *

◆ لم يحزن المجتمع كثيرا موت سيبيل ، بل ان كثيرات من النسوة سرهن ان تخلصن من منافسة جميلة !٠٠ واستطعت بمالى أن أجعل الصحف تنشر انها ماتت اثر تناولها قدرا كبيرا من الحبوب المنومة سهوا ٠ وما ان تمت مراسم الدفن ، بعد جنازة فخمة ، حتى ذهبت لزيارة مافيس ، فتلقتنى مواسية ٠ واذ أطلعتها على رسالة سيبيل ، قالت : « لقد وقعت المسكينة فى أحابيل لوتشيو الخبيث ٠٠ انه الشيطان بعينه ، وسوف يوجه الآن هجومه نحوك ، فأبتعد عنه وقاطعه ! »

ولكنى لم أحفل بنصحها ، بل أسرعت اليه لنبدأ رحلتنا على ظهر يخته « اللهب » الى الاسكندريه ، بعد ان منحت « ايرل التون » قصر (ويلوزمير) وسرحت تابعى ٠٠ وان هى الا ايام قلائل ، حتى نشر اليخت الجميل أشرعته مقلعاً من ميناء (سوثهامبتن) — وقد رفرف على مقدمته علم قرمزى — وانطلق فى عرض البحر بسرعة لا يتصورها العقل ٠ ووقفت على ظهر اليخت أسرح البصر فى الفضاء والماء والسماء ، فاذا ذكرى الاحداث الماضيه تتوارد على ذهنى ٠وفيما كنت مستغرقا فيها، شعرت بيد تستقر على ذراعى ، فالتفت ، واذ ذاك التقى بصرى بعينى لوتشيو الساجيتين ٠ وقال لى : « أكنت تفكر فى زوجتك ؟٠٠لو ان لديك ايمانا ، لاطمأننت الى أنها الآن ملاك !» ٠٠ فهتفت ساخطا : « ملاك ٠٠ أو شيطان ؟!٠٠ اذا كان ايمانك يوحى اليك بهذا ، فأنا آسف لك !٠٠ أصدقنى القول: أتؤمن بالله ؟ »

ولم يجب لفوره ، ولكنه ما لبث ان رفع يده الى السماء ، قائلا : « انظر ، هذه بضع سحب سابحة فى السماء ، ولكنها تخيم على ملايين العوالم ٠٠ انها شىء غامض ، ولكنها حقيقة واقعة ! » ٠٠ وأشار الى البحر مستطردا : « وهنا آلاف الاشياء

التى لا يعرف البشر كنهها ، رغم أن المحيط جزء من الكرة الارضية .. وبين هاتين الطبقتين المطلقتين ، اللامحدودتين ، تقف أنت .. ذرة محدودة المعالم ، محدودة الامكانيات ، لاتدرى كم يمتد بك حبل العمر ، ومع ذلك فأنت تفكر بعقلك الكليل ، فيما اذا كنت - على ضآلتك التامة وعجزك - ترضى بقبول فكرة الله أو عدم وجوده ! »

- ولكن مسلكك أنت بالذات .. هل تؤمن بالجحيم ، وبالشيطان ، عدو الجنس البشرى اللدود ؟

و صمت برهة . ودهشت اذ شحب وجهه ، واكفهرت طلعته . وما لبث ان قال : « وكيف أومن بوجود الجنة اذا لم أومن بوجود الجحيم ؟.. أما عدو البشر اللدود ، فلو صدق نصف مايروى عنه لكان أكثر أهل الكون تقوى ، وأجدرهم بالعطف ! وما قيمة أحزان آلاف الملايين من أمثال الانسان ، اذا قيست بأحزان الشيطان ؟!.. ان استعذاب فعل الشر نزوة عابرة قاصرة على الانسان وحده ، ولو ان اللذة تنبعث من الشر لحقت الفوضى ، ولوجب على الرب ان يقضى على نفسه !.. لهذا أكرر ان للشيطان أحزانا لا سبيل الى حصرها. لانها - كالخلود - تحير الاذهان فى تعرف منتهاها !.. تصوره مطرودا من السماء ، يسمع عن بعد تسبيحات الملائكة الذين عرفهم وأحبهم يوما !.. تصوره يهيم فى فيافى الظلام ، يتفادى النور الربانى الذى كان يوما هواء وجوده وغذاءه !.. ثم تصور ان ضلال الانسان ، وأنانية الانسان ، وقسوة الانسان، هى السبب فى بقائه منبوذا من رحمة الله وعفوه !.. لا عجب اذن فى انه يمقت الجنس البشرى ! **لقد استطاع المسيح ان يفدى الانسان .. وبين بتعاليمه كيف يستطيع الانسان ان يفدى الشيطان .. فلو أخلص الرجال الوفاء لغرائزهم الروحية السامية الخالدة ، ولله الذى خلقهم ، فأصبحوا كراما ، أمناء ، مؤمنين ، غير أنانيين .. ولو غدت النساء طاهرات ، عفيفات،**

رقيقات ، محبات ، لتغير الشيطان وأصبح « ابن النــور » ، ولامتلأ قلبه محبة بدلا من الكراهية ·· ولكن الشيطان لايجد أملا فى فداء ، لان بنى البشر لايمكن ان يصــبحوا أتقيــاء صادقين ! »

* * *

◆ **لم** ينشرح صدرى الا عندما أقلتنا « ذهبية » على صفحه النيل · وكان بين البحـــارة موسيقيون بارعون ، كمـا كان لوتشـيو يغنى فى بعض الاحيـان بصوت عذب رخيم · وكان فى أحيان أخرى يروى لى بعض القصص عن قدماء المصريين ، راقت لى منها قصة عن ملك فرعونى كان يعيش مع محظيــة كلف بها ، وتيم بهواها · وكانت المرأة فاتنة ، ساحرة ، ذكيه ، نابغة مثل مافيس كلير ، فجعلت من البلاد جنة

وسألته مرة عن مصدر هذه المعلومات ، فأشـــار بيده الى ضفة النيل قائلا : « لقــد كانت تقوم فى هـذا الموقع بلدة فرعونية تسمى « المدينة الجميلة » · أفتحب ان تراها كمـــا كانت فى العهد الغابر ؟ » · واذ أبديت ارتيابا ، أكد لى ان بوسعه أن يرينى ذلك بالتنويم المغناطيسى · وبالفعـــل ، أمر بايقاف الذهبية ، وشرع فى تنويمى ، فما لبثت ان فقـــدت الحس بالعالم ، ثم انتبهت الى آلاف الانوار تضىء « المدينــه الجميلة » ·· واذا شوارع زاخرة بالرجال والنساء فى أبهى زينة ، واذا قصور نمت على سطوحها الزهور والرياحين ·· وتماثيل ضخمة للآلهة ·· وكهنة فى مســوحهم ·· وموكب حاشد فى شوارع المدينة تحف به الموسيقى · وأقبل فى أثر الموكب ملك يحيط به الاتباع والعبيد ، وخلفه محفة لم تلبث ان وضعت على الارض ، ثم خرجت منها ــ بين أضواء المشاعل ــ امرأة كأنها حورية من زبد البحر ·· وكانت محجبــة فلم أستطع ان أتبين ملامحهـــا ، فصرخت : « الا ارفعى القنـــاع ياروح المدينة الجميلة ، فانى أشعر اننى سأقرأ فى عينيك سر

السعادة ! » ٠٠ ولكن القناع لم يرفع ، وتحولت الموسيقى الى ضجيج ، ثم أحسست بأننى أهيم فى الفضاء ، أطارد الحوربه وهى تطير أمامى بجناحين ذهبيين !

وعندما أفقت ، علمت من لوتشيو ان ما رأيته لم يكن سوى ايحاء ٠٠ فقد عكس أمامى ما كان فى مخيلته من رؤى تتوسطها « محظية الملك » !

★ ★ ★

◆ وألح بى حنين غريب الى العودة الى انجلترا ، واشتدت بى هذه الرغبة بعد حادث وقع حين زرنا آثار الاقصر ٠ فقد كان العمل جاريا فى التنقيب بين بعض الاطلال ، حين اكتشف تابوت بداخله جثة امرأة ٠٠ وقال لوتشيو مترجما مانقش على التابوت بالهيروغليفية : « راقصه فى بلاط الملك امينارتس ، تعاطت السم - بأمر الملك - بسبب خطاياها ، وبسبب جرم خفى أفسد عليها حياتها ، وعكر صفو أيامها » !٠٠ وكانت المومياء توحى بأن الجثة لامرأة فى العشرين من عمرها ٠ **وعندما رفع آخر قناع عن وجهها ، كدت أصيح عاليا : « سيبيل ! » ، فقد كانت تشبهها كل الشبه !٠٠ بل ان عبير المومياء ذكرنى بالعطر الفرنسى الذى كان يفوح من غلالة سيبيل حين اكتشفت جثتها !**

وقال لى لوتشيو فى ذلك المساء : « لقد لاحظت جزعك اذ رأيت الشبه بين الراقصة وزوجتك الراحلة ٠٠ ولكن التاريخ يعيد نفسه ، فلا تدع هذا يؤثر فى أعصابك ! »

وأصبحت فى اليوم التالى مريضا الى درجة لم أستطع معها مبارحة فراشى ، فرأى لوتشيو المبادرة بالرحيل عن مصر ٠ وفى خلال الرحلة ، كنت قد فكرت فى أمرى ، فعزمت على ان أحصر ما لدى من ثروة ، وأن أتزوج من جديد ٠ وعقدت النية على ان لا تكون زوجتى فى هذه المرة سوى ٠٠ مافيس كلير ! ٠٠ وفى منتصف الليلة التى انتهيت فيها الى هذا القرار ، استيقظت فى منتصف الليل وقد خيل الى أن اليخت كان يحترق ٠ فلما هممت بالنهوض ، رأيت سيبيل تقف أمامى فى شكل رهيب ، بشع ، نصف عار ، وهى تلوح بيديها فى قنوط ، وقد بدا وجهها عديم اللون ، جامدا كما كان عند موتها !٠٠ ثم حدث فى أصيل يوم آخر ، ان ولجت «صالون» اليخت بعد الظهر ، احتمى من الشمس ، واذا بى أرى صديقى « جون كارينجتون » ـ وكأن قد مات ـ جالسا ، عاكفا على بعض أوراق ، وقد أمسك فى يده قلما ٠٠ وكان وجهه شديد الشحوب ، مشوها !٠٠ ورحت أرتجف فى جزع ، وقدأيقنت ان المرض يعصف بى ويصور لى أشباحا !٠٠ وفى الليلة ذاتها ، زارنى شبح سيبيل مرة أخرى ، وفى صحبته الاشباح الثلاثة التى تراءت لى فى لندن ليلة انتحار الفيكونت لينتون !

وبادرت فى فزعى الى تصويب مسدسى اليها ، واذ ذاك رأيت لوتشيو أمامى وعلى أساريره ابتسامة ساخرة ، فصرخت فيه : « ألست صديقى ؟ » ٠٠ ولكن ابتسامته ازدادت بشاعة ، وقال : « بل أنا عدوك ! » ٠٠ وران السكون علينا ، ثم اشتد وجه لوتشيو سمرة وعبوسا ، وأخذ جسمه يتضخم ويمتد ، وكأنه من سحاب ، فأغمى على ٠ وعندما أفقت ، كان الرعد يقصف ، والبرق يلمع ، وكأن قوى الموت قد انطلقت من عقالها ٠ فرحت أصرخ مستغيثا ، حتى اذا أيقنت من الهلاك ، حاولت مبارحة الغرفة ، ولكننى ألفيت نفسى سجينا ٠ وفى عنفوان ثورتى ، سمعت قهقهة مروعة ، وصوتا رهيبا

يصيح : « انشروا العواصف والخراب فى الدنيا كلهـا .. الخراب والموت .. ولكن .. بعدهما الحياة ! » ، فاشتـد ذعرى ، ووجدتنى أركع على الارض ، وأصلى للرب الذى كنت أنكره طيلة حياتى .. **وفجأة ، ظهر أمامى لوتشيو ، مشيرا ان أتبعه ، وهو يقول : « اتبعنى يا جوفرى تمبست ، فقد حان وقتك .. اعفنى من صلاتك بحق الله ، ومن أجـل نفسك وأجلى .. اتبعنى ! »**

وبعد برهة ، رفع لوتشيو يديه وصاح بأعلى صوته: **«ارجعى ياشياطين البحر والريح !» ..واذا العاصفة تهدأ، بينما كنت أرقب التحول مشدوها .. ولم يبق من صوت ، سـوى ترانيم الطاعة للشـيطان !..** وقال لوتشيو : « أعرفتنى الآن ؟.. اننى بأمر الله العلى ـ الذى لا سلطان لسـواه فى الارض أو السماء ـ أسيطر على ارادتك فى هذه اللحظة !.. اننى أختارك لتكون واحدا من الملايين التى تتلقى فى هـذه الحياة الدرس الذى سيعرفه الجميع فيما بعد ، فلقنه لبنى جنسك اذا كان لك ضمير !.. **ان الذى يؤثر نفسه على الله ، ويغتر بهـذه النفس ، ويرتاب فى وجود الله وينكره ، انما يسلم نفسـه لسلطان يسيطر على مصيره .. وما يخلق هذا السلطان شرا ، الا بفضل عقوق الانسان وخبثه .. وهذا السلطان هو الذى عرفته الملائكة باسم أمير النور يوما ، والذى يطلق عليـه دعاة الاخلاق اسم الشيطان ، أو أمير الظلام .. فهل عرفتنى ؟!.. اننى أسيطر على الناس حين ينغمسون فى عماهم وضـلالهم وغرورهم ، فأغدو لهم رفيقا ، وأظهر لكل منهم فى الصـورة التى تروق له !..** ولقد كانت فيك ـ فى باكورة شـبابك ـ نسمة قدسية ، فأحسنت السير ، وكنت تكد وتشـقى وتتعلم وتتحمل الآلام ، ثم انقلبت فأصبحت تتذمر من هـذه المتاعب مـع انهـا هى التى تقربك الى السمـاء .. ومنذ ذاك اليـوم لازمتك . ولقد حـذرتك من نفسى ، وأتحت لك الفرص كى

تنبذنى وتتحول عنى ، فتعفينى عناء حزن جـديد ، وعذاب جديد ! »

وكنت خلال حديثه جامدا ، مشدوها ، معقود اللسـان ٠ وتقدم منى خطوة فحدجنى بنظرة نارية ثم قال : «وهناك درس آخر ٠٠ **ان الثروة كالعبقرية ، لا يخلعان على المرء ليرضى بهما نفسه ، وانما لينفع بهما من حرم منهما !٠٠** فمـا الذى فعلته لبنى جنسك ؟٠٠ انك مجرم ، وجرمك الرئيسى هو الانانيـة الحسية ٠٠ ولقد يتوب القـاتل ، ويكفر اللص ــ بالعمـل الشريف ــ عن ذنوبه ، ويندم الزانى ندما يؤهله للعفو ،ويثوب الكافر عن تجديفه ٠٠ أما الانانى ، فلا سبيل له الى توبة تامة، لانه يرى فى نفسه الكمال ، وفى خالقه النقص !٠٠ ما أشـد ما عظمتمـونى يابنى البشر حتى جعلتمونى ربا !٠٠ ما الذى فعله معلموكم بى وبأحزانى الابدية ؟٠٠ ألم يكذبوا كما كذبت المعابد ، حين زعموا اننى أستمتع بالشر ٠ **ألا فاعلم أن لامتعة فى الشر ٠٠ وما الشر الا من خلق الانسان ٠٠ انه عذابى ٠٠ ومبعث أسى الرب !٠٠ ان كل اثم يرتكبه كل انسان يزيد من عذابى ، ويطيل من نبذى ٠٠ ومع ذلك فلابد لى من أن ابر بقسمى فأغوى الجنس البشرى وأبذل كل مافى وسعى لضلاله ودماره !٠٠** ولكن الانسان لم يقسم على ان يطيع اغرائى ،وانما هو حر فى المقاومة ٠٠ وانه ليحمل عبء التكفير عن ذنوبه ، وعن ذنوبى ! »

★ ★ ★

◆ **أفقت** من غيبوبة طويلة ، فاذا أنا فوق ميـاه المحيط ، وتحت قبة السماء ، وقد ربطت الى صـار خشبى ٠ ولم أكن أحس بقيمـة لشىء سـوى روحى الازلية ، فهفت نفسى الى التوبة ٠ **ووجدتنى أقول : « ترى هل يرفضنى الرب لو لذت به تائبا ؟ » ٠٠ وغشيتنى طمأنينة ، وترددت فى أذنى أصداء :**

« **من يأتى الى لا أخرجه** » •• وأسلمت مصيرى لله ، ونمت ! •• ولم أستيقظ الا على صياح وتهليل ، فاذا سفينة كبيرة ـ فى طريقها الى انجلترا ـ قد انتشلتنى من الماء !

وقال لى آلربان بعد اذ عرف اسمى ، وحين أشرفنا على البر: « أفتعرف ماجرى لك ؟ » • وقدم الى بعض صحف وردت فيها أنباء تؤكد انى أفلست ولم أعد أملك شيئا ، لان المحامين اللذين وكلت اليهما بشئون أموالى قد نهبانى !•• ولم آجزع أو أبتئس ، بل شعرت بارتياح ، اذ أتاح لى الله فرصة آبدأ فيها الكفاح من جديد • وكان أول مافعلته ـ عندما وصلت الى لندن ـ هو ان سعيت لدى البوليس للافراج عن المحامين السارقين •• فقد رأيت ان المال الذى سرقاه خليق فى حد ذاته بأن يكون عقابا كافيا لهما •• اذ أنه سيجلب عليهما التعاسة والشقاء !•• وكتبت عنى الصحف اننى ـ بتصرفى هذا ـ قد أصبت بالجنون !

وكانت احدى الصحف قد حصلت فى تلك الاثناء على نسخة من كتابى ، فنقدته نقدا مرا ـ بعد ان غدوت فقيرا ! ـ واذا النقد يغرى القراء بالاقبال على الكتاب للتأكد مما جاء فى حملة الناقد على •• وشد ما كانت دهشتى حين بعث لى الناشر يوما بألف جنيه ، ذكر انها حصتى من الارباح !

واستأجرت غرفة متواضعة ، انزويت فيها بعيدا عن الناس• وفى ذات يوم ، تلقيت من الناشر رسالة بعثت بها اليه مافيس باسمى ، تدعونى لزيارتها • وأشرقت نفسى بنور الاغتباط ، وتصورت نظرتها اللطيفة ، وابتسامتها العذبة ، وطهرها ، وبراءتها !•• وقررت ان أرحل اليها فى أقرب فرصة ، ووضعت خطابها فوق قلبى كتعويذة ، ثم عكفت على العمل دائبا ، حتى شعرت بالتعب ، فخرجت أتنزه فى الهواء الطلق •• **وفيما كنت أسير أمام دير ويستمنستر ـ مقبرة الملوك والعظماء ـ وجدتنى وجها لوجه أمام « لوتشيو » •• وحملق فى ، ولكننى تجنبته**

وأنا أدعو الله ان يمدنى بعونه ، ثم واصلت سيرى . حتى اذا بلغت دار البرلمـــان ، اذا بوزير معروف ينفلت خارجـا .. ورأيت لوتشيو يقبل عليه ، فيتأبط ذراعه ، ويهبطان الدرج معا تحت ضوء القمر .. ثم يدخلان دار الحكومة .. وغابا عن نظرى .. الشيطان والانسان .. معا !

الشجرة التى كانت تعيش عليها انجلترا فى الهند !

◆ كان « رانجيت سنخ » ـ أحد حكام السيخ المشهورين ـ مايزال يقاتل فى سبيل السيـادة على ولاة السيخ المتعددين ، عندما اسرع الى بلاطه « جاسوانت راو هولكار » يلتمس منــه ان يعينه على الانجليز الذين طردوه من اراضيه فى الهند الوسطى !

وكان رانجيت ســنخ عازفا عن ان يتــرك مشروعاته الاثيرة فى (البنجاب) ، ليخوض فى أراضى الجنوب رحلة غير مأمونة العاقبة . ولكن نبلاءه كانوا يرون غير رأيه . اذ قالوا له :

ـ ادخل الحرب مساعدة لجاسوانت راو ، فان جيشنا قوى، وجنودنا شجعان ، وسرعان ما تصبح سيد الهندستان كلها ماعدا السيخ ، بدلا من ان تقنع بوطمعك الضئيل وهو غزو السيخ !

ـ وما الفائدة من ذلك حتى لو كان ممكنـــا ؟.. انى لا استطيع الاحتفاظ بالهندستان بغير معونة السيخ ، فان لم تحمنى ظهورهم القوية كان حكم الهندستان طريقى الى الهلاك !

ـ فلماذا لم يهلك الانجليز وهم لايملكون حتى الآن غير الهندستان ؟

ـ ان كل شجرة انما تخرج ثمرها من جزوعها ، فاذا قطعتم السيخ عنى او قطعتم شركة الهند الشرقية عن انجلترا ، سقط كلانا كشجرة فصلت عن جزوعها

استثمروا أموالكم فى

مشروعات صناعية جديدة .. مربحة

فى مستهل نهضة مصر السياسـية والصناعية المبـاركه ، يسر « المكتب الهندسى الصناعى المصرى » ان يقدم لاصحاب رؤوس الاموال الصغيرة جميع البيانات التى تسهل لهم استثمار اموالهم فى مشروعات صناعية جديدة لم يسبق ادخالهـا الى مصر او البلاد العربيـة وهى مشروعات مضمونة الربح وتكفى لانشائها رؤوس اموال محـدودة .. ومن هذه المشروعات :

صناعة أمواس الحلاقة • صـناعة كبسول أغطيـة الزجاجات • صـناعة فرش الشـعر والبـوية وكنس الارض • صناعة علب الكرتون لاغراض مختلفة • صناعة كبسول الملابس • آلات غسل الملابس • أفران خاصـة لتجفيف الاخشاب • صناعة ورق الصنفرة • صـناعة الدراجات • صناعة مسامير الابره والبرمه والقلاووظ • صناعة السلك الشائك • صناعة السلك الشبك بمختلف أنواعه • صـناعة فراشين شعر السيدات • صـناعة سوست التنجيد وسوست السراير وخلافه • صناعـة الصاج المضلع المجلفن .. الخ • الخ •

تطلب البيانات والايضاحات لمصر وجميع بلاد الشرق الاوسط من :

المكتب الهندسى الصناعى المصرى

اعمال هندسية ومقاولات وتوريدات صناعية

لصاحبه المهندس « فايز جندى » ، خريج كلية (لافبوره) بانجلترا

القاهرة : ١٨ شارع هدى شعراوى • تليفون ٣١٦٥٨

زوجات الفنانين

اقوى من الحب في الفن !

للكاتب الفرنسي الفونس دوديه

تلخيص : فرج جبران

هل يسعد الفنان مع زوجة فنانة ؟

◆ قد يعود فشل زواج الفنان ، الى انه غالبا مايختار زوجته من غير الوسط الفنى ، فلا يلبث ان يصدم حين يكتشف الفراغ الفسيح الذى يفصل بينهما .. فهو كفنان يتجه دائما الى التحليق فى اجواء شاعرية عليا ، فى حين انها كانثى - حسناء فى الغالب - تتشبث بالارض ، وتغريها متع الحياة الدنيا ولهوها !.. ولكن .. هل يعنى هذا أن الفنان خليق بان يسعد اذا هو اختار زوجته من نفس الوسط الفنى الذى يعيش فيه ؟

هذا هو الموضوع الذى يعالجه الكاتب الفرنسى الكبير « الفونس دوديه » ، فى هذه الحلقة من سلسلة مقالاته القصصية الرائعة عن « زوجات الفنانين » . وهو هنا يزيح الستار عن عامل خفى فى حياة كل فنان وفنانة .. عامل اقوى من الحب ، واقوى من الفن ، يتحكم فى مصيرهما معا ، وان لم يفطن احدهما الى وجوده قبل ان يندمجا فى حياة واحدة !

◆ لم يكن فى وسع الجمهور سوى ان يحبهما

كانا عبقريين ، استطاعا أن يخلبا ألباب باريس بتمثيلهما وغنائهما .. وما كان من الممكن ان يشتركا معا - كل ليلة - فى تمثيل الادوار العاطفية الغنائية ، وان يقول كل منهما للآخر « أحبك » على أنغام الموسيقى مرارا وتكرارا ، دون أن يكون لهما من هذا الحب نصيب !.. فلقد تسلل الحب الى قلبيهما من بين الاعمدة البيضاء فى الشرفة التى كانت « جوليييت » تطل منها على « روميو » وهو يناجيها الى مطلع الفجر .. وانساب الحب الى فؤاديهما مع شعاع القمر الذى كان يلثم وجه « مرجريت » ، و « فاوست » يقول لها : « ألا دعينى أتأمل وجهك ! »

وأدركت باريس بأسرها هذا الغرام ، اذ وشت به الى رواد « الاوبرا » مواقف الهوى التى كانت تجمع الكوكبين على المسرح ٠٠ أما هما ، فكانا يحاولان أن يكذبا قلبيهما ، الى أن بلغ تحمس الجمهور لهما وهمـا يمثلان دورى « روميو » و « جولييت » ـ ذات ليلة ـ درجة التهوس ، فظل يصفق كلما أسدلت الستار ليظهرا له من جديد ٠ وتكرر رفع الستار وهبوطها ، بينما انهالت على خشبة المسرح باقات الزهور ٠٠

وفى تلك الليلة أدركا ان الحب قد احتل قلبيهما بالفعل ، وانه نما واشتد وبلغ أوجه فلم يعد فى وسـعهما ان يتجاهلاه ، لاسيما بعد ان أيقظه ضجيج الجمهور وهتافاته التى سجلت لهما نصرا فنيا باهرا ٠ فما ان هبطت الستار للمرة الاخيرة ، حتى ضغطت يد كل منهما على يد الآخر فى وجد ، وتهدج صدراهما ، وانبعث هتاف القلبين الى اللسانين فى كلمة واحدة، قالها كل منهما للآخر : « أحبك ! »

وكانت الخطبة ، والزواج ،سريعين ، وكأنما كان العاشقان متلهفين على أن يعوضا قلبيهما عن الفترة الطويلة التى تجاهلا فيها نداء الحب من قبل ٠وغاب الكوكبان عن جمهورهمـا فترة نعما فيها بشهر العسـل ، ثم عادا اليه

ولكنهما لم يكونا فى عودتهما كما كانا قبل زواجهمـا ، فان أعين الجمهور المعجب المشـوق لم تغفـل بعض ظواهر كانت تافهة ، مستترة ، لم يفطن اليها أحـد من الممثلين الزوجـين ، ولكنها وشت للجمهور بأمور ٠٠ وأمور !

* * *

◆ **كان** الممثل الشاب ـ حتى يوم الزواج ـ أقوى الاثنين تأثيرا على الجمهور ، اذ كان أكبر سنا من المرأة ، وأكثر خبرة. وقد علمته تجاريبه أشياء عن نفسية الجمهور ونزواته وأهوائه ، الامر الذى مكنه من أن يتلاعب بالعواطف ويسيطر على المشاعر والاحاسيس كلما غنى بصوته الرخيم .. أما المرأة فكانت لاتبدو ـ الى جواره ـ الا كما تبدو التلميذة الموهوبة الى جانب الاستاذ المتمكن .. قد يبشر استعدادها بمستقبل زاهر ، ولكن دون هذا المستقبل مران ودراسة وجهد ، لاسيما وان صوتها كان لايزال فى حاجة الى صقل وتهذيب !

على ان الموقف انقلب بعد العودة .. فما ان ظهر الزميلان ـ اللذان أصبحا زوجين ـ على المسرح فى احدى أوبيراتهما القديمة ، حتى انطلق صوت المرأة صافيا ، غنيا ، رنانا ، وكأنه ينساب من جدول نمير يخلصه من كل ماقد يكون عالقا به من شوائب !.. وبهت الجمهور لهذا التغير .وبهرتهم العذوبة الجديدة التى اكتسبها الصوت المألوف لديهم ، حتى انهم اتجهوا بكل حواسهم الى الممثلة الشابة ، وكادوا ينسون وجود زوجها .. معبودهم السابق !

واهتزت جدران المسرح بالتصفيق والهتافات التى حيا الجمهور بها الممثلة .. وكانت الليلة من أسعد ليالى الشابة ، وقد بعث النجاح فى نفسها وحياتها اشراقة وضاحة . واذ تكررت هذه الظاهرة فى الليالى التالية ، اكتملت للمرأة السيطرة على مشاعر الجمهور ، بينما ازداد نفوذ الرجل اضمحلالا ، حتى أصبح موقفه الى جوارها لا يزيد على موقف أى ممثل ثانوى (كمبارس) !

وشعر الزوج بحاجز معتم يقوم بينه وبين زوجته ، وان

كان يوقن ان نجاح زميلته نجاح له ، لانه هو مصدر الحنان العاطفي الذى خالط عذوبة صوتها ، ولانه هو مبعث البريق الذى كانت تتألق به عيناها ، ولانه هو الذى دربها ومرنها وسكب فيها من تجاريبه وفنه !٠٠ ولكن تكرر الامر ،واشتداد انشغال الجمهور عنه بزوجته ، لم يلبثا ان وخزا كرامته ،فثار على مدير المسرح ، واتهمه بالتقصير والاهمـــال فى الاجراءات الفنية التى تصحب ظهـــوره على المسرح ، ووقوفه عليـــه ، وانسحابه منه ٠٠ ولم يقنع الرجل بهذه الثورة ، بل انه شكا مدير المسرح الى المسئولين

بيد ان الجمهور كان قد حول إعجابه الى زوجته نهائيا ٠٠ كما ان الخصومة أوغرت صدر مدير المسرح ، فأخــذ ينتقى للزوجة خير الادوار التى تظهر مواهبها وتمكنها من ان تفتن الجمهور ، وأخذ يبدع فى اخراج هذه الادوار !

وكان الزوج يزداد حزنا ، وارتباكا، وانفعالا ، كلما ازدادت زوجته نجاحا ٠٠ وتحول الامر فى نظره ، فأصبح كل نصر جديد للممثلة يتراءى له كسرقة جديدة ٠٠ كسطو على ما كان الجمهور يكنه له من اعجاب !

* * *

◆ **وحاول** الرجل جاهدا ان يطوى همـه فى جوانحه ، فلا يظهر أحد ـ لاسيما زوجته ـ على ألمه وأساه !٠٠ الى أن حدث ذات ليلة ـ بعد ان انسحبا من المسرح بعد هبوط الستار ـ ان قالت الزوجة وهى تحتضن باقة ورد طوح بها اليهـــا أحد المعجبين : « ان مسرحنا ممتلىء الليلة ! »

ووخزت رنة النصر كبرياء الزوج ، وأدار التصفيق ـ الذى كان لايزال يرج الجدران ـ رأسه ، فقال ساخرا : « أحقا ؟! » ٠٠ وكانت ســخريته مريرة حادة ، لفتت انتباه الزوجة ، ففطنت للمرة الاولى الى الحقيقة التى كانت خافية عليهـــا ٠٠ **كان زوجها يغار منها !٠٠ لا غيرة الزوج الذى يحب ان تكون**

زوجته له وحده ٠٠ ولا غيرة الفنان الخالصة لوجه الفن ، وانما ٠٠ كانت غيرة باردة ، ضارية ، تنذر بشر !

وبدأت عيناها تتفتحان بعد تلك الليلة الى ما لم تكن تفطن اليه من قبل ٠ فلاحظت أكثر من مرة ما كان يبديه زوجها من تأفف وضجر اذا ما أطالت الوقوف عند مقاطع أغنياتها ريثما يكف الجمهور عن هتافه ٠٠ ولاحظت كيف كان زوجها يتألم كلما أمعن الجمهور فى تصفيقه لها ، الى درجة دفعته مرة الى أن يرجىء الانطلاق فى أداء دوره ، قائلا : « لن أغنى حتى ينتهى الجمهور من تصفيقه ! »

آه ، التصفيق !٠٠ ذلك الضجيج الذى يطرب الفنان أكثر مما تطربه أعذب الانغام والاصوات !٠٠ **ان كبار الفنانين لايموتون بسبب المرض ، ولا تحت وطأة الكهولة ، ولكنهم يموتون حين يكف الناس عن التصفيق لهم !**

وهكذا بدأت آثار التحول تبدو على الزوج ، فأصبح سريع الغضب ، ضيق الصدر ، كما أخذ جسمه فى الهزال ٠ وكان يحاول جاهدا – اذا ما تأهب للظهور على المسرح – ان يقاوم الداء الذى برح به ٠٠ داء الغيرة ٠ وكان يتمتم لنفسه مرارا، وكأنه يحاول أن يفرض عليها الاقتناع فرضا : « انها زوجتى على كل حال ، وانى لاحبها ! » ٠٠ ولكنه كان بمجرد ظهوره على المسرح ، لايملك سوى ان يعترف بالحقيقة ، فتنهار مقاومته ، ويغلبه الشعور بالواقع : **كان يحب المرأة ، ولكنه كان يكره الممثلة !**

وكانت الزوجة تشهد الصراع الذى يدور فى نفسه فتشفق عليه ٠٠ كانت تدرك حقيقة شعوره ، فتعامله كما لو كان مريضا !٠٠ وقد حاولت فى البداية أن تحد من ابداعها على المسرح ، فلا تطلق صوتها الى أبعد حدوده ، أو أعلى طبقاته٠٠ ولكن قرارها هذا كان يمنى بما كانت تمنى به قرارات زوجها ٠٠ فما ان تظهر على المسرح ، حتى يجرفها الالهام الفنى :

وينسيها اعجاب الجماهير كل ما حولها ـ حتى نفسها ـ فتنطلق على سجيتها .. وتطلق لمواهبها العنان !

* * *

◆ **وحرصت** على ان تعامل زوجها كما لو كان السيد صاحب السلطان ، وهى التابعة أو التلميذة !.. بل انها أخذت تكثر من سؤاله النصح والمشورة فى أدائها أدوارها . ولكن الفنان لم يخدع بهذا التظاهر . وأخذت الغيرة توسوس اليه بنوع من الخبث ، فكان ، فى الليالى التى يشتد فيها التصفيق لزوجته، يقول بلهجة الزمالة الزائفه : « انتبهى ياصغيرتى !.. ما لك فى هذه الفترة على غير ماينبغي ؟.. انك لاتحرزين تقدما جديدا!» .. وأوحى اليه هذا الخبث ـ فى فترات ـ بأن يحاول حملها على الامتناع عن الظهور على المسرح ، قائلا فى اشفاق مصطنع: « احذرى ياعزيزتى .. انك تنتحرين ، بما تبذلين من مجهود فوق احتمالك !.. لم لا تستريحين فترة تستردين فيها قوائك وانتعاشك ؟ » .. وكان ينتهز أتفه برد يصيبها ، أو أبسط توعك يلم بها ، كى يكرر المحاولة

وكان الحنق يدفعه أحيانا الى أن يقسو عليها فى اللوم ، ويجور فى التحامل ، فيقول : « لقد استأنفت غناءك بسرعة ، قبل أن أنتهى من ترديد آخر مقاطعى ، فأضعت تأثير غنائى .. يبدو انك تتعمدين هذا ! » .. **والواقع انه كان يرميها بما يرتكبه هو ، دون أن يعى . فقد كان هو الذى يتعجل الغناء قبل ان تنتهى هى من آخر مقاطعها ، ليمنع الجمهور من التمادى فى التصفيق لها . وكان يختار لنفسه مكانا بارزا على المسرح ، ولا يدع لزوجته سوى مكان قصى لا تتجلى فيه للجمهور كما ينبغى .. وكانت المرأة على نقيضه ، لا تشكو ولا تلوم ، اذ كانت تحبه . واذا كان النجاح يعلم التسامح ، فان الحب يضاعف من هذا التسامح !**

ولم تخف هـذه الغيرة الفريدة فى نوعها ، علـى الوسط المسرحى . وطرب لها بعض زملائهما الذين كانوا يحسدونهما .. بل انهم راحوا يساهمون فى اذكاء النار ، فكانوا يتعمدون الاسراف فى تهنئة الممثلة على نجاحها ، وفى اطراء فنهـا .. كما كانوا يتعمدون اطلاع الزوج على اطناب النقاد فى امتداح زوجته ، واسهابهم فى الحديث عنها ، دون ان يؤثروه بأكثر من سطور قلائل فى ذيول مقالاتهم !

★ ★ ★

◆ **وفى** ذات يوم ، تعمد أحد الصيادين فى المـاء العكر ان يضع تحت عينى الزوج مقالا أسرف كاتبه فى امتداح الزوجة ، حتى آثرها بكل مجد وفوز ، مما أوغر قلب الزوج ، فاختطف الصحيفة وأسرع الى حجرة زوجته بالمسرح ، فاقتحمها ثائرا ، وصاح وهو يتميز غيظا : « **ان هذا الكاتب ولابد عشيقك !** »

وابتلعت الزوجة المشفقة هـذه الاهانة .. وتقبلت هـذا الاتهام المهين وهى منكسة الرأس ، اشفاقا عليه وعلى حبهما ، وهى التى لو شاءت لطردته من حياتها ومن المسرح .. فقـد كانت معبـودة باريس ، وكان اسمها يملأ الاعلانات ، والشركات تتهافت عليها متنافسة فى اغرائها لتسمح لها باستغلال صورها واسمها فى الدعاية لمنتجاتهـا الاعلان عنها !

وقدر لها ان تعيش تعسـة مهيضة ، وهى فى أوج نجاحها وفوزها !.. وأصبحت لاتجرؤ علـى ان تفتـح صحيفـة من

الصحف ، خشية ان يكون فيها مقال عنها يزيد من قسوة زوجها • وكانت تستقبل تصفيق الجمهور وهتافاته فى حيرة، والدمع يغالبها • وأخذت تتجاهل الزهور التى كانت تقدم اليها ، حتى لا يثير مرآها بين يديها غيظ زوجها !

واذ اشتد شقاؤها ، وفاض معينها ، اقترحت على زوجها أن تنسحب من الحياة الفنية وتعتزل المسرح • ولكنه أبى عليها ذلك قائلا : « أتريدين ان يقال اننى أكرهتك على الاعتزال ؟ » •• وهكذا راح يسد فى وجهها كل باب للفرار من هذه الحال ، فاستمر التوتر والتعاسة يخيمان على جو حياتهما معا !

* * *

• **وفى** ذات ليلة ، كانت تتأهب للظهور فى دور جديد ، حين اقترب منها أحد المحيطين بها ، وهمس : « خذى حذرك ، فان فى الصالة جوا عدائيا ضدك ! » •• ولم تتمالك ان ضحكت ، فما كان من المعقول ان يكن الجمهور لها روحا عدائية ، وهو الذى يفتتن بها ، ويسبغ عليها كل اعجابه !

ولكن ••

بينما كانت مندمجة فى الغناء أمام زوجها ـ على المسرح ـ وقد أخذ صوتها يعلو ، والجمهور يمسك أنفاسه مأخوذا ، مفتونا •• اذا بصفير متصل ينبعث من الصالة فى اللحظة التى بلغ فيها صوتها ذروته !

واضطربت المسكينة مأخوذة •• واضطرب الجمهور ، ثم سرى الهرج بين صفوفه • ووقفت الانغام فى حلق الممثلة المطربة ، فلم تقو على استئناف الغناء !•• وفجأة ، انبثق فى ذهنها خاطر أثار جزعها •• والتفتت ، فاذا كل ما حولها يغيب عن بصرها ، فيما عدا الرقعة التى كان يقف فيها زوجها أمامها على المسرح •• وعلقت نظراتها بزوجها •• بل بعينى

زوجها ، وقد انبعث منهما وميض خبيث !

وأدركت كل شيء ٠٠ وفارت عواطفها ، فاذا آلامها تتصاعد غصصا تخنق حلقها ، بينما انسابت الدموع من عينيها ٠ واندفعت تغادر المسرح الى غرفتها ، قبل ان يفضح ضعفها أساها ، ويكشف عما جرى

فقد كان زوجها هو الذى دبر المؤامرة !

وشهدت باريس فى ذلك الموسم مأساة أليمة فاقت كل ما كان يمثله الكوكبان اللامعان على المسرح من مآس ٠٠مأساة قضت على زواج قام على حب وتفاهم وثيقين ، وعصفت بمجد فنى ارتفع على مواهب فذة كانت كفيلة بأن تخلد اسمى صاحبيها ، لولا ان غيرة الفنان من أجل الجمهور كانت معولا هدم كل شيء ٠٠ هدم الحياة الاجتماعية ، والحياة العاطفيه ، والحياة الفنية ٠٠ للزوجين !

بنك مصر
أسس شركاته الكبرى التى وطف بها خصائص البلاد واستغل مرافقها فاذا بها الدعائم التى قام عليها التصنيع القومى فى البلاد وكانت السياج المنيع للتحرر الاقتصادى منذ ٣٣ عاما فدل على الكفاية المصرية وتفوق العقل المصرى فى مضمار الحياة العملية

SEXUAL BEHAVIOR
BY
A.C. KINSEY
& OTHERS
التقرير الذى هز الولايات
المتحدة من أقصاها الى اقصاها-
بما كشفه من أسرار الحياة الجنسية بين أهلها!
السلوك الجنسى!
للباحث الأمريكى الكبير "الفريد كينزى" وآخرين

أعظم دراسة للجنس ٠٠ فى تاريخ البشرية !

◆ تعتبر هـذه الحلقة من اهم الحلقات التى قدمها لك « كتابى » - حتى اليوم - لاعظم دراسة للجنس فى تاريخ البشرية ٠ وهى فى حد ذاتها رد بليغ قوى على المتزمتين الذين يؤثرون ان يدفنوا رؤوسهم فى رمال الاحتشام الزائف والحياء الكاذب ، لكى لايواجهوا الحقائق العلمية التى تبين ما للجنس من آثر خطير فى الحياة البشرية ٠ فبعد ان اورد العالم الامريكى المرحوم الدكتور الفريد كينزى وزملاؤه البيانات والاحصاءات التى جمعوها من دراستهم لحالة ١٢٠٠٠ فرد اتخذوهم كعينات علمية تمثل المجتمع الامريكى بكافة نواحيه ، تحولوا فى هذه الحلقة يستخلصون النتائج الخطيرة لاثر الجنس فى المجتمع ، وفى المدارس ، والمصانع ، والسجون ، والاصلاحيات ، والمستشفيات ، والجيش والبحرية ٠٠ ثم بينوا - بادلة علمية - مدى الخطا الذى ينزلق فيه رجال الاصلاح الاجتماعى ، والاخصائيون الاجتماعيون ، والمسئولون فى البوليس والقضاء والهيئات التشريعية والتنفيذية ، والاوساط التربوية ، حين يتعرضون للمسائل الجنسية !

الطبيعة ٠٠ أقوى من الاخلاق !

◆ يعتقد كل مستوى فى المجتمع ان سلوكه الجنسى هو أفضل سلوك ، ولكنه يبنى حكمه هذا على مقاييسه الخاصة ومنطقه ٠ فيرى أصحاب أرقى مستوى - من ناحية التعليم والعمل والمركز - آن كل سلوك اجتماعى جنسى يندرج تحت قانون الاخلاق ، وانه ليس بين أنواع الفساد الخلقى مايفوق الفساد الجنسى ، ومن ثم فان الفرد المستقيم ، الصالح ،التقى، الطاهر ، يؤثر تجنب العلاقات الجنسية الاجتماعية خارج نطاق الزوجية ، ويرى انالشرف ، والوفاء ، والامانة ،والنجاح الزوجى ، تتوقف كلها على اقتصاره فى الاشباع الجنسى على

مجامعة زوجته . ولا يخشى الواحد من هؤلاء شيئا قدر مايخشى أن يتهم بالاستهتار الخلقى كما تحدده طبقته !

أما أصحاب المستوى الادنى فى المجتمع ، فيبنون مسلكهم الجنسى على أساس ما هو طبيعى وما هو غير طبيعى . فالاتصال الجنسى قبل الزواج أمر طبيعى - أى لابد منه - ومن ثم فهو مقبول . والاستمناء (العادة السرية) أمر غير طبيعى ، وكذلك الغزل والمعابثة بغير جماع أو كتمهيد له .. كلها أمور غير طبيعية ، وبالتالى فهى غير مقبولة !.. ومن أبناء هذا المستوى من يرون للسلوك الجنسى علاقة بقوانين الاخلاق، ولكنهم يسلمون بأن الطبيعة تتغلب على الاخلاق ، فهم قد يعلمون ان الجماع ذنب ، ولكنهم « يتوقعون مباشرته بأية حال ، لان هذه المباشرة من أسباب مجاراة الطبيعة البشرية » !

.. وليس من الغريب بعد هذا أن نجد فى الطبقة الوسطى أفرادا جامعوا عشرات - بل مئات - الفتيات بغير زواج ، ولكنهم مع ذلك يصرون على ان لا يتزوج الواحد منهم فتاة غير بكر . اذ انهم يرون ان الجماع قبل الزواج أمر طبيعى ، للمرء ان يمارسه اذا استطاع اليه سبيلا .. ولكنهم يرون ان فقدان البكارة غير طبيعى ولا أخلاقى ، ومن ثم فالفتاة التى تفرط فى بكارتها ، ليست أهلا للزواج !.. أما ابن الطبقة العليا، فانه اذا شاء أن يخرج عن العرف المرعى فى طبقته ، ويجامع فتاة بغير زواج ، فانما يفعل هذا فى الغالب مع فتاة يكون قدخطبها الى نفسه . وهو يبرر عمله فى هذه الحالة بقوله : « ان هذا العمل ليس ذنبا مادام الحب قائما ! » .. وعلى العكس من هذا ابن الطبقة الوسطى ، أو الطبقة الدنيا ، فهو يربأ بالفتاة التى يختارها للزواج عن أية علاقة جنسية مباشرة ، قبل زواجهما . وهو يقول تبريرا لمجامعته فتاة دون زواج : « اننى لم أشغل بها قلبى ، ومن هنا لم أر مانعا من مجامعتها . أما اذا التقيت بالفتاة التى أحبها حقا ، فاننى لن امسها قبل ان

أتزوجها ! »

والواقع ان المبادىء الخلقية لكل وسط تتغلغل فى نفوس أبناء هذا الوسط ، الى درجة لا تدع سبيلا الى مناقشتها أو التفكير فى مدى صوابها ، أو تحرى مقدار دقتها وصحتها .. فهى كالمبادىء الدينية ، بل وأكثر فى بعض الاحيان !

اختلاف الفلسفات الجنسية للطبقات يسبب المآسى !

◆ **ومعظم** المآسى المحزنة التى تنجم عن النشاط الجنسى ، انما تتأتى عن التضارب بين اتجاهات المستويات الاجتماعيه المختلفة . **فالنشاط الجنسى فى حد ذاته لايؤدى الى ضرر بدنى ، ولكن التناقض بين مذاهب الطبقات الاجتماعية ازاء السلوك الجنسى ، هو الذى قد يؤدى الى الاختلالات النفسية التى تطرأ على شخصية الفرد ، والى فقدان الفرد مكانته الاجتماعية ، أو الى السجن ، أو العار ، أو فقدان الحياة ذاتها !**

ويتجلى هذا أكثر مايتجلى فى ميدان العلاج الطبى أو العلاج النفسى . فأينما حاول المختصون توجيه السلوك الجنسى لدى أفراد من الطبقة الدنيا ، نجدهم يصطدمون بالعراقيل الناشئة عن تباين الفلسفات الجنسية لدى الطبقات . ومن ثم فان النصيحة أو المشورة الجنسية التى يقدمها طبيب بشرى أو طبيب نفسى من أبناء المستوى الراقى ـ من حيث التعليم والعمل والمركز ـ لمريض من المستوى المنخفض ، تزداد قيمة وأثرا ، اذا روعى فيها الوسط الذى نشأ فيه هذا المريض . فالطبيب الذى يطلب من مريض كهذا ان يخلع ثيابه ـ مثلا ـ يجب أن يضع فى اعتباره انه يخرق العرف السائد فى الوسط الذى نشأ فيه مريضه . والطبيب الذى يرفق علاجه الطبى بتوجيه أخلاقى يجب ان يراعى تمشى هذا التوجيه مع المستوى الاجتماعى للمريض .

والنصائح والتوجيهات التى يقدمها بعض الاخصائيين فى

مسائل الزواج ، تقوم فى وضعها الراهن على الآراء والمذاهب الخاصة بالزواج وأهدافه لدى ذوى المستوى الثقافى الذى يعادل مستوى هؤلاء الاخصائيين .. فهى قد تصلح للمثقفين – أى أبناء المستوى الراقى – ولكن الامر يختلف بالنسبة لمن هم أدنى منهم مستوى . وينطبق هذا على المقالات والكتب التى تتناول مسائل الزواج ، فنجد أن التوجيهات الخاصة بأساليب المعاشرة الزوجية ، تقوم على استحسان المعابثة لفترة طويلة قبل الجماع ، والتنويع فى أساليب الجماع ، وتحقيق أقصى حالات التهييج قبل اتصال الزوجين ، وتأخير القذف بعض الوقت ، والوصول الى حالة القذف من الطرفين فى وقت واحد. ومعظم هذه التوجيهات ، وان راقت لابناء المستوى المرتفع الا أنها منافية للعرف الذى يسود المستويات المنخفضة ، ومن ثم لا يكون لها كبير أثر ، وبالتالى تعتبر جهدا فاشلا من أولئك الاخصائيين ، اذا هم حاولوا فرضها على عملائهم من أبناء الطبقات التى تقل عن مستواهم !

الجنس فى أوساط العمال والمدارس

◆ **والى هذا** السبب أيضا ، تعزى الخلافات التى تنشأ فى الاوساط الصناعية ، بين الاداريين ذوى التعليم العالى ، والعمال ذوى التعليم البسيط . ولو أن الاخصائيين الاجتماعيين والنفسيين ، والاطباء ، راعوا مناهج الحياة فى أوساط العمال ، لساهموا فى توطيد العلاقات بين أصحاب العمل والعمال !

ومن ثم ، فحيثما يتصل أفراد من مستويات اجتماعيه متباينة ، يقوم التضارب بين الاتجاهات الجنسية ، فيقيم الاخفاق فى فهم كل فريق لاتجاهات وفلسفات الآخرين عراقيل فى طريق التعاون بين الجميع . وأجلى مظاهر هذه الحقيقه ، هو مايتبدى فى السجون والاصلاحيات ، وفى مصحات ضعاف العقول ، وفى الملاجىء والمستشفيات ، وفى مختلف المؤسسات

التى تضم أناسا من مختلف المستويات الاجتماعية ٠٠ وقد لا يتعرض المشرفون على المدارس الخاصة والثانوية والعليا لهذه المشكلة ، لان الطلبة فى الغالب من عين المستوى الاجتماعى الذى ينتسب اليه هؤلاء المشرفون ٠ ولكن الامر يختلف بالنسبة للمدرسين فى المدارس العامة التى تجمع نواحى ثقافيه متباينة ٠ فالمعلمة التى تتخرج فى الجامعة ، ثم تعين للتدريس لتلاميذ السنة الرابعة الاعدادية ، يشق عليها ان تفهم كيف ان التلميذ من هذه الفرقة ـ الذى ينتمى الى أسرة عامل أو ميكانيكى ـ يبلغ به الشر ان يجامع احدى تلميذاتها اللاتى لم يتجاوزن الرابعة عشرة من العمر !٠٠ **وما شعورها هذا الا نتيجة للمقاييس المرعية فى المستوى الراقى الذى تنتمى اليه ، وهى مقاييس قد تؤدى الى فصل التلميذ من المدرسة ، والى تسبيب فضيحة له وللفتاة ٠ ولا تدرك هذه المعلمة ان ٢٨ فى المائة من تلاميذ هذه المرحلة قد مارسوا مثل هذا الجماع ٠٠ ولو انها درست الوسط الذى نشأ فيه التلميذ ، لتغير تصرفها ازاءه ، ومعاملتها له !**

مسئولية الاخصائيين الاجتماعيين واستعدادهم

◆ **والاخصائيون** الاجتماعيون أكثر من الاطباء تعرضا لعلاج المشكلات الجنسيه ، فكم من حالات حمل قبل الزواج ، وهتك أعراض ، وطلاق ، تنشأ عن الخلافات الجنسية بين آباء الاطفال الذين يعنى بهم هؤلاء الاخصائيون !٠٠ وقد توجد أحيانا

اتصالات جنسية بين الاطفال وبين أفراد بالغين فى الجماعة التى يعيشون بينها ، مما قد تستنكره الجماعة ويستنكره الاخصائى الاجتماعى نفسه • ولكن الاخصائى الاجتماعى – أو الاخصائية – الذى يتعرض لحالات الاتصال الجنسى بين الاطفال ، أو الجماع قبل الزواج ، أو جماع المتزوجين لغير زوجاتهم أو غير أزواجهن ، خليق بأن لا ينظر الى هذه الالوان من السلوك على ضوء العرف الذى ألفه ، فيبنى تصرفاته على غضب وسخط ورغبة فى العقاب

فالواقع ان الاخصائى الاجتماعى يقدم – فى كثير من هذه الحالات – على حرمان الاسرة التى توجد فيها مثل هذه « الانحرافات » من الاعانة الاجتماعية •• وهو الذى قد يدفع بمثل هذا النشاط الجنسى الى المحاكم ، وكثيرا مايوصى بانتزاع أمثال هؤلاء الاطفال « الذين لا يلقون رعاية » من أهلهم ، وتسليمهم الى أسرات أخرى ، أو الى اصلاحيات الاحداث • **ومن ثم فان خريجى المعاهد الاجتماعية المتوسطة أو الابتدائية قد يكونون أكثر استعدادا لفهم الاوضاع فى الجماعات ذات المستوى المنخفض • وأقل المشتغلين بالخدمة الاجتماعية استعدادا لفهم الفوارق بين المستويات ، هم ذوو المستويات الراقية ، الذين يمارسون الخدمة الاجتماعية كمساهمة فى الاصلاح الاجتماعى ، ولا سيما النساء منهم** • وأقل الجماعات التى تحظى باهتمام الاخصائيين الاجتماعيين فى أمريكا هم الزنوج ، الامر الذى أوحى الى البعض بأن يقترحوا ان يعهد بأمر الخدمة الاجتماعية لهذه الجماعات الى الزنوج أنفسهم • ولكن الملاحظ أن الاخصائيين الاجتماعيين الزنوج ذوى المستوى الراقى ، قد يكونون أكثر اصرارا من سواهم على رفع مستوى الطبقة الدنيا فى أوساطهم ، ظنا منهم ان هذا يرفع من شأن العنصر الزنجى ، دون أن يفطنوا الى الاضطرابات التى تنشأ عن محاولاتهم !

المشكلات الجنسية فى القوات المسلحة والدول المحتلة !

• **ويواجه** ضباط الجيش والبحرية مشكلة الاشراف على أفراد من مستويات اجتماعية متباينة ، تضمهم جماعة واحدة متماسكة الأطراف • ولما كانت أغلبية السكان ممن لم يتجاوزوا فى دراستهم السنة الثانية الثانوية (حسب النظام الجديد المتبع فى مصر) ، فان معظم المجندين فى القوات المسلحه ينتمون الى المستويات الدنيا ، من حيث السلوك الجنسى • هذا فى الوقت الذى ينتمى فيه الضباط – (والمؤلف هنا يتكلم عن أمريكا) – الى مستويات تعليمية أرقى • **والى هذا الفارق بين مستويات المجندين والضباط ، يرجع التضارب بين قوانين الجيش والبحرية ، وبين تنفيذ هذه القوانين •**

كذلك نجد ان جنود جيوش الاحتلال الامريكية ، يضطرون الى المعيشة وسط ثقافات تختلف – فى شئون الجنس – عن ثقافاتهم • ونجد أن الحاكم أو الضابط العظيم الذى يعهد اليه بحكم البلد المحتل – مؤقتا – يحاول ان يفرض « مقاييس خلقية » – تمثل العرف عند طبقة محدودة من الشعب الامريكى نفسه – على شعب أجنبى بأكمله ، لا يتبع شيئا من ألوان السلوك الجنسى المتعارف عليها فى مستويات المجتمع الامريكى !

ومن الملاحظ ان الجماعات ذات التعليم الراقى فى المجتمع ، تعيش فى عزلة عن عامة الشعب – الى حد كبير – فى أوقات السلم ، فلا تفطن الى ألوان السلوك الجنسى لدى هؤلاء العامة ، ومن ثم فان أبناء الطبقة الراقية التعليم ، يذهلون حين يكتشفون حقائق السلوك البشرى لدى أبناء الطبقات الاخرى ، عندما يضطرون فجأة الى الاختلاط بهم فى أوقات الحروب !.. **وهم لذلك قد يصمون نظام الجيش والبحرية بأسره ، ويعزون اليه مسئولية النشاط الجنسى الذى يمارسه المجندون • ومع**

ان البيانات التى تجمعت لدينا تدل على أن المجندين الذين يمارسون نشاطا جنسيا كذلك الذى كانوا يمارسونه فى بلادهم أثناء السلم ، قلة بين أفراد القوات المسلحة ، الا أن أبناء الطبقة الراقية ـ لاسيما المتقدمين فى السن منهم ـ لا يفطنون الى هذه الحقيقة التى كشفت عنها دراساتنا . وينجم عن عدم فطنتهم هذه ، توجيه ضغط كبير على الدوائر العسكرية لوضع وتنفيذ قواعد ونظم (وعلى الكونجرس لوضع قوانين) ترمى الى اجبار المجندين ـ فى علاقاتهم الجنسية بالنساء ـ على اتباع سلوك مستوى أرقى من مستوياتهم . وهم يبررون الامر بالخوف من الامراض السرية ، ولكن من المؤكد أنهم أكثر اهتماما ـ فى محاولاتهم هذه ـ بالقوانين الخلقية التى درج عليها العرف فى مستواهم ، منهم بتلك الامراض !

ومثل هذه المسائل يتيسر علاجها على وجه أفضل وأحكم ، اذا ازداد فهم المهتمين بها لانواع السلوك الجنسى لدى المجندين !

السلوك الجنسى فى الحياة اليومية للمجتمع

• **وعلى** أية حال ، فان أبناء المستويات الراقية ـ من حيث التعليم والعمل والمركز ـ يرون أن المقاييس الخلقية لدى المستويات الادنى تفتقر الى المثل العليا ، والاستقامة بالمعنى المفهوم من فلسفة المستوى الراقى . هذا فى حين ان أبناء المستوى الادنى يرون من ناحيتهم أن المستوى الراقى والمثقف فى المجتمع ، يتشبث بلون من السلوك الجنسى ممجوج ، يزيده بغضا أن المستوى الراقى يحاول فرضه على المستويات الاخرى . وما يقال عن تنكب المستوى الادنى للاخلاق ، تقابله روايات تقال عن مفاسد المستوى الراقى ! وتبلغ هذه الروايات أقصى تأثيرها عندما تتناول جماعة عنصرية أو قومية واحدة ،

فيقـــال : « ان الفرنسيين يأتون هذا ، والصينيين يفعلون ذاك » !٠٠ وهناك روايات عن الزنوج ومسلكهم الجنسى ، تتسم بالمبالغة ٠ كما ان الدعاية التى شنها هتلر على اليهود - والتى كانت من أركان سياسته - تضمنت حملات على السلوك الجنسى لديهم !

والذى نخرج به من البيانات التى جمعناها فى دراساتنا هذه ، ان أى عنصر - أو قوم - انما يتألف من عدة مستويات، لها ألوان متباينة من السلوك الجنسى ، فليس هناك مسلك جنسى واحد يتسم به عنصر واحد من البشر !

فاذا انتقلنا الى القانون ، وجدنا أن القوانين الجنسية لدى الانجليز والامريكيين ، لاتعدو أن تكون صيغا للعرف السائد لدى أرقى جزء من الناس فى انجلترا وفى أمريكا ٠٠ كما ان صيانة هذه القوانين وتطبيقها والدفاع عنها ، تقع فى أيدى المشرعين والقضاة ، ومعظمهم من أبناء المستويات الراقية !

ووفقا لهذه القوانين ، نرى ان الجماع بغير زواج ، أوالجماع بين من لا يرتبطان معا بالزواج - وان كانا متزوجين ، كل من غير زميله - يلاقى أشد العقوبات ، فى حين أن الاستمناء (العادة السرية) لا تعتبر ذنبا أو جرما !

تطبيق القانون رهن بنشأة رجل البوليس !

◆ **ومن** ناحية أخرى ، نرى أن مراقبة تطبيق القانون يتولاها موظفون فى البوليس من ذوى التعليم المتوسط والثانوى ٠ ولما كان الجماع بين من لا يرتبطون بالزواج - مثلا - أمرا طبيعيا، وفقا لعرف ذلك المستوى كما ذكرنا ، فاننا نرى المسئولين فى الدوائر البوليسية لا يحرصون على تطبيق القانون فى هذه الحالة الا نادرا ، وعندما يدفعون الى ذلك ، تحت ضغط أفراد من المستوى الراقى !٠٠ **ذلك لان من العسير على الشرطى او المخبر - الذى لم يستكمل تعليمه - ان يشعر بان فى الامر**

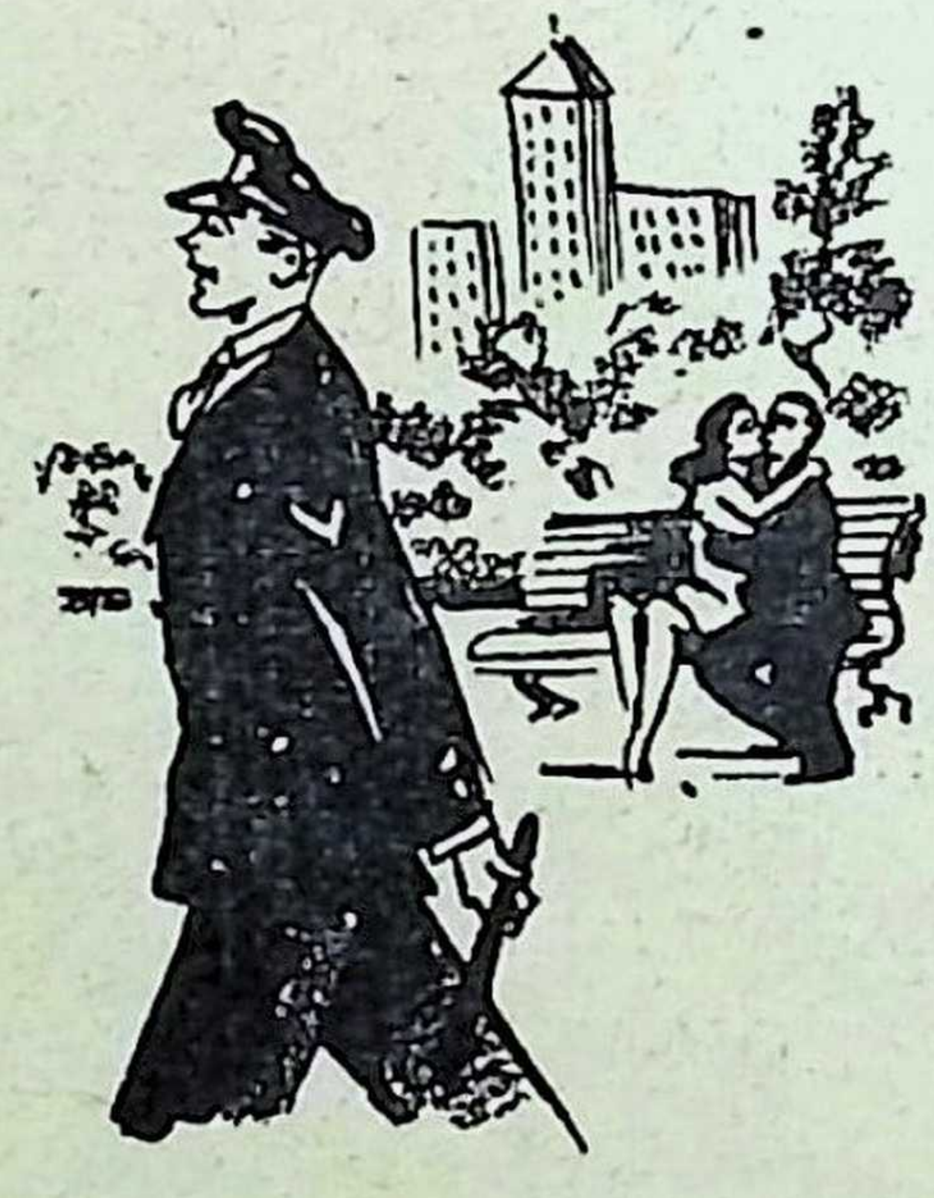

جناية ؛ اذا ما وجد فتى وفتاة يمارسان نشاطا جنسيا مارسه هو عندما كان فى سنهما ، وعرف ان معظم الشباب فى الوسط الذى نشأ فيه مارسوه ويمارسونه ! .. ومن ثم فرجل البوليس هذا لا يحرص على تطبيق القانون فى حالات الجماع بغير زواج، آلا اذا كانت لديه ضغينة ضد مرتكبى الذنب ، أو كان أحد الشريكين فى الجماع يكبر الشريك الآخر فى السن بنسبة كبيرة ، أو كان الجماع بين شخصين ينتميان الى عنصرين مختلفين ـ كالابيض والزنجى ! ـ وقد يبدو فى تصرف رجل البوليس عبثا بالقانون ، ولكنه فى الواقع تصرف يقوم على فهمه لحقائق لا يدركها أبناء المستوى الراقى !

ومن الغريب ـ بعد هذا ـ أن نجد أن رجل البوليس قد يصر اذا ما فاجأ صبيا يمارس العادة السرية على أن يقود هذا الصبى الى المحكمة ويدعو الى ارساله الى احدى اصلاحيات الاحداث ! .. والاغرب من هذا ، أن الذى يبت فى الامر ، يكون عادة من ذوى التعليم العالى ، فهو يرى ان الاستمناء أخف وطأة من الشذوذ الجنسى ، وان ذنب الصبى الذى يمارس العادة السرية ، أقل من ذنب الذى يمارس علاقة جنسية مع فرد من جنسه ! .. **فالحكم ـ فى القضايا الجنسية ـ يتأثر عادة بالعرف السائد فى المستوى الذى ينتمى اليه القاضى . وقسوة القاضى فى بعض الاحكام انما تنبعث عن دفاع عن العرف الذى يسود مستواه الاجتماعى !!** ولكن أبناء المستويات الادنى لا يفهمون هذا ، فهم يلومون القاضى ، بل ويلومون القانون الذى لا يقوم على تعرف الحقائق الواقعة .. لان الحقائق

الواقعة فى عرفهم تغاير تلك التى فى عرف المشرع والقاضى !

موقف القضاة والرأى العام ازاء جرائم الجنس

◆ **ويبدو** تأثير العرف بأجلى صوره اذا درسنا قرارات اتخذها قضاة نشأوا فى أوساط اجتماعية مختلفة ، لاسيما اذا كان بينهم قضاة نشأوا فى مستوى اجتماعى منخفض ، ثم اكتسبوا مراكزهم القانونية بالدراسة فى غير أوقات العمل ، كالذين ينتسبون الى كليات الحقوق !٠٠ فالقضاة الذين نشأوا فى مستوى راق قد يميلون الى الحكم بأقصى العقوبات فى نسبة كبيرة من القضايا الجنسية ، فى حين ان القضاة الذين نشأوا فى مستوى منخفض قد يكتفون بأدنى العقوبات !٠٠ **ولو أدرك هذا رجال البوليس ، والاخصائيون الاجتماعيون ، ورجال النيابة الذين يتولون التحقيق ، لحرصوا على أن تحال قضايا أبناء المستوى المنخفض الى قضاة من مستواهم ، يدركون فلسفة الوسط الذى نشأوا فيه !**

ولو ان جماعة من الناس ــ مدينة أو بلدة أو قرية ــ أثارتها قضية جنسية حدث فيها هتك عرض ، أو موت نشأ عن علاقة جنسية ، فان قاضى التحقيق ــ الذى ينتمى الى مستوى راق ــ قد يتزعم المسئولين فى المطالبة بالقاء القبض على كل الذين ينتهكون القوانين الخاصة بالجنس ، فى الجماعه ٠ وتلاحق الصحف رجال البوليس ، مما يؤدى الى حركة اعتقالات ومحاكمات يقضى فيها على كل مذنب بأقصى العقوبات !٠٠وقد تستمر هذه الحال فترة ، ولكن المسئولين لا يلبثون ان يتبينوا أن الامر أوسع نطاقا من كل هذا

ذلك لاننا اذا رجعنا الى الاحصاءات التى سبق نشرها ، لوجدنا أن ٨٥ فى المائة من مجموع سكان الولايات المتحدة ، مارسوا الجماع قبل الزواج ، وان ٥٩ فى المائة قد مروا بتجارب المعابثة عن طريق الفم ، كما ان ٧٠ فى المائة على

علاقات بالبغايا والمومسات ، وما بين ٣٠ و٤٥ فى المائة من المتزوجين يجامعون غير زوجاتهم ، و٣٧ فى المائه على علاقات مع أفراد من جنسهم ، و١٧ فى المائة من الصبية الريفيين يجامعون الحيوان ٠٠ وكل هذه ألوان من النشاط غيرمشروعه، تجعل مرتكبها واقعا تحت طائلة العقاب ٠ **والمهم هو أن مباشريها يمثلون ٩٥ فى المائة من مجموع الذكور فى الولايات المتحدة ٠ فالقاضى ورجل الامن العام ورجل الكنيسة والصحفى وقادة الرأى العام ، الذين يطالبون ـ بعد كل جريمة جنسية شنيعة ـ بتطهير الجماعة ممن ينتهكون القوانين الاخلاقيه المتعلقة بالجنس ، انما يطالبون بالقاء ٩٥ فى المائة من مجموع الذكور بين الجماعة ، فى السجون والاصلاحيات !**

ولقد يحكم القاضى على المذنب فى جناية جنسيه بعقوبه قاسية ، لانه لا يدرك العرف الذى نشأ عليه هذا المذنب ٠٠ وقد يبرر القاضى طول مدة العقوبة برغبته فى افساح الوقت لاصلاح المذنب ، ولكنه ـ هنا أيضا ـ يخفق فى فهم الجذور العميقة للسلوك الجنسى ٠ **فان البيانات التى توفرت لدينامن دراسة حالة ١٢٠٠ شخص ممن سجنوا لاسباب جنسية ، تدل على أن من عدلوا منهم سلوكهم نتيجة للسجن والعقاب ، أو نتيجة لأى حدث وقع لهم بعد ان تجاوزوا منتصف العقد الثانى من أعمارهم ـ أى الخامسة عشرة ـ قلة ضئيلة !** وليس هذا لانهم تدهوروا الى الدرك الاسفل ، أو لانهم مستهترون أو مختلفون عن بقية الناس ، وانما هو راجع الى أن ألوان السلوك الجنسى تحدد لكل الناس وفقا للعرف والعادات فى الاوساط التى ينشأون فيها !

الصراع بين الجماعات يضارع الصراع بين الامم !

٭ **ولقد** يتلقى المذنب فى جناية جنسية ، محاضرات ومواعظ فى السجن أو الاصلاحية ٠ ولكن المحاضرين أو

الوعاظ غالبا ما يكونون ذوى سلوك جنسى مختلف عن سلوك هذا المذنب . ومن هنا نجدنا أمام لغز غامض يتعلق بطبيعة نفس النشاط الجنسى الذى عوقب من أجله المذنب ، ويؤدى الى انفعالات نفسية تنفره من جميع من كان لهم مساس أو علاقة بعقابه .. من القاضى الذى حكم عليه ، متأثرا بعرف مستوى اجتماعى أرقى من مستوى هذا المذنب ، الى المحاضر أو الواعظ الذى ينصحه ، متأثرا بسلوك جنسى غير سلوكه !

لهذا كان من واجب الذين يحاولون أن يسيطروا على سلوك سواهم ، أن يوجهوا اهتمامهم الى تحديد مدى انحراف الفرد عن سلوك الجماعة التى ينتمى اليها . فان الاحتكاكات والخلافات بين المستويات الاجتماعية ، تصارع فى شدتها الاحتكاكات والخلافات بين الامم ، وبين الثقافات ، وبين العناصر البشرية ، وبين أشد الطوائف الدينية تطرفا !.. على أن الاطراف التى يمسها هذا النزاع لا تكاد تشعر به ، لان كلا منها لا يفهم تباين ألوان السلوك بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، وجل ما يظنه أى طرف ، هو انه فى نزاع مع فرد معين ، هو ذاك الذى ينتهك حرمة الآداب أو القوانين

ثبات السلوك الجنسى للفرد وللجماعة !

◆ **ننتقل** من هذا الى الحديث عن استقرار ألوان السلوك الجنسى . **وهنا نعود فنذكر القارىء بأن ثمة تباينا كبيرا فى السلوك الجنسى بين أفراد الجماعة الواحدة ، أو الطبقة الواحدة من المجتمع ، أو الطائفة الواحدة** . وهذا التباين يشمل عدد مرات التفريج الجنسى ، واختيار أنواع التفريج ، ومدى اقبال الفرد على كل نوع منها ، كما انه يتناول مختلف المسائل الجنسية الاخرى . على أن هذا التباين – فى مجموعه ، وفى نسبته الى الاتجاه العام فى الجماعة – لا يمنع من تحديد سلوك جنسى عام لهذه الجماعة

هبوط الظلام فى وستمنستر ، بلندن

لوحة فوتوغرافية للمصور « ه . ا . مورش »

الريح .. لوحة فوتوغرافية للمصور « يوين هون فانج » (من هونج كونج)

ولكى نستوثق من مدى ثبات ألوان السلوك الجنسى ، ومن بعض التغيرات التى قد تطرأ على هذه الالوان فى فترة حياة الافراد ، وبين جيل وآخر منهم ، عمدنا الى طريقتين : الاولى تتمثل فى مقارنة الاحداث ومتوسط عدد مرات التفريج الجنسى لدى جيلين متعاقبين من الافراد ٠٠ والثانيه تتمثل فى مقارنة ألوان سلوك الافراد بألوان السلوك العام فى الطبقات الحرفية والمهنية التى ينتمى اليها آباء هؤلاء الافراد ، والتى ظل فيها الابناء ، أو انتقلوا منها الى طبقات مهنيه أخرى

ويعتقد الكثيرون أن ألوان السلوك الجنسى تعرضت لتغيرات كبيرة خلال الجيل أو الجيلين الاخيرين ٠ ويرى البعض ان الدنيا تسير باطراد نحو السوء والشر !٠٠ فنجد ان الذين ينتقدون حال الدنيا ـ من أبناء المستوى الراقى ـ يعيبون على جيل الشباب الحالى ازدياد اقباله على الجماع فى السنوات السابقة للزواج ، وقلة وفاء الرجال لزوجاتهم ، والتهور فى المغازلة وما يختلط بها من أحاج غامضه لا يفهمها المسنون ، وانما يحكمون من هذه الظواهر بأن المقاييس الخلقية فى انهيار لدى الشباب !٠٠ أما الذين ينتقدون حال الدنيا ـ من أبناء المستوى الادنى ـ فلا تنفسح أمامهم الفرص لنشر آرائهم ، ولكنهم مع ذلك يعتقدون أن الصغار يقبلون على المسائل الجنسية مبكرين ، وان الجيل الجديد من أبناء خير الطبقات علما وثقافة فى الامة يندفع فى الضلال الى أبعد الحدود ! على أن « الضلال » فى رأى أبناء المستوى الادنى ـ كما ذكرنا من قبل ـ يتمثل فى ممارسة البالغ للاستمناء ، والمغازلة ،والاثارة بالفم ، وتنويع الاوضاع التى يكون عليها المتجامعان ،والشذوذ الجنسى المتمثل فى جماع أفراد من نفس الجنس

سر انتقاد الجيل القديم للجيل الجديد !

• على ان من المهم هنا ان نؤكد ان البحث والدراسة خلال

تسع سنوات لم يؤديا الى بيانات سليمة – من الناحية الاحصائية – تبرر أية مقارنه ذات موضوع بين أى جيل سابق والجيل الحالى . والارجح أن انتقاد الجيل القديم لمسلك الجيل الجديد انما يرجع الى أن الاول لم يكن يعرف قدرا كبيرا من المعلومات عن التصرفات البشريه فى صغره ، وانه لم يتعرف الى الحقائق الراسخة عن الحياة الا منذ عهد قريب !

وللتدليل على هذا ، عنينا باجراء مقارنة دقيقة بين الجيلين القديم والجديد اللذين ساهما فى دراستنا هـذه ، فقسمنا جميع العينات التى درسناها – من الذكور – الى فريقين متقاربين فى الحجم ، أحدهما ضم كل من تجاوزت أعمارهم الثالثة والثلاثين عندما أفضوا الينا ببياناتهم – فكان متوسط العمر فى هذا الفريق ٤٣ سنة تقريبا – والآخر ضم كل من لم يبلغوا الثالثة والثلاثين فى وقت الافضاء ببياناتهم ، فكان متوسط العمر بينهم ٢١ سنة تقريبا . أى ان الفارق بين متوسطى العمر فى الفريقين ٢٢ سنة

وبالتالى ، كان الجيل الاكبر يمثل أولئك الذين كان شبابهم –ومرحلة اشتداد نشاطهم الجنسى– بين سنتى ١٩١٠ و١٩٢٥ ، **فهم الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الاولى ، ويعتبرون مسئولين عن الضجة التى أثيرت حول العقد الثالث من هـذا القرن – أى بين سنتى ١٩٢٠ و١٩٣٠ – وهى الفترة التى يعتقد الكثيرون أن الانحلال الخلقى فى أمريكا بلغ درجة لم تعهدها البلاد من قبل . ومع ذلك فان هذا الجيل يعتقد ان شباب اليوم أشد اندفاعا وجموحا فى سلوكه !**

أما فريق الجيل الثانى – الاصغر – فمعظم أفراده ممن بلغوا ذروة النشاط الجنسى بين سنة ١٩٣٠ وأيامنا هذه .

البحث العلمى يكذب المزاعم عن تدهور الاخلاق !

• **وبمراجعة** البيانات التى جمعناها من كل من الفريقين ، نجد :

(١) : هناك تطابق شبه تام بين ابنـاء الجيلين المتشابهين فى درجة التعليم ، فى ألوان السلوك التالية :

الذين تلقوا تعليما عاليا : الاستمناء ، الاحتلام ، مجامعـة الجنس الآخر ، الجماع عامة قبل الزواج ، مجامعة المومسات، عشق الجنس للجنس

الذين لم يتجاوزوا المرحلة الاعدادية : مجامعة المومسـات

(٢) : هناك تعادل فى عدد الافراد ـ من أبناء الجيلين ـ الذين زاولوا الجماع مع الجنس الآخر ،والجماع قبل الزواج، فى المستوى الذى لم يتجاوز المرحلة الاعدادية فى الدراسة .. **وان كان الجيل الاصغر يسبق الجيل الاكبر فى بدء النشاط الجنسى بعام او اثنين**

(٣) : يزيد عدد الافراد من الجيل الاصغر على عدد الافراد من الجيل الاكبر من المستويين التاليين ، فى ممارسـة ألوان النشاط الجنسى التالية أيضا :

الذين تلقوا تعليما عاليا : الغزل والمداعبـة دون قذف ، والغزل والمداعبة الى درجة القذف

الذين لم يتجاوزوا المرحلة الاعدادية : الاستمناء ، الاحتلام، الغزل والمداعبة

وهنا أيضـا نجد ان ابنـاء الجيل الاصـغر بدأوا نشاطهم الجنسى مبكرين عن ابناء الجيل الاكبر

ونجد ـ بوجه عام ـ ان ألوان السلوك الجنسى لدى الجيل الاصغر ، تشبه الى درجة شبه تامة مثيلاتها لدى الجيل الاكبر، فى كثير من أنواع النشاط الجنسى ، **مما يثبت ان الاعتقـاد السـائد بأن الجيل الاصغر أصبح أكثر نشـاطا فى علاقاته الاجتماعية الجنسية من الجيل الاكبر ، انما هو اعتقاد لايقوم على أساس سليم !**

ليدخر المتباكون على الاخلاق دموعهم !

◆ **واذا** كان عدد من يمارسون الاستمناء والاحتلام والغزل من ابناء الجيل الاصغر يزيد على عددهم فى الجيل الاكبر ، كما ان نشاط الفريق الاول بدأ مبكرا عن نشاط الفريق الثانى ، الا أن هذا لايقوم دليلا كافيا على ان الجيل الاصغر أكثر خلاعة او فجورا من الجيل الاكبر ·· لاسيما اذا اعتبرنا التطابق الذى يكاد يكون تاما بين الجيلين فى أنواع النشاط الاكثر جدارة بالاعتبار ، وهى : الجماع قبل الزواج مع فتيات ومع مومسات ، والجماع مع أفراد من نفس الجنس · وفيما يتعلق بهذا النوع الاخير ، لم نستطع ان نعثر فى البيانات على أى دليل يثبت ان عدد ممارسيه من ابناء الجيل الاصغر قد زاد عن عددهم فى الجيل الاكبر !

وهكذا يجدر بالذين يتباكون على حال الدنيا أن يرجعوا الى البيانات العلمية قبل ان يذرفوا دموعهم !

وهناك ملاحظة جديرة بالاعتبار · تلك هى انه حيثما تدل البيانات على آن الجيل الاصغر بدأ نشاطه مبكرا عن الجيل الاكبر ، نجد ان هذه الظاهرة تقتصر على المستويات العلمية المنخفضة ـ التى لم تتجاوز الدراسة الاعدادية ـ ولعل مرد ذلك الى تحسن الاحوال الصحية والرعاية الطبية والتغذية ، مما ادى الى تحسن الصحة العامة للجيل الاصغر عنها لسابقه· ولعل القارىء يذكر ما اثبتناه ـ فى جزء سابق ـ من ان ابناء الجيل الراهن من ذوى المستوى الاجتماعى المنخفض يصلون الى سن البلوغ مبكرين عن الجيل او الجيلين السابقين بحوالى عام ·· ولكنا لانجد دليلا على وجود مثل هذه الظاهرة بين آبناء المستوى الراقى ـ فى الجيل الراهن ـ ولعل مرد ذلك الى آن ابناء هذا المستوى من الجيل السابق لم يكونوا أقل حظا من التغذية عن زملائهم فى الجيل الحاضر ·· وهذا يدعم ماذكرناه في اول هذه الفقرة ·

وأخيرا ، لايفوتنا ان نذكر ان الجيل الاصغر لم يعدل سلوكه الجنسى الا ازاء الاستمناء والغزل المصحوب بالمداعبة • اذ كانا شائعين من قبل فى المستويات الاجتماعيه الراقية ، فانتقلا اليوم الى المستوى الادنى • وهناك مايؤكد ان الاتجاهات والآراء قد تتطور فى الخفاء قبل ان يتجلى تغيرها فى العلن بوقت طويل ، لاسيما فى العلاقات الاجتماعية الجنسية

الجنسى •• بين جيلين فى أمريكا !

◆ أما من حيث الاقبال على التفريج الجنسى ـ أى عدد المرات ـ فان المقارنة بين الجيلين تنم عن وجود تباين يفضى الى استنتاج مايلى :

١ ـ **التفريج الجنسى الاجمالى** : يتقارب مجموع عدد مرات التفريج لدى الذكور ذوى التعليم العالى ـ من الجيلين ـ من غير المتزوجين ، بين البلوغ وسن الثلاثين ، وبين الذكور المتزوجين من نفس المستوى بين الحادية والعشرين والثلاثين من العمر

أما لدى غير المتزوجين من المستويات التعليميه التى دون ذلك ، فان عدد مرات التفريج يزداد كثيرا لدى الجيل الاصغر عنه لدى الجيل الاكبر فى كل فئة من فئات العمر بين البلوغ وسن الثلاثين • وكذلك الحال لدى المتزوجين من ابناء الجيل الاصغر • وتبلغ الزيادة أقصاها لدى الذين لم يتجاوزوا مرحلة الدراسة الاعدادية ، ولكنها أقل من ذلك لدى الذين تلقوا الدراسة الثانوية

٢ ـ **الاستمناء** : هنا أيضا نرى ان عدد مرات ممارسة الاستمناء بين الذكور ممن أتموا التعليم الجامعى ، وجميع الذكور ماعدا الذين تلقوا قسطا من التعليم الثانوى ، تتقارب فى الجيلين • بيد انها لدى ذوى المستويات التعليمية المنخفضة من أبناء الجيل الاصغر ، تزيد بشكل ملحوظ عنها لدى زملائهم من الجيل الاكبر

٣ - **الاحتلام** : يكاد عـــدد مرات حـدوث الاحتـلام لدى المستويات الراقية والدنيا ان يتعادل فى الجيلين

٤ - **الغزل والمعابثة الى ذروة اللذة** : هنا نجد زيادة بسيطة لدى الجيل الاصغر ، فى جميع المستويات الاجتماعية

٥ - **الجماع مع زميلات قبل الزواج** : هنا أيضا يقترب عدد المرات لدى ذوى التعليم العالى من الجيلين ، وان كانت هناك زيادة ملموسة فى أوائل البلوغ لدى أبنـاء الجيل الاصغر . أما لدى المستويات التعليمية الدنيا ، فان عـدد المرات يزداد فى الجيل الاصغر عنه فى الجيل الاكبر بدرجة ملحوظة

٦ - **الجماع مع عاهرات قبل الزواج** : هنا نجد ان عـدد المرات فى هذه الناحية لدى الجيـــل الاصغر ، أقل منه لدى الجيل الاكبر فى جميع المستويات التعليمية . وتكاد الارقام فى الجيل الاصغر تبلغ ثلثى أرقام الجيل الاكبر ، بل انهـا تقرب من النصف لدى ذوى التعليم الثانوى . ولا شك فى ان هذا النقص راجع الى الحملات التعليمية والتربوية التى تربط البغايا بالامراض السرية ، والى الحملات القانونية ضد البغاء المنظم فى خلال الاثنين والعشرين عاما التى تفصل بين الجيلين

٧ - **الجماع بمختلف أنواعه قبل الزواج** : اذا قارنا عـدد المرات بين الجيلين الاكبر والاصغر ، وجدناه متعادلا بين ذوى التعليم العالى فى الجيلين ، ولكنه بين ذوى التعليم الاعـدادى يزيد فى الجيل الاصغر عنه فى الاكبر . **وقد أدت الحملة ضد البغاء الى تحويل نسـبة تتراوح بين ثلث ونصف الذكور عن المومسات الى فتيات أخريات**

٨ - **عشق الجنس للجنس** : يبدو هنـــا تغيير بسيط فى فئات العمر المتقدمة فى الجيلين ، كما ان هناك زيادة واضحة فى عدد المرات لدى صـــغار البالغين ، ولكننا لا نجد تغييرا مطردا فى الفئات التى تلى سن السادسة عشرة أو العشرين . وفى فئـات معينة من العمر ، فى مستويات تعليميه معينه ،

نرى ان الجيل الاصغر أكثر نشاطا من الجيل الاكبر ، فى حين ان هناك فئات أخرى نرى فيها ان الجيل الاكبر هو الاكثر نشاطا . **وعلى أقصى تقدير ، لا نعثر الا على سند ضئيل للاعتقاد الشائع عن ان « الفساد الجنسى » أو « الفجور » فى ازدياد . ونعل مرد هذا الاعتقاد الى أن أبناء الجيل الاكبر لم يكونوا فى شبابهم شاعرين بمدى النشاط الجنسى الشاذ فى جيلهم !**

٩ ـ **الجماع بين الازواج :** ليس هناك مايوحى بتغير فى الجيل الاصغر عن الجيل الاكبر فى عدد المرات ، وان وجد مايوحى باتجاه نحو الازدياد لدى الذين لم يتجاوزوا فى تعليمهم المرحلة الاعدادية

١٠ ـ **جماع المتزوجين مع غير زوجاتهم :** هناك ازدياد فى هذه الناحية لدى ذوى التعليم الاعدادى والتعليم الثانوى أو المتوسط فى الجيل الاصغر ، فى السنين الاولى للزواج على الاقل . أما لدى ذوى التعليم العالى ، فان الزيادة فى جانب الجيل الاكبر !.. على أن الحالات التى درسناها كانت جد قليلة ، بحيث لايمكن الجزم بهذه النتيجة

السلوك الجنسى أثبت من ان تغيره التطورات والحروب !

◆ هذه المقارنة بين جيلين تعطى دليلا قويا على استتباب وثبات العرف والعادات الجنسية . ولقد رددنا مرارا ان كثيرا من اتجاهاتنا ازاء الجنس ليست سوى أمور استقرت فى الفلسفة الدينية التى وردت فى التوراة ، بل وربما قبل ذلك، وليس هناك مايدل على أن التحليل العلمى سيبدل بسرعة مثل هذا السلوك العميق الجذور . **فاذا دلت البيانات التى أوردناها عن المقارنة بين الجيلين على وجود بعض تغييرات ، فاننا نجد ان هذه التغييرات لا تمس سوى بعض تفصيلات تافهة فى السلوك ، ولكنها لا تتضمن تغييرا أساسيا فى النشاط العام،**

أى اننا لا نجد تحولا عن نوع من التفريج الجنسى الى نوع آخر ، كتحول الذكور عن الاستمناء الى مجامعة الاناث مثلا .
ولقد شهدت العشرون أو الثلاثون عاما ـ التى تفصل بين الجيلين اللذين درسناهما ـ كثيرا من التطورات ، فانتشرت الآلات ، وتيسرت المواصلات ، واتسع التعليم ، وقامت ثورات وانقلابات سياسية ، وتغيرت النظرات الى الامور الدينية ، ونشبت حربان عالميتان على نطاق لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، وحشد الشباب الامريكى مرتين للخدمة العسكرية فاتصل بألوان من السلوك الجنسى تمثل كافة المستويات الاجتماعية فى الولايات المتحدة ، كما تمثل كثيرا من ألوان السلوك الجنسى لدى أمم أخرى ، ثم أعقبت الحربين فترتان خيل للكثيرين أنهم رأوا فيهما انهيارا خلقيا لم يسبقه مثيل . وكانت هناك فترات تضخم مالى جامح ، وانتشار موسيقى « الجاز » العنيفة .. كانت هناك فترات رخاء ، وفترات ضيق وكساد . وأنفقت هيئات معينة ملايين الدولارات بغرض تغيير العادات الجنسية للأمة الامريكية ، وظهر كثير من التشريعات الجديدة للمسائل الجنسية ، واستخدم رجال بوليس الاتحاد الامريكى للمرة الاولى فى التاريخ ، لفرض القوانين الجنسية على الأمة بأسرها . **ولكن كل هذا لم يؤد الى أكثر من تغييرات ضئيلة فى بعض الاتجاهات فى السلوك الجنسى الامريكى !**

وفى العدد القادم ، نواصل جولتنا فى هذه الدنيا العجيبة .. دنيا الجنس !

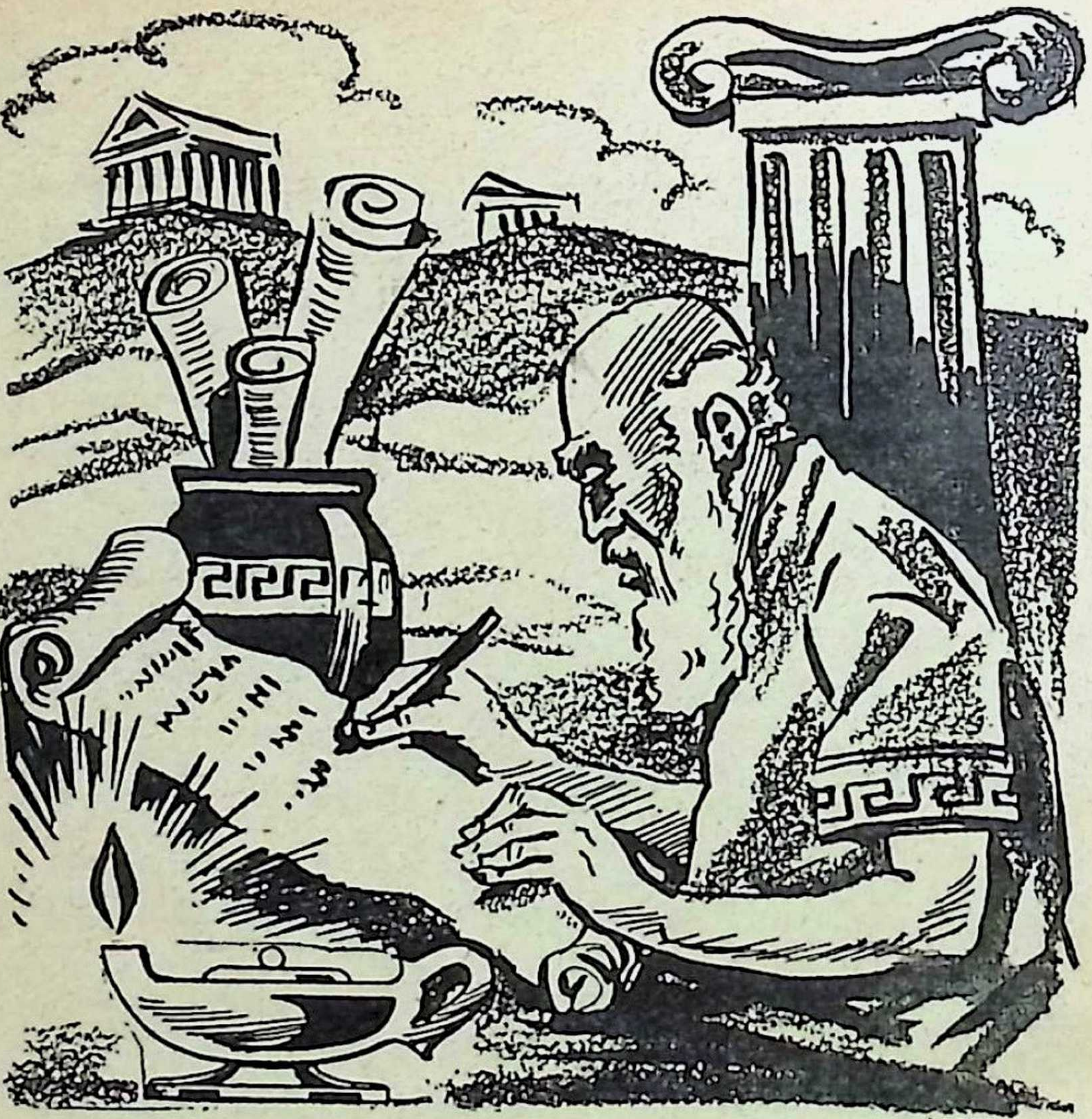

الأيام.. والأعمال!

أقدم دستور أخلاقي في تاريخ البشرية!

للشاعر الاغريقي القديم "هسيود"

تلخيص : أمين سلامة

هذا « النبى » .. له انجيل ودستور !

◆ عاش فى عصر ربما سبق عصور الكثيرين ممن عرفناهم من الانبياء الذين وردت سيرتهم فى الكتب السماوية ، ومع ذلك فان المرء يستطيع أن يجد شبها كبيرا بين تعاليمه وتعاليم الانبياء ، بل ان من نصائحه ما يكاد يطابق - فى الاسلوب والصيغة - الحكم والنصائح التى وردت فى التوراة على السنة بعض الانبياء .. ذلك هو الشاعر الاغريقى « هسيود » الذى جعل رسالته : الدعوة الى الاخلاق والسلام، وتنبيه الظالمين من الحكام والمرتشين من القضاة

فتعال نقرأ معا « انجيل » هذا النبى من انبياء الفكر والاخلاق ، فى عهد لم يكن الانسان قد اهتدى فيه الى التوحيد وعبادة الاله الواحد بعد !

صاحب أعظم مجد .. بين البشر !

◆ كان شاعرا اكتسب فى زمنه شهرة فاقت شهرة « هوميروس » ، ولكن الكتاب تناقلوا أشعار هوميروس وتركوا أشعار صاحبنا هذا ، لانه كان واقعيا ، والناس تهوى الخيال الذى ينأى بها عن الواقع !

ذلك هو « هسيود » .. المثل الاول فى تاريخ البشرية للرجل صاحب الرسالة ، الذى يأخذ على عاتقه تناول مظاهر الحياة بالبحث والتحليل ليصل الى أعمق معانيها .. والذى يستوحى الهاما خفيا ساميا - كان يخاله منبعثا من جبال اوليمبوس - خير رسالة ودستور للانسان فى الحياة .. فهو - بهذا المعنى - معلم من معلمى البشرية .. بل هو أول معلم من نوعه تكشف تاريخه حتى الآن !

وكان الدستور الذى بشر به « هسيود » هو : « قل كل ماهو حق وصدق، وكل ماهو نافع ومفيد .. لبنى جلدتك ! » .. وقد حرص على أن يوجه رسالته الى طبقات الشعب الوسطى والفقيرة كما وجهها للطبقة الارستقراطية - فلم يفعل كهوميروس الذى قصر أشعاره على الحكام والامراء ! - وكان همه موجها الى الجميع .. كان كالأب ، يوزع حكمته على كل ابنائه فى عدل ومحبة ، فاذا وجد بينهم ضعيفا أخذ بيده ، واذا وجد بينهم طاغية نصحه وارشده .. وكذلك كان « هسيود » ينصف الفقير ، ويهدى الامير ، ويسعى الى ان يعيش الجميع فى سلام وسعادة ورخاء . وتلك اخلاق الانبياء ، فلا عجب اذا كتب الناس على قبره : « هسيود : صاحب أعظم مجد بين البشر » ، واذا رثاه أحد الشعراء القدامى بقوله : « سلام عليك يا هسيود .. يامن امسكت بيدك معيار الحكمة للبشر ! »

ظلمه أخوه .. فكتب « انجيله » !

◆ وكما اشتغل معظم الانبياء بالرعى ، كان « هسيود » فى صغره يرعى الاغنام . كما انه اشتغل بالزراعة ليعنى بضيعة ابيه بعد موت هذا الأب ، فكانت له تجارب وخبرة مكنته فيما بعد من ان يعلم الناس الكثير عن الزراعة وشئونها ، وعن الطقس وتقلباته ، وعن الايام وانسبها لاعمال الزراعة !

وكان الوسط الذى نشأ فيه « هسيود » محدودا ، يتألف من أسرة قوامها أربعة أفراد : أب وأم وشقيقان « هسيود » احدهما ، والآخر يدعى «برسيس». فلما توفى الأب ، آلت الضيعة الى الشقيقين ، ولكن الطمع وسوس الى « برسيس » بأن يستعين بالامراء ، فاغرقهم بالهدايا والرشاوى حتى مكنوه من ان يفوز بنصيب الاسد من الميراث . وصبر « هسيود » على الامر محسورا ، الى ان بدد أخوه كل ثروته فى الترف والملذات ، واضطر الى أن يلجأ اليه ملتمسا عونه ، ولكن هذا اعرض عنه ونأى ، فسول الشر لبرسيس ان يلجأ الى المحاكم ، وهو واثق من انه يستطيع شراء ذمم القضاة بالرشوة .. بينما اوحت الحكمة الى هسيود بان يرفض المثول بين أيدى قضاة مرتشين جشعين ، وانذر اخاه بان التجاءه الى هؤلاء القضاة خليق بأن يكبده فوق ماسوف يساعدونه على كسبه زورا !.. ودعاه الى ان يحتكما معا الى « زوس » كبير الآلهة ، وهذه النصيحة هى التى ضمنها منظومة « الاعمال والايام » التى نقدمها لك فيما يلى :

◆ **هلمى** الى يا ربات الشعر ، يا مانحات الصيت بالاغانى .. حدثننى عن «زوس» وتغنين بمدح أبيكن الذى به تذيع شهرة البشر أو لا تذيع .. فمن السهل على « زوس » العظيم أن ينفث القوة فى الضعيف ، وما أيسر ما يجرد القوى من قوته ، وان يحط من شأن المتكبر ويرفع من شأن المتواضع ، وأن يقوم المعوج ويبطش بالمتعجرف .. فيا زوس — يا مالك الصواعق السماوية ، ويا ساكن الصروح الشامخة — أعرنى أذنا صاغية وامنحنى عينا رائية ، وقوم القوانين ببرك

النزاع المؤدى للحرب والنزاع المؤدى للمنافسة !

◆ **أما** أنت يا أخى برسيس فسأحدثك بأمور حقيقية : لا يقتصر الكفاح على نوع واحد ، بل ان على وجه البسيطة

نوعين منه ، اذا أنعمت النظر فيهما ، ألفيت ان أحدهما جدير بمدحك ، والآخر أهل لقدحك . أما الاختلاف بينهما فاختلاف شاسع جلى ، اذ أن أحدهما يعين على الحرب الشريرة ، وعلى القتال الجائر ، فهو لذلك قد خلا من كل معانى الشفقة ، فلا تجد من يحن اليه من البشر . وما دامت القوة تعمل عملها ، وما دام تنفيذ ارادة الآلهة الخالدين أمرا لابد منه ، فقد حق على المرء أن يفى النزاع الصارم حقه من التكريم والتبجيل . أما النوع الآخر للكفاح فهو الابن الاكبر للظلام الدامس ،وابن « كرونوس » ـ الزمن ـ القابع فوق عرش السماء ، والقاطن فى أركان الفضاء .. غرسه من قبل فى منابت الارض ،فصار أكثر شفقة نحو البشر من أخيه ، اذ أنه يزرى بالخامل ، ويبصره بمحاسن سواه ، عسى ان ينافس الجار جاره ان رآه يسرع نحو الثراء ، ومثل هذا النزاع مفيد للبشر !

ضع يا برسيس ، هذه الاشياء فى أعماق قلبك . فلا تجعل النزاع الحقود يحول بينك ـ أو بين قلبك ـ والعمل ، فاذا أنت غافل تسترق السمع والنظر الى منازعات المحاكم . اذ ان من يعير المحاكم والقضايا شيئا من الاهتمام ، لابد ان يملك مايقيم به أوده لمدة عام . فاذا توفر القمح لديك ، استطعت أن تثير المنازعات والعراك حول أملاك غيرك .. ولكنك لن تجد فرصة لذلك ، بعد ان أضعت أرضك ومحصولك ، فدعنا الآن نفض النزاع القائم بيننا ..

لقد انتهينا من تقسيم ميراثنا ، ولكنك اغتصبت النصيب الاكبر ، فاستأثرت به لنفسك بعد ان أسرفت فى تكريم أمرائنا الجشعين ، الذين يميلون الى الهوى فى مثل هذه القضية ، فيا لهم من جهلاء ! انهم لا يعرفون كم يزيد النصف على الكل !

كيف خلقت المراة ؟

◆ ان الآلهة يخفون وسائل الحياة عن البشر ، وقد كان

فى وسعك ان تنجز فى يوم واحد من العمل مايقيم أودك عاما كاملا ، دون أن تعانى فى ذلك أية مشقة • **ولكن ظلم البشر يحيل الحقول - التى تعبت فيها الثيران والبغال - قفرا يبابا، ويجعل الشمس تغيب فى طيات الغيوم**

ان الآلهه يخفون وسائل الحياة عن البشر •• أخفاها « زوس » - كبير الآلهة - يوما ، حين مكر به « بروميثيوس » الداهية • وكان ان أخفى النار ، ولكن « بروميثيوس » سرقها منه لمنفعة بنى الانسان ، وخبأها فى قصبه نباتية لكى لايراها « زوس » رب الرعد ، ومجمع الغيوم • فصاح به زوس فى سورة الغضب : « أى بروميثيوس ، يا من فقت الجميع دهاء !•• أراك مغتبطا اذ نجحت فى خداعى وسرقة النار منى • فليحل بك - وبمن يخلفك فى الناس - بلاء عظيم • أما البشر فسوف أهبهم فى مقابل النار شيئا مؤذيا •• شيئا يملأ قلوبهم جميعا بالفرح ، دون أن يدركوا أنهم لا يحتضنون غير هلاكهم ! »

هكذا تكلم أبو البشر والآلهة وقهقه عاليا ، ثم أمر رب النار الشهير بأن يمزج التراب بالماء بأقصى سرعة ، ثم يبث فى المزيج صوت الجنس البشرى وقوته ، ليصبح هيكل فتاة جميلة جذابه ، تشبه الربات الخالدات فى الوجه ، ثم أمر « أثينا » بأن تعلمها التطريز لتخيط مختلف أنواع النسيج •• وأمر « افروديت » المذهبة أن تصب على رأسها اللين والشوق المثير والهموم التى تنهك الاعضاء !•• وأمر هيرميس القائد - رسول الآلهة - أن يضع فيها عقلا يخلو من كل معانى الحياء ، وطبيعة تحوى كل أنواع الخداع !

المرأة •• مصدر الهم والبلاء !

• **هكذا** أمر زوس ، فأطاعه الجميع ، وفى لمح البصر صاغ الاله الاعرج الذائع الصيت - اله النار - هيكل فتاة محتشمه

من الطين ، وفقا لرغبة زوس . وزينتها « أثينا » ذات العيون النجلاء ، ودثرتها بفاخر الملابس .. أما صاحبة الجلالة القدسية ربة الجمال والطاعة ، فقد خلعت عليها قلائد ذهبية ! .. وتوجت رأسها بأزهار الربيع حارسات أبواب السماء ذوات الشعور الفاتنة !.. وزينت أثينا قوامها بكل أنواع الترف والأبهة . **أما رسول الآلهة ، فقد حشا جوفها بالاكاذيب والكلمات الخداعة والطبيعة الماكرة ، محققا بذلك رغبة زوس صاحب الصواعق الصارخة . وبث رسول الآلهة الصوت فيها . ثم أطلق على هذه المرأة اسم « بندورا » . وقدم اليها كل واحد ممن يقيمون فوق جبل أوليمبوس هدية .. وكانت هذه المرأة بلاء لبنى الانسان الذين يحصلون على أقواتهم بعرق جبينهم !**

وما كاد زوس ينتهى من أحبولته المتقنة التى يتعذر مقاومة فتنتها ، حتى أرسل هيرميس المجيد - رسول الآلهة السريع - يحمل الفتاة هدية الى « ابيميثيوس » ، شقيق «بروميثيوس» . ولم يتذكر وقتئذ ابيميثيوس ما كان بروميثيوس قد أوصاه به ، اذ حذره من ان يقبل أية هدية من زوس الاولمبى ، وأمره بأن يرد اليه مايرسله ، مخافة أن تثبت الايام ضرره للبشر . ولكن أبيميثيوس لم يدرك أنه حصل على شىء ضار الا بعد أن قبل الهدية وصارت فى حوزته !

فقد اعتادت قبائل البشر - قبل حدوث هذا الامر - أن تسكن على الارض فى عزلة ، بعيدا عن الشرور والعمل المضنى والامراض الفتاكة التى تلحق بهم وهم يسعون للرزق ، والتى تجلب الشيب الى رؤوس الناس . **ولكن المرأة انتزعت غطاء الجرة - التى ضمت كل الهموم والبلاء - وبعثرت كل هذه الاشياء ، فجلبت بعملها الحزن والاسى للبشر !..** وبقى الامل فى ركن أمين خفى تحت حافة الجرة ، اذ أنه لم يستطع ان يفلت بجناحيه من ثغرها ، فقد أمسكت به الحافة .. بأمر

زوس حامل الدرع ومجمع السحب . وهكذا انطلقت شتى الاوبئة الاخرى تجـوس بين البشر .. وها هى ذى الارض مملوءة بالآثام ، والبحر مفعم بها ، والامراض لا تنفك تصيب الناس من تلقاء نفسها ليلا ونهارا ، تجر فى ذيلها الشقاء لبنى الانسان فى هدوء وصمت ، لان « زوس » العاقل جردها من النطق !

بالعدل .. تعمر المدن ويستتب السلام !

ه **ولقد** آن الاوان كى أروى للملوك أصحاب العقول احدى القصص .. فقد قال الصقر للبلبل ذى العنق الارقط ـ وهو يمسك به بين مخالبه محلقا عاليـا فوق السحب ، والآخر يستنجد طالبا الرحمة ، مستغيثا من مخالب الصقر المعقوفة التى كانت تنهش فيه نهشا : « لماذا تولول أيها الشقى؟.. ان الذى يمسك بتلابيبك الآن يفوقك قوة الى حد كبير ، فعليك أن تصحبنى الى حيث أقودك دون أن تحرمنى من تغريدك ، فان شئت جعلتك طعـامى ، وان رغبت أطلقت سراحك !.. ان الاحمق هو الذى يحاول مقاومة من هو أقوى منه ، لان الغلبة لن تكون حليفته مطلقا ، بل لسوف يعانى الالم علاوة عـلى حمرة الخجل ! » . هكذا قال الصقر السريع الطيران ، الطويل الجناحين

فعليك يابرسيس أن تصغى الى الحق ، وأن لا تحبذ العنف . **فلا خير فى العنف لرجل فقير معدم ، ولا خير فيه حتى للثرى ، لانه لن يستطيع تحمل مغبته بسهولة ، بل تراه ينحنى تحت ثقله اذا ما غرق فى بحار الغرور !.. ان أنجع الوسائل هو الانتقال الى الطرف الآخر : العدالة ، فان العدالة تنتصر عـلى العنف فى نهاية الشـوط . وما بال الاحمق لا يتعظ الا اذا ذاق مرارة الالم ؟..** ان الايمان الكاذبة سرعان ما تتكاتف مع الاحكام المبتورة ، فتسمع لها ضجيجا اذا ما جرت العدالة فى

ذلك التيار الذى يقف فيه ملتهمو الهدايا لينزلوا القصاص بالابرياء بزائف الاحكام !.. وأن العدالة لتنتقل الى المدينة ، والى منازل الناس ، ملتحفة بالضباب ، حاملة الشقاء لبنى الانسان ممن طردوها ، وممن حادوا فى معاملتهم لها عن الصراط المستقيم !

أما أولئك الذين يصدرون الاحكام العادلة — سواء للاغراب أو للمواطنين — دون أن يجانبوا العدل ، فان مدينتهم تنتعش ، وتحل السعادة علىّ القاطنين فيها ، ويحمل السلام — عاهل الاطفال — متاعه الى بلادهم !.. ولن يثير زوس ، الثاقب النظر ، الحروب الضروس ضدهم قط ، ولن تسكن المجاعة أو التعاسة بين قوم يحكمون بالعدل . ومن ثم فانهم يولون انتباههم بصدور يعمرها الاغتباط ، الى الحقول التى هى كل همهم فى الحياة ، فتحمل الارض لهم قوتا كثيرا ، وعلى الجبال تحمل شجرة البلوط الحبوب فوق قمتها ، والنخيل فى منتصفها . ويغزر انتاج صوف أغنامهم ، وتلد نساؤهم أبناء يحاكون آباءهم ، فينعمون دائما أبدا بأطايب الاشياء . ولن تدفعهم الضرورة لركوب البحر فى السفن ، لان الارض المثمرة تعطيهم كل ما يحتاجون اليه من فاكهة !

انتقام العدالة لنفسها !

أما من يجعلون جل اعتمادهم على أعمال العنف والقسوة والجفاء ، فان زوس البعيد النظر قد قرر لهم عقابا صارما . وكم من مدينة بأسرها قاست من جراء جرم أو عمل تهوزى أتاه أحد رجالها الاشرار . **وكم من كروب — ممثلة فى الجوع والطاعون معا — صبها عليهم زوس من السماء ، فضيعت الرجال ، وحرمت النساء ولادة الابناء ، وانقرضت دورهم ، وفقا لتدبير زوس الاوليمبى**

كذلك أنتم ، أيها الامراء .. جدير بكم أن تضعوا هذه

العقوبة نصب أعينكم ، فان الآلهة الخالدين يعيشون قريبين من البشر ، فيلاحظون الذين يظلمون غيرهم بأحكام خلت من مظاهر الشرف ، دون أن يبالوا بغضب الارباب !٠٠ ولا غرو فان لزوس فوق الارض الطيبة مايربو على الثلاثين ألف اله خالد ، يقومون كلهم بحراسة البشر ، ومراقبة أحكامهم ، وحساب أعمالهم العنيفة ، وهم يجوسون خلال مسالك الارض بأجمعها ، متدثرين فى حلل من الرذاذ !

وهناك أيضا العدالة ، تلك العذراء المنحدرة من سلالة زوس ٠٠ العذراء الذائعة الصيت ، والمبجلة بين الآلهة المتربعين فوق أوليمبوس ٠٠ فعندما يحاول أحد جرح أحاسيسها ـ بأن يتحدث عن لسانها كذبا ـ تبادر فتستوى بجوار أبيها زوس ، وتطلعه على قلوب البشر الخبيثة حتى يلاقوا جزاء حماقه آمرائهم الذين يشوهون بسوء تفكيرهم وجه العدالة ، ويدنسون نزاهة الحكم !

العدالة وقف على الانسان دون سواه !

٥ **ان** من يجلب الشقاء لغيره يجلب الشقاء لنفسه ، وان المكر السيء لا يحيق الا بأهله !٠٠ فعين زوس ن أبصرت كل شيء ، وان فهمت كل شيء ، فهى أيضا تعى كل هذه الاشياء ٠٠ هذا ان شاء صاحبها ورغب !٠٠ كما أنه لا يغيب عن ادراكه نوع العدالة التى تجرى داخل المدينة !

فعليك يا برسيس أن تضع هذه الامور بين طيات قلبك ، وتصغى بأذنيك الى صوت العدالة ، بدلا من التفكير فى الالتجاء الى العنف ٠ فقد أقر زوس هذا القانون لمصلحة البشرية ٠٠ فقال انه للطيور المجنحة ، وللاسماك ، والحيوانات ، أن يبتلع بعضها البعض ، لان العدل لا يجتاز حدود دائرتهم ، وانما قصره زوس على البشر ، فأعطاهم بذلك ماثبت انه خير ما فى وسعه ان يهب !٠٠ **وهكذا من يعرف الحق ويكون مستعدا**

لان يجاهر به ، يفوز من « زوس » ـ البعيد النظر ـ بالهناءة . أما من يتعمد الكذب في شهادته ، ويقسم يمين الزور ، فانه يتسبب فى جرح العدالة ، وفى اقتراف أخطاء لا سبيل الى اصلاحها . وبذلك يخلف ـ من بعده ـ جيلا مغمورا ، خاملا .. بينما يتضاعف ويزدهر جيل من يصدق فى قسمه !

ولسوف أتحدث اليك يابرسيس ، أيها الاحمق ، بما يقوله المنطق السليم . ان الاتصاف بالقبح أمر ميسور ، والطريق اليه سهل ممهد ، ومكانه قريب من مسكننا . بيد ان الآلهة الخالدين وضعوا عرق الجبين بيننا وبين الفضيلة ، التى لا سبيل اليها الا اذا سلك الانسان طريقا طويلا ، وعرا فى بدء الرحلة ، ولكنه يصبح سهلا ممهدا فى نهايتها !

ان أفضل الرجال جميعا هو ذلك الذى يتأمل بنفسه كل شئ ، ويراقب عاقبة الامور ونتائجها ، ومن يتعظ ويستوعب ارشاد الناصح البليغ . ولكن الذى لا يفكر فى غير مصلحته الشخصية ، والذى لا يتعظ بعبر الغير ، يغدو مثالا للرجل العديم الفائدة !

الثراء المغتصب .. يجلب المصائب !

◆ وعلى أية حال ، فعليك يا برسيس ـ ياسليل الآلهه ـ أن تؤدى عملك متذكرا نصيحتى دائما ، كى ينبذك الجوع ، وتحبك ديميتير ـ ربة الارض والانبات ـ المبجلة ذات التاج العظيم !.. كرس اهتمامك لتنظيم أعمالك وترتيبها ، حتى تمتلئ مذاودك فى الوقت المناسب طعاما . فبالعمل يقتنى الناس المال والغنم ، وبه يحظون عند الآلهة الخالدين بالمحبة السابغة !

ليس العمل عارا ، انما العار أن تكون عاطلا . واذا أنت أديت عملا فلن يلبث ان يغار منك الرجل الكسول وهو يرى ثراءك .. اذ لا عماد للشهرة والصيت غير الثروة !.. ومهما

يبلغ نصيبك فى الحياة ، فلن تجد ماهو أفضل من العمل لمصلحتك ، بتحويل فكرك السقيم بعيدا عن أملاك الغير ٠٠ وبدلا من ان تطمع فيما هو ليس لك ، يجدر بك ان تعنى بالعمل فيما هو لك !

وليس الخجل المشئوم الا رفيق الفقر ٠ أما الجرأة فترافق الثراء !٠٠ على أن الثراء لا يصلح اذا كان مغتصبا ٠٠ لان الآلهة لا يلبثون أن يجردوا المغتصب الجائر من قوته ويحطون من منزلته ، فلا يستمتع بالثراء الا مدة وجيزة !٠٠ وشبيه بهذا من يؤذى السائل أو الضيف ٠٠ ومن يصعد الى فراش أخيه ويرتكب جريمة لا يقرها الشرع كأن يجتمع بزوجته !٠٠ ومن يبغض الاطفال اليتامى ، ومن يسب أباه الطاعن فى السن ٠٠ فان زوس يغضب على من كان هذا شأنه وينزل به أقسى العقاب ، جزاء ما يقترف من شرور ٠ فهل لك ان تحول ميول قلبك العليل بعيدا عن تيار هذه الامور ، وان تقدم ما استطعت من القرابين النقية الطاهرة ، الى الآلهة الخالدين ؟!

دستور الجيرة والصداقة

◆ **ادع** صديقك ، و دع عدوك وشأنه ٠ وراع — على الاخص — جارك الذى يعيش قريبا منك ، لانه لو حل بالمكان خطب ما ، خف الجيران الى مواجهته على الفور دون أن يلووا على شىء ، أما الاقرباء فانهم يتأخرون حتى يحزموا متاعهم ٠ وكما أن الجار السىء نقمة ، فان الجار الطيب نعمة ٠ ومن يتمتع بجار طيب فانما يتمتع بالشرف ٠ ولن يلاقى ثور حتفه الا اذا كان هناك جار شرير ٠ **خذ من جارك كيلا معتدلا ، ثم رده اليه ثانية بنفس الكيل الذى كال لك به — أو بكيل يزيد عنه — حتى اذا كنت فى حاجة يوما ما وجدت من يقدم لك المساعدة !**

واياك والربح الخسيس (الحرام) ، فهو كالخراب تماما ! ٠٠ و كن صديقا مع الصدوق ، و زر من يزرك ، وأعط من

يعطك ، وامنع من يمنعك .. واعلم ان الكرم شيمه حسنة ، أما البخل فشيمة مرذولة جلابة للموت . والرجل الذى يعطى بنفس راضية يفوز براحة الضمير وانشراح الصدر ، أما الذين ترضى نفوسهم بالشح فان قلوبهم تتحجر !

ومن يضف الى ما عنده يتجنب شر الجوع ذى العين البراقه . فان القليل اذا أضيف الى القليل نما وتكاثر ! .. وما تملكه فى دارك لا يشغل بالك ، فمن الخير أن تحتفظ بذخيرتك فى منزلك اذ أن كل ماهو بعيد عن المنزل يكون فى عداد المفقود !

واذا وعدت صديقك جزاء فليكن وعدك صادقا . **ولا تدع امرأة تدخل فى ثوبها الفضفاض تتملق اليك أو تخدعك ، فهى لا تسعى الا طمعا فى مذودك . ومن يثق فى عنصر النساء شبيه بمن يثق فى ثلة من المنافقين !**

تزوج العذراء .. يسهل عليك تعليمها !

• **اتخذ** لك زوجة واحضرها الى منزلك ، عندما تصل الى السن اللائقة ، أى عندما تكون فى الثلاثين من عمرك .. وليس بعدها أو قبلها بكثير . فهذه هى السن القانونية للزواج .. **وتزوج العذراء حتى يمكنك ان تعلمها طرق التدبير ، لا سيما اذا كانت من القاطنات بالقرب منك ، ولكن عليك أن تتأمل كل ما هو حولك فى امعان ، وأن تتأكد من أن زواجك منها لن يكون أضحوكة جيرانك ، لان أفضل ما يظفر به المرء هو زوجة صالحة ، كما أنه لن يقتنى أسوأ من زوجة شريرة ، شرهة النفس ممن يشوين الازواج - مهما تكن قوتهم - دون الاستعانة بلهب النيران ، ويودين بهم الى الشيخوخة قبل أوانها !**

كن شديد الحرص على تجنب غضب الآلهة الخالدين فلا تجعل صديقا فى مرتبة شقيق .. أى لا تقربه كل القرب ، ولا تبدأه كذلك بالعدوان .. أما اذا كان هو البادىء بالعدوان

وهاجمك بالقول أو بالفعل ، فلا تنس ان تكيل له الصاع صاعين . ولكنه ان طلب صداقتك من جديد ، وأظهر رغبته فى استرضائك ، فافتح له ذراعيك مرحبا . فما أحقر من يصاحب اليوم صديقا وغدا صديقا آخر !

واحذر أن يلقبك الناس بالمبذر أو المقتر ، أو صديق الخبثاء ، أو المتكبر على الاخيار ! وتجنب أن تبلغ بك الوقاحه ان تعير شخصا بالفقر المدقع ، **فلن يوفق المرء الى كنز أثمن من اللسان العفيف ، أو الى مسرة أعظم من اللسان الحريص ! ولئن اغتبت غيرك بسىء الالفاظ ، فسرعان ما تدور الدائره وتسمع عن نفسك ماهو أسوأ !**

واذا دعيت الى حفل غاص بالضيوف فلا تكن فظا ، لاسيما اذا كان المرح سائدا !

لا تغتسل بماء اغتسلت به امرأة !

◆ لا تحاول أن تنجب نسلا بعد عودتك من مأتم مشئوم ، بل ليكن بعد حفل للآلهة الخالدين (أى لا تقرب زوجتك وأنت حزين .. وباشرها وانت طاهر !)

واذا شيدت منزلا فلا تتركه بغير طلاء حتى لا يقيم فيه الغراب الناعق ويستمر فى نعيقه

وعلى الرجل ان لا يغتسل بماء قد اغتسلت به امرأة ، اذ فى هذا ضرر بليغ لفترة من الزمان !

وعليك أن تتجنب مجالس الناس ، لان فى الحديث ضررا .. ان اثارته يسيرة سهلة ، ولكن من الصعب تحمل مغبته ، ومن العسير التخلص منه .. والحديث لا يتلاشى تماما اذا ما تقول به أناس كثيرون ، ومع ذلك فانه مقدس فى بعض النواحى !

* * *

• **كتابى :** كان هسيود نبيا من أنبياء الفكر والاخـلاق ، وان لم يكن من أنبياء الاديان والعقائد السماويه . وبالرغم من انه عاش فى عهد الاغريق القدامى ، الا أن كثيرا من نصـائحه والمبادىء التى كان يدعو اليها ، يشبه الى حـد كبير ما ردده الانبياء الذين كانوا يتلقون الوحى من السماء .. بل لعل من الطريف حقا ، ان نلاحظ تشابها كبيرا بين أسلوبه وأسلوب التوراة !

وفيما يلى بعض أقوال الانبياء المبعوثين ، التى يجد القارىء صدى لها فى أقوال « هسيود » :

كلم الرب موسى ــ الاصحاح ١٩ من سفر اللاويين بالتوراة ــ فقال : « **لا تسرقوا ولا تكذبوا ولا تغدروا أحدكم بصاحبه ولا تحلفوا باسمى للكذب .. لا ترتكبوا جورا فى القضاء** »

وقال داود فى المزمور ٣٤ : « **صن لسانك عن الشر وشفتيك عن التكلم بالغش** » ، وفى المزمور ٣٧ : « **نسل الاشرار ينقطع .. والصديقون يرثون الارض الى الابد** »

وقال سليمان فى الاصحاح ٦ من أمثاله : « **أيأخذ انسـان نارا فى حضنه ولا تحترق ثيابه ، أو يمشى انسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه ؟ .. هكذا من يدخل على امرأة صاحبه** »

وقال المسيح فى الاصحاح ١٩ من انجيل متى : « **لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور .. اكرم اباك وأمك وأحب قريبك كنفسك** »

وقال محمد : « **اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم** »

MEMOIRES
DE
CASANOVA
مغامرات فى الحب والسياسة!
مذكرات
كازانوفا
الكتاب الكلاسيكى الخالد
فى أدب العشق
والمغامرة

فى غمرة الاخطار ٠٠ مع « كازانوفا » !

◆ روينا لك فى الحلقة السابقة من مذكرات أمير المغامرات فى الحب والسياسة ، كيف انه شرع يدبر خطة للفرار من السجن الرهيب الذى القاه فيه « ديوان التفتيش » ظلما وبغيا ٠٠ وفى هذه الحلقة نتابع تلك المغامرة الرائعة ٠٠ فتعال نشارك « كازانوفا » احداثها ، ومفاجآتها ٠٠ واهوالها !

الجاسوس التائب !

◆ وكنت قد عرفت من « لورنس » أن شريكى سيدعى للمثول بين يدى المحقق بعد اربعة أيام ، فتظاهرت باننى مقتنع ببراءته ، وبانه لن يعود الى الزنزانة بعد التحقيق ٠ ومن ثم كتبت رسالتين بريئتين الى السيد «براجادين» والاب « جريمانى » ، وسألته ان يهربهما الى خارج السجن ، وفتقت بنفسى بطانة سترته لاخفيهما بين ثناياها

وبالفعل ، لم يلبث الرجل ان استدعى للتحقيق بعد اربعة أيام ٠ وكنت واثقا من أن خسة نفسه كجاسوس ستوحى اليه بان يسلم الرسالتين الى المحقق ٠ وتحقق ظنى ، اذ لم يكد يعود ، حتى تأكدت من عدم وجودهما معه. وعندما ضيقت عليه الخناق ، انهار على ركبتيه امامى باكيا ، وزعم ان المحقق امر بتفتيشه عنوة ، حتى عثر عليهما وصادرهما ٠ واظهرت له اننى لم اصدق كل قصته ، ثم غطيت وجهى براحتى متظاهرا بالاسى العميق ، وركعت امام صورة القديس ، ورحت اصلى واساله ان ينتقم لى ! وكنت اكتم الضحك بجهد جبار ، وانا استغل سذاجة الخائن واثر المخاوف التى تعلق بأذهان الجهلة من جراء الخرافات التى تنسب الى الدين !٠٠ ثم اويت الى فراشى صامتا ، وظللت طيلة النهار التالى لا اكلم « سوراداتشى » - كما كان زميلى يدعى - ولا اجيب عن اسئلته ، ولا احفل ببكائه ٠٠ وقد صور له الوهم ان الانتقام لابد ان يحل به ، فراح يستحلفنى ان اغفر له ، ويقسم على صدق توبته !

العذراء توفد « ملاكا » لكازانوفا !

◆ على ان الوقت كان يمر سريعا ٠٠ فقد اصبحنا فى الخامس والعشرين من اكتوبر ٠ وكانت خطتى تقوم على أن اعضاء ديوان التفتيش اعتادوا ان يقضوا الايام الثلاثة الاولى من شهر نوفمبر - من كل عام - فى احدى القرى يتعبدون!

.. لذلك أرسلت الى « بالبى » ادعوه لاستئناف العمل فى الساعة السابعة من مساء اليوم قبل الاخير من الشهر ، أى ٣٠ اكتوبر

وكنت قد حرصت فى خصامى على ان لا أمنح « سوراداتشى » ما كنت امنحه من طعام ، حتى هزل وخارت قواه فى الاسبوع السابق على آخر أيام الشهر . فلما حل يوم ٣٠ اكتوبر ، تظاهرت بالاشفاق على الخائن ، فاذا به ينخرط فى البكاء ، ويلح فى طلب المغفرة. فقدمت اليه طعاما وانا أقول له : « لقد تراءت لى العذراء فى المنام وامرتنى بأن أصفح عنك ، وقالت لى انها - مكافأة لى على الصفح - ستأمر أحد الملائكة بأن يتخذ صورة البشر ، ويهبط الى الارض ، فيلج غرفتنا ويمكننى من مبارحة السجن ، وان بوسعى أن أصحبك معى اذا اقسمت على ان تطلق مهنة التجسس » . فلما ابدى شيئا من التشكك ، قلت له انه لن يخسر شيئا اذا ما انتظر معى لنتأكد من صحة هـذه الرؤيا !.. وكنت اضحك فى اعماقى ، اذ كنت موقنا من ان ظهور « الملاك » الموعود لن يثير فى نفسه سوى الذعر !

وفى الساعة السادسة ، قدمت له عشاء دسما ، واسرفت فى اغداق النبيذ عليه ، ثم ركعت أمام صورة القديس ، وسألته ان يحذو حذوى .. وما ان دقت الساعة السابعة ، حتى بدأنا نسمع جلبة من الناحية الاخرى من الجدار ، فهمست بانفعال : « هاهو ذا الملاك قادم ! » ، ورسمت علامة الصليب ، وأمرته بأن يسجد معى ، وظللنا فى سجودنا فترة طويلة ، كنا نسمع خلالها « بالبى » وهو ينقب الجدار

وما لبثت أن أمرت « سوراداتشى » بأن يستوى على ركبتيه ، وقضينا ثلاث ساعات ونصف فى صلاة . وكان النعاس يستولى عليه بين آن وآخر ، حتى اذا بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف ، هتفت به : « سيظهر الملاك ! » ، وامرته بأن يرسم علامة الصليب ، وأن يستغرق فى الصلاة ، وبأن يقسم على أن لايبوح لمخلوق بسر الزائر الملائكى !.. ولكننى ما لبثت أن قلت له - عندما انتصف الليل ولما يفرغ بالبى من عمله - ان الملاك سيظهر فى منتصف النهار التالى ، وان عليه الى ذلك الحين ان ينام موليا وجهه شطر الجدار .. وان يتظاهر بالنوم عندما يأتى « لورنس » والحراس فى الصباح التالى . فلما اقبل هؤلاء وانصرفوا ، قلت لسوراداتشى ان « الملاك » سيأتى خلال الجدار ، وسيحمل معه مقصا ، فعليه - أى سوراداتشى - ان يساعدنا على قص لحيتينا ، فقال فى حيرة : « وهل للملاك لحية ؟ » .. واجبت فى خشوع تام : « هكذا امرت ! .. ولسوف نهبط من السجن الى ميدان سان مارك ، ثم نرحل الى المانيا »

وتعمدت ان احدثه عن طريق الفرار فى اسهاب ، وانا أكتم الطريق الحقيقى

الذى كنت قد رسمته فى خطتى ، وذلك تضليلا للحراس ان هو تخلف عن الفرار معى ، وافشى لوم امرى ..

اما الحرية .. واما الموت !

◆ وعند الظهر تماما ، ارتفعت صورة القديس فرانسيس عن الجدار ، وانساب الاب « بالبى » خلال الثغرة ، فالقى بنفسه بين احضانى .. وبينما انهمك « سوراداتشى » فى قص لحية الراهب ، كنت قد انزلقت خلال الثغرة الى غرفة الاخير حيث التقيت بالكونت اسكوين زميله ، الذى راح يحذرنى ويثبط من عزيمتى ، ولكننى قلت له : « سامضى فى طريقى ، فاما ظفرت بالحرية ، واما لاقيت حتفى ! » . ثم عدت الى غرفتى ، فمزقت ملاءات فراشى وجدلت منها حبلا طويلا ، وحزمت سترتى وعباءتى وقبعتى وبعض اقمصة وجوارب ومناديل . ثم عدت والراهب و « سوراداتشى » الى الغرفة الاخرى . واذ ذاك تخليت عن كل تظاهر ، وشرعت فى العمل فورا . وكان الظلام قد هبط ، فتسللت خلال الثغرة التى حفرت فى السقف ، وجزعت اذ وجدت ان القمر كان لايزال مشرقا . ولكننا تريثنا حتى غرب ، واستطعت ان احصل على جنيهين من الكونت اسكوينى . وكان « بالبى » بادى القلق والذعر ، لاينفك عن القول : « ان السطح منحدر ، ويتالف من الواح الرصاص ، فلن تستطيع ان تسير عليه ! » .. بينما راح الكونت يقول : « لن تجد شيئا تربط اليه الحبل لتتدلى والاب ، ومن ثم فلا بد لاحدكما ان يمسك بالحبل ليدع الآخر يهبط ، ثم يتدبر هو امر هبوطه . فمن منكما على استعداد ليؤثر الآخر على نفسه ؟ .. ومن اية ناحية تهبطان ؟ .. لن تستطيعا ان تهبطا من الناحية المواجهة للميدان ، والا تعرض امركما للافتضاح .. ولا من ناحية الكنيسة ، لانكما ستهبطان داخل الاسوار .. ولا من ناحية الساحة ، والا وقعتما فى ايدى الحراس .. والناحية الرابعة تسلمكما الى القناة ! »

وازاء هذه الاحتمالات ، جبن «سوراداتشى» ، وبعد ان كان متحمسا لمرافقتى ، سالنى ان ادعه يبقى ، وما درى الاحمق اننى سررت لهذه الفرصة ، فقد كنت اخشى ان يعرقل وجوده خطتى

من كازانوفا ٠٠ الى قضاة التفتيش !

◆ واسلمت « سوراداتشى » رسالة كتبت فيها :

« ان واجب قضاة ديوان التفتيش ان يبذلوا كل سلطان فى وسعهم لابقاء اى مذنب فى السجن ، ولكن من حق السجين ان يبذل قصارى جهده للفرار ٠٠ انهم لم يسألوه رأيه فى الزج به فى السجن ، ومن ثم فلا حاجة به الى أن يسألهم رأيهم فى أن يحرر نفسه ٠ ان جاك كازانوفا – كاتب هذه السطور – يعرف ان من المحتمل ان يقع فى أيدى الحراس ، ولن يرجو فى هذه الحالة سوى أن يجنب العذاب ٠ وهو ينزل عن كل متاعه فى الزنزانة لفرانسيس سوراداتشى ، كما ينزل عن كتبه للكونت اسكوينى »

وتقدمت « بالبى » فى الصعود الى السقف ، ثم رحت ازحف على يدى ورجلى، مستعينا بالاداة التى ابتكرتها للحفر ، كى لا انزلق عن الواح الرصاص ، وانا اجر الراهب خلفى٠وكنت فى كل لحظةاتمنى لو ركلته وتخلصت مما كان يجشمنى من عناء وتعب ٠ واجتزنا اخيرا السقف المشترك الذى يربط السجن الى قصر الدوقية – قصر ديوان التفتيش – فتركت « بالبى » جالسا يلهث ، ورحت اتفقد السطح بحثا عن « منور » أو ثغرة ننفذ خلالها الى داخل القصر ٠ ولكنى لم اعثر على بغيتى ، ولا على شىء اربط اليه الحبل ٠٠ وكنت طيلة الوقت لا انفك عن التفكير فى اننى قد اصادف فى القصر اخطارا يهون السجن ازاءها ، ولكن سعار اللهفة الى الحرية كان يتملكنى !

على انى لمحت نافذة فى الفراغ الذى يقع تحت السقف المحدودب – الطابق المسروق ، كما يسمونه – فوجدت فيها الامل الوحيد !

لحظات ٠٠ فى الهواء !

◆ وما لبثت اجراس كنيسة « سان مارك » ان دقت معلنة انتصاف الليل ، فانتبهت الى ضيق الوقت الباقى ، واسرعت عائدا الى زميلى ، فزحفنا حتى أشرفنا على النافذة ٠ وكان على واحد منا أن يدلى الآخر بالحبل ، فطلب « بالبى » ان يكون هو الاسبق فى الهبوط ٠ ومع ما كان فى طلبه من أنانية خسيسة ، الا اننى كظمت غيظى ، واجبته الى رغبته ٠ ولم تكن ثمة وسيلة لان اتدلى خلفه ، اذ كانت النافذة تبعد بحوالى خمسين قدما ، وليس ثمة من يمسك لى الحبل ٠ وعدت أتفقد السطح ، فاذا بى أطل على شرفة صغيرة فيها بعض مواد البناء ، وسلم ، فتحايلت حتى استطعت أن اسحب السلم ، ثم ربطت به الحبل ، وظللت أدفعه بين أنابيب تصريف مياه المطر (الميازيب) وبين الجدار ٠٠ وكانت مهمة شاقة ، وخطر الانزلاق من فوق السقف المنحدر يتهددنى فى كل

لحظة من لحظات أدائها ٠٠ واصبحت خمس درجات من السلم مندسة بين الميازيب والجدار ، ولكنها لم تكن كافية لحفظ السلم فى وضع متوازن ٠ وعدت أدفعه بكل ماتبقى فى جسدى المرهق من قوة ، حتى انحشر تماما ، واصبح من العسير تحريكه ، او حتى هزه ٠ وهنا اقدمت على المخاطرة التى كانت فيها حياتى او موتى !٠٠ اذ امسكت بالحبل وتركت نفسى انزلق فى الهواء - معتمدا على ثبات السلم فى انحشاره بين الانابيب والجدار - بعد ان ادليت بحزمة ثيابى الى الراهب ٠٠

وتارجحت فى الهواء لحظات كنت أخال فى كل منها ان قواى لن تلبث أن تتخلى عنى فاهوى مهشما ٠ على أن قدمى استطاعتا أخيرا أن تبلغا النافذة ، فرحت أتشبث بالميازيب ، حتى استطعت أن اثبت على حافتها ، حيث اعاننى الراهب على الهبوط

جولة ٠٠ فى عرين الاسد !

◆ وسرنا وقد وضع كل منا ذراعه فى ذراع الآخر ، حتى وصلنا الى مكان معتم ، طوله ثلاثون قدما تقريبا ، وعرضه حوالى العشرين ٠ وكان فى نهايته باب موصد بمزلاج من الحديد ، ولكننا لم نجد كثير عناء فى رفع هذا المزلاج ، ثم نفذنا خلال الباب الى غرفة بها مائدة كبيرة ، صفت حولها المقاعد٠ وشعرت اذ ذاك بان كل قواى قد نضبت ، فاتخذت من حزمة ثيابى وسادة ، واستلقيت على الارض مستسلما للنعاس ، غير حافل باحتجاجات زميلى ٠٠ ولا ازال أذكر - رغم السنوات الطوال التى انقضت - مدى الراحة التى كنت اشعر بها عندما استيقظت أخيرا على هزات من الراهب الذى راح ينبهنى فى ذعر الى ان ساعة الكنيسة دقت معلنة الخامسة ٠ وكان النوم قد فعل بى فعل السحر ، فاذا بى منتعش ، يقظ المشاعر والفكر ٠ ونهضنا نستكمل استطلاعنا، وانا مطمئن الى آن قصر الدوقية لم يكن محفوفا بحراسة دقيقة كتلك التى تحف بالسجن وتنبث فى ارجائه

وافضى بنا باب الى سلم حجرى هبطناه الى بهو وجدنا فى طرفه سلما آخر هبطناه، فاذا بنا فى قاعة فسيحة ، تنتهى بباب محكم الاغلاق ، تحايلت عبثا على فتحه فلم أجد بدا من ان استعمل أداة الحفر - التى لم تفارقنى - فى تحطيم بعض زجاج الطاقة التى كانت تعلوه (الشراعة) ، وتسلقت والراهب اليها ، ثم هبطنا الى الجانب الآخر ، بعد أن لاقينا الامرين من بقايا الزجاج التى اصابتنى بجراح فى اليدين والقدمين والفخذين !٠٠ ووجدنا سلما هبطناه ، فاذا بنا خلف باب كانه الجبل ٠٠ وهنا ، جلست على آخر درجات السلم ، وقلت للراهب : « لقد اديت ما على ، وبقى ان يفعل الله مايشاء ! »

وانفجر الراهب يسبني ويرميني بالتهور والجنون ، ولكنني انصرفت عن

ثورته بتضميد بعض جروحى بمناديل من حزمتى ، فما لبثت ان بدوت فى مظهر سكير جرح فى مشاجرة أثناء الليلة السالفة ٠٠ أما « بالبى » فكان يبدو كفلاح « غشيم » !

أخيرا ٠٠ يلتقى بالحرية !

◆ وكان لابد من عمل ٠٠ اى عمل !٠٠ وداخلنى ايمان قوى بأن الله ماكان ليساعدنى حتى هذه المرحلة لكى يسلمنى ثانية الى زبانية ديوان التفتيش ، لاسيما واننى كنت بريئا !٠٠ ورحت فى حيرتى أذرع المكان ، ثم نهضت الى نافذة فى البهو ، فتأملتها مليا ٠٠ وما لبثت ان عدت فاخرجت من الحزمة عباءتى الانيقة وقبعتى الاسبانية المطرزة بالقصب ، والتى كانت تعلوها ريشة بيضاء ، وارتديتهما ، ثم سرت الى النافذة فعالجتها حتى فتحتها واطللت منها وأنا أصيح مناديا البواب ٠٠ وانتبه الرجل اخيرا ، فرفع رأسه نحوى ، وما ان ابصر بالريشة يداعبها الهواء فوق القبعة الانيقة ، حتى اقبل مسرعا الى الباب ، وهو يقول : « يا لله !٠٠ لابد اننا نسينا احدا من السادة داخل القصر حين اغلقناه أمس ! »

وما ان فتح البواب المذهول الباب ، حتى استقبلته بضربة كنت قد استجمعت فيها كل مابقى من قواى ، فانهار على الارض مغشيا عليه ، بينما اندفعت أهبط السلم الخارجى ، غير حافل ببالبى الذى لم ينفك يقول وهو يجرى فى اعقابى لاهثا : « الى الكنيسة !٠٠ الى الكنيسة ! » ٠٠ ولكننى بدلا من ان اتجه الى الكنيسة ، اندفعت مجتازا ساحة القصر الى القناة ، واتجهت الى أقرب « جندول » فقفزت اليه آمرا النوتى بأن يسرع الى (فوسينا) ٠ ولحق بى الراهب فى خلال الوقت الذى استغرقه النوتى فى فك رباط قاربه ٠ ولعلنا كنا نبدو كاثنين من المهرجين ، بثيابنا المتناقضة ٠٠ ولكنى لم اعبأ بمظهرنا ، فتريثت حتى تحرك « الجندول » متجها الى منتصف القناة ، ثم قلت للنوتى اننى غيرت رايى ، وامرته بأن يقلنا الى (مستريه) بأسرع مافى وسعه ٠ وهناك نقدته اجره من الجنيهين اللذين كنت قد اقترضتهما من الكونت آسكوينى ، ثم استأجرت عربة ٠ واذ همت العربة بأن تتحرك بنا ، فوجئت بشخص يهتف باسمى ٠٠ والتفت وقد هلعت نفسى ، واذا برجل قمىء كنت اعرفه ــ يدعى « بالبو توماسى » ــ يقبل على مصافحا وهو يقول : « ماذا تفعل هنا ؟٠٠ هل فررت ؟ » ٠٠ واستجمعت كل رباطة جاشى ، وقلت فى هدوء : « ولماذا اهرب ؟ ٠٠ لقد اطلق سراحى » !

القدر يدفع الهارب الى دار ضابط الشرطة !

◆ ووكزت الحوذى ، فساط جواديه ، منطلقا بنا في اتجاه (تريفيسو) :

فلما وصلنا اليها ، نزلنا فى فندق ، وطلبت عربة اخرى ٠ ولم اكن انتوى فى الواقع استئجارها ، اذ لم تكن النقود التى تبقت معى كافيـــة ، ولكننى عمدت الى هذا التظاهر للتمويه ٠ وكنت أتضور جوعا ، غير اننى ادعيت الرغبة فى أن أتنزه فى الحقول قليـلا ريثمـا تعد العربة ، ثم اصطحبت « بالبى » وغادرنا المدينة خلال بوابة القديس توماس ، واوغلنا فى الحقول ٠ وبعـد نحو ساعة ، عرجنا على بيت قروى صادفناه ، فتناولنا طعـاما شهيـا مقابل ثلاثين صولديا ٠ ثم استانفنا السير زهاء أربع ساعات ، فلما صرنا على اربعة وعشرين ميلا من (تريفيسو) ، توقفت عن السـير وقـد استبد بى الارهاق ، وتورمت قدماى ، وآلمتنى جـراح ركبتى وفخـذى ٠٠ ورأيت أن لابد لى من التخلص من « بالبى » ، حتى لا أحمل همـه فى هذه الظروف الحرجة ٠ ومن ثم قلت له : « لابد لنا من بلوغ (بورجو دى فالسوجانو) ، وهى أول مدينة خارج حدود الجمهورية ٠ ولكنى أرى من الحيطة أن لانسـعى اليهـا معا ، بل ليتخذ كل منا طريقه منفصلا عن الآخر ، لكى لايسهل تعقبنا ! »

وما ان اختفى « بالبى » عن بصرى ، حتى انحرفت عن اتجاهنا السابق ، وضربت فى ارجاء الريف ، فما لبثت ان اقبلت على قـرية صغـيرة ٠ ولست أدرى ما الذى اجتذبنى الى بيت احمر صغير ، قائم فى طرفها ، فسعيت اليه ٠ وصادفت راعيا فى طريقى ، فسألته عن صاحب الدار ، وكم كان ذعرى حين قال انهـا دار ضابط بوليس القرية ٠٠ الدار الوحيـــدة التى كان يجب ان اتحاشاها ، اولا اننى كنت منجذبا اليهـا بحاسة غريبة لم استطع أن أعرف كنهها ، ولم املك ان اقاومها !

سجين ٠٠ فى ضيافة زوجة الضابط !

◆ ورأيت شابة جميلة امام الدار ، وعلى مقربة منها طفل يلعب ، فسألتها فى أدب عن زوجها ، واذا به متغيب عن الدار ، فهتفت : « يا للاسـف !٠٠ لقد جئت من سفر لكى اقابل زميلى » ٠٠ وصاحت السـيدة : « زميلك ؟! ٠٠ اذن فانت السيد فيتورى ٠٠ كان زوجى يترقب وصولك ٠ وسيستاء اذا فاته لقاؤك !٠٠ تفضل على الرحب والسعة ، ولتبق ضيفنا حتى يعود ، فانه استدعى ـ كما استدعى شرطة القرى جميعا ـ للاشتراك فى البحث عن سجينين هربا من « سجن الرصاص » ٠ ولكن ٠٠ ما لركبتك ؟ » ٠٠ وأدركت أن الله كان فى عونى ، والا دفعنى الى دار كان أهلها يترقبون زائرا لايعرفون شكله ! ٠٠ ومضيت أجيب عن سؤال السيدة ، باختلاق قصة عن أرنب جبلى صادفته فى طريقى ، فراق لى أن أصيده ٠ وفيما كنت أطارده ، انزلقت على الصخور فاصبت بتسلخات وجروح ٠٠ وهتفت الشابة الحسناء : « يا للمسكين !٠٠

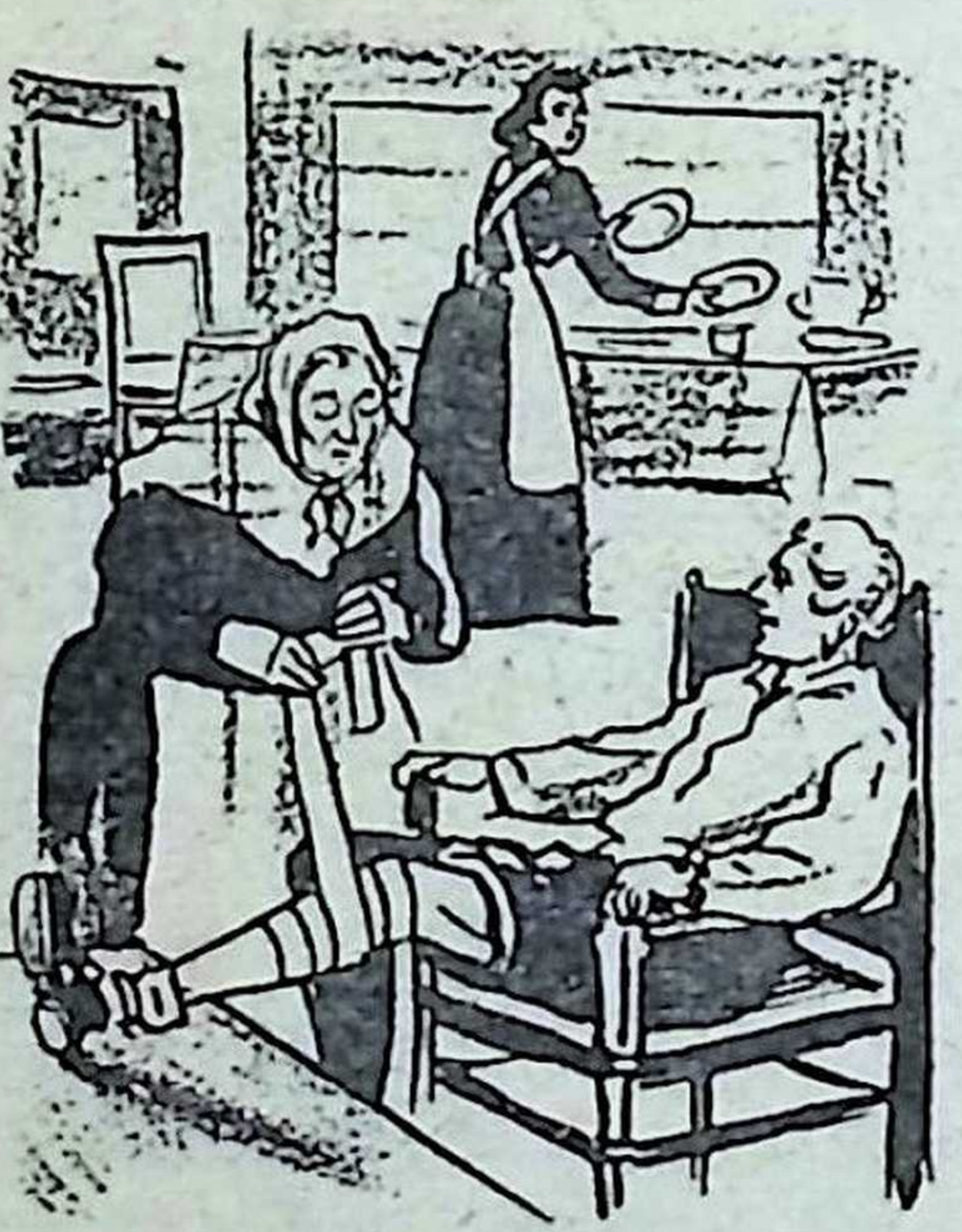

تعال لتعنى أمى بجراحك ! »

وجلست فى مقعد وثير ، بينما راحت الشابة تعد لى طعاما شهيا ، وانهمكت أمها فى تضميد جراحى . وما ان ارتحت من آلام الجراح ، وملأت معدتى . حتى غلبنى النوم ، فلم أستيقظ الا فى ضحى اليوم التالى . وأسرعت بارتداء ثيابى ، وهبطت مسرعا الى الطابق الارضى ، فلم أجد المرأتين فى طريقى ، ولكنى رأيت لدى الباب رجلين بدا من مظهرهما أنهما من الشرطة . واجفلت، ولكن النوم كان قد شحذ حواسى وجراتى، فانطلقت من بينهما الى الخارج فى ثبات ، ووجدتنى مضطرا الى مواصلة السير ، راحلا عن القرية دون ان أشكر مضيفتى الجميلة !

وظللت سادرا فى سيرى خمس ساعات ، ثم مررت بكنيسة .. وكان اليوم يوم عيد ، والقرويون يقبلون أفواجا للصلاة ، فاندسست بينهم . وفيما كنت أغادر الكنيسة ، أحسست بيد تمس كتفى ، فالتفت مذعورا لاجد نفسى أمام « مارك أنتونى جريمانى » ، ابن أخ الرجل الذى كانت أمى قد أقامته يوما وصيا على . . وهتف السيد : « أهذا أنت ياكازانوفا ؟ .. وأين زميلك ؟ »

(يتبــع)

---*---

فاتنات الرجال

ENCHANTERS OF MEN

ساقية فى بار ملهى « الفولى برجير » بباريس

لوحة زيتية بريشة الفنان الخالد « مانيه » طبق فيها مذهبه القائل ان الشخصية الرئيسية فى كل لوحة هى .. الضوء !

الراقصة العالمية « فيوليتا ايلفين » فى رقصة باليه
(لوحة للمصور « هوستون روجرز »)

مدام دى مونتسبان - نيل جوين - مدام دى بارى - لولا مونتيز - مدام دى ستايل - آن بولين - كليوپاترا - مارى ڤاليفسكا .. وغيرهن من:

فاتنات الرجال

فى مختلف عصور التاريخ وشتى البلاد .. اقرأ قصص حياتهن وسيطرتهن على الملوك والأباطرة والعباقرة .. فى هذا الكتاب الفريد الممتع، الأول من نوعه، الذى يروى لك حقائق أغرب من الخيال.

تصدره لك فى منتصف أكتوبر
سلسلتك المحبوبة